سلسلة متون معهد السُّنّة - رقم (٣٧) / الجزء ٦
النسخة الأولى (١٤٤٣)

معهد السنة
As-Sunnah College

تيسِير الكَريم الرَّحمن
في تَفسِير كَلام المنَّان

الجزء السادس «١٣ سورة»: (من الصافات إلى الحجرات)

لعبد الرحمن بن ناصر السعدي

توفي سنة ١٣٧٦ هـ رَحِمَهُ اللهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

تنبيه

اعلم أنَّ طريقتي في هذا التفسير أنِّي أذكرُ عند كلِّ آيةٍ: ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما تعلَّق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلَّق بالمواضع اللَّاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنَّه (مثاني) تثنَّىٰ فيه الأخبار والقصص والأحكام، وجميع المواضيع النَّافعة لحكمٍ عظيمة، وأمر بتدبُّره جميعه، لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها.

٣٧- تَفْسِيرُ سُورَةِ الصَّافَّاتِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ١٠ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ١١﴾[الصافات]

[١-٤] هذا قسم منه تعالىٰ بالملائكة الكرام، في حال عبادتها وتدبيرها ما تدبره بإذن ربها، علىٰ ألوهيته تعالىٰ وربوبيته، فقال: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾؛ أي: صفوفا في خدمة ربهم، وهم الملائكة.

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ وهم: الملائكة، يزجرون السحاب وغيره بأمر الله.

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ وهم: الملائكة الذين يتلون كلام الله تعالىٰ، فلما كانوا متألِّهين لربهم، ومتعبدين في خدمته، ولا يعصونه طرفة عين، أقسم بهم علىٰ ألوهيته؛ فقال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ ليس له شريك في الإلهية، فأخلصوا له الحب والخوف والرّجاء، وسائر أنواع العبادة.

[٥] ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾؛ أي: هو الخالق لهذه المخلوقات، الرازق لها، المدبر لها، فكما أنه لا شريك له في ربوبيته إياها، فكذلك لا شريك له في ألوهيته، وكثيرا ما يقرر تعالىٰ توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، لأنه دال عليه. وقد أقر به أيضا المشركون في العبادة، فيلزمهم بما أقروا به علىٰ ما أنكروه.

وخص الله المشارق بالذِّكر، لدلالتها علىٰ المغارب، أو لأنها مشارق النجوم التي سيذكرها، فلهذا قال:

[٦-٩] ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝ وَحِفۡظًا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ ذكر الله في الكواكب هاتين الفائدتين العظيمتين:

إحداهما: كونها زينة للسماء، إذ لولاها، لكانت السماء جرما مظلما لا ضوء فيه؛ ولكن زينها فيها لتستنير أرجاؤها، وتحسُن صورتها، ويهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر، ويحصل فيها من المصالح ما يحصل.

والثانية: حراسة السماء عن كلِّ شيطان مارد، يصل بتمرده إلىٰ استماع الملأ الأعلىٰ، وهم الملائكة، إذا استمعت قذفتها بالشُّهب الثواقب ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ طردا لهم، وإبعادا عن استماع ما يقول الملأ الأعلىٰ.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾؛ أي: دائم، معد لهم، لتمرّدهم عن طاعة ربهم.

[١٠] ولولا أنه تعالىٰ استثنىٰ، لكان ذلك دليلًا علىٰ أنهم لا يستمعون شيئا أصلا؛ ولكن قال: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾؛ أي: إلا من تلقف من الشياطين المردة، الكلمة الواحدة علىٰ وجه الخُفية والسرقة ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ تارة يُدركه قبل أن يوصلها إلىٰ أوليائه، فينقطع خبر السماء، وتارة يُخبر بها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مائة كذبة يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء.

[١١] ولما بين هذه المخلوقات العظيمة قال: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾؛ أي: اسأل منكري خلقهم بعد موتهم. ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾؛ أي: إيجادهم بعد موتهم، أشد خلقا وأشق؟. ﴿أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ﴾ من هذه المخلوقات؟ فلا بد أن يقروا أن خلق السَّمٰوات والأرض أكبر من خلق الناس، فيلزمهم إذا الإقرار بالبعث، بل لو رجعوا إلىٰ أنفسهم وفكروا فيها، لعلموا أن ابتداء خلقهم من طين لازب، أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبِۭ﴾؛ أي: قوي شديد كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ۝﴾ [الحِجر].

﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ۝ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ۝ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةً يَسۡتَسۡخِرُونَ ۝ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّبِينٌ ۝ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ۝ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ۝ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ۝ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝﴾ [الصافات]

[١٢] ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ﴾؛ أيها الرسول أو أيها الإنسان، من تكذيب من كذب بالبعث، بعد أن أريتهم من

الآيات العظيمة والأدلة المستقيمة، وهو حقيقة محل عجب واستغراب، لأنه مما لا يقبل الإنكار، ﴿وَ﴾ أعجب من إنكارهم وأبلغ منه، أنهم ﴿يَسْخَرُونَ﴾ ممن جاء بالخبر عن البعث، فلم يكفهم مجرد الإنكار، حتىٰ زادوا السخرية بالقول الحق.

[١٣] ﴿وَ﴾ من العجب أيضا أنهم ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ ما يعرفون في فطرهم وعقولهم، وفطنوا له، ولفت نظرهم إليه ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ ذلك، فإن كان جهلا فهو من أدل الدلائل علىٰ شدة بلادتهم العظيمة، حيث ذكِّروا ما هو مستقر في الفطر، معلوم بالعقل، لا يقبل الإشكال، وإن كان تجاهلا وعنادا، فهو أعجب وأغرب.

[١٤] ومن العجب أيضا أنهم إذا أقيمت عليهم الأدلة، وذكروا الآيات التي يخضع لها فحول الرجال وألباب الألباء، يسخرون منها ويعجبون.

[١٥] ومن العجب أيضا، قولهم للحق لما جاءهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فجعلوا أعلىٰ الأشياء وأجلها، وهو الحق، في رتبة أخس الأشياء وأحقرها.

[١٦-١٧] ومن العجب أيضا، قياسهم قدرة رب الأرض والسَّمٰوات، علىٰ قدرة الآدمي الناقص من جميع الوجوه، فقالوا استبعادا وإنكارا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

[١٨] ولما كان هذا منتهىٰ ما عندهم، وغاية ما لديهم، أمر الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل علىٰ ترهيبهم فقال: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ ستبعثون أنتم وآباؤكم الأولون ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ ذليلون صاغرون، لا تمتنعون، ولا تستعصون علىٰ قدرة الله.

[١٩] ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ينفخ إسرافيل فيها في الصور، ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ مبعوثون من قبورهم، ﴿يَنظُرُونَ﴾ كما ابتدئ خلقهم، بعثوا بجميع أجزائهم، حفاة عراة غرلا.

[٢٠] وفي تلك الحال، يظهرون الندم والخزي والخسار، ويدعون بالويل والثبور.

﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ فقد أقروا بما كانوا في الدنيا به يهزؤون.

[٢١] فيقال لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ بين العباد فيما بينهم وبين ربهم من الحقوق، وفيما بينهم وبين غيرهم من الخلق.

﴿۞ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ

ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات]

[٢٢-٢٣] أي إذا أحضروا يوم القيامة، وعاينوا ما به يكذبون، ورأوا ما به يستسخرون، يؤمر بهم إلىٰ النار، التي بها كانوا يكذبون، فيقال: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي ﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ الذين من جنس عملهم، كلٌّ يضم إلىٰ من يجانسه في العمل.

﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد التي زعموها، اجمعوهم جميعا و﴿ٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ أي: سوقوهم سوقا عنيفا إلىٰ جهنم.

[٢٤] ﴿وَ﴾ بعد ما يتعين أمرهم إلىٰ النار، ويعرفون أنهم من أهل دار البوار، يقال: ﴿قِفُوهُمۡۖ﴾ قبل أن توصلوهم إلىٰ جهنم ﴿إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ عما كانوا يفترونه في الدنيا، ليظهر علىٰ رؤوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم.

[٢٥] فيقال لهم: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾؛ أي: ما الذي جرىٰ عليكم اليوم؟ وما الذي طرقكم لا ينصر بعضكم بعضا، ولا يغيث بعضكم بعضا، بعدما كُنتم تزعمون في الدنيا، أن آلهتكم ستدفع عنكم العذاب، وتغيثكم أو تشفع لكم عند الله.

[٢٦] فكأنهم لا يجيبون هذا السؤال؛ لأنهم قد علاهم الذل والصغار، واستسلموا لعذاب النار، وخشعوا وخضعوا وأبلسوا، فلم ينطقوا؛ ولهذا قال: ﴿بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾.

﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الصافات]

[٢٧-٢٨] لما جمعوا هم وأزواجهم وآلهتهم، وهدوا إلىٰ صراط الجحيم، ووُقفوا، فسئلوا، فلم يجيبوا، وأقبلوا فيما بينهم، يلوم بعضهم بعضا علىٰ إضلالهم وضلالهم؛ فقال الأتباع للمتبوعين الرؤساء: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾؛ أي: بالقوة والغلبة، فتضلونا، ولولا أنتم لكنا مؤمنين.

[٢٩-٣٢] ﴿قَالُواْ﴾ لهم ﴿بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: ما زلتم مشركين، كما نحن مشركون، فأي: شيء فضلكم علينا؟ وأي: شيء يوجب لومنا؟

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ﴾؛ أي: قهر لكم علىٰ اختيار الكفر ﴿بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا طَٰغِينَ﴾ متجاوزين للحد.

﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا﴾ نحن وإياكم ﴿قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ العذاب؛ أي: حق علينا قدر ربنا وقضاؤه، أنا وإياكم سنذوق العذاب، ونشترك في العقاب.

﴿فَـ﴾ لذلك ﴿أَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾؛ أي: دعوناكم إلىٰ طريقتنا التي نحن عليها، وهي الغواية، فاستجبتم لنا، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.

[٣٣-٣٤] قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب جرمهم؛ كما اشتركوا في الدنيا علىٰ الكفر، اشتركوا في الآخرة بجزائه، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

[٣٥-٣٦] ثم ذكر أن إجرامهم، قد بلغ الغاية وجاوز النهاية فقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فدعوا إليها، وأمروا بترك إلهية ما سواه ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عنها وعلىٰ من جاء بها.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ معارضة لها ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾ التي لم نزل نعبدها نحن وآباؤنا ﴿لِـ﴾ قول ﴿شَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ يعنون محمدا ﷺ. فلم يكفهم - قبحهم الله - الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتىٰ حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعرا مجنونا، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل خلق الله، وأعظمهم رأيا.

[٣٧] ولهذا قال تعالىٰ، ناقضا لقولهم: ﴿بَلۡ جَآءَ﴾ محمد ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: مجيئه حقا، وما جاء به من الشرع والكتاب حق. ﴿وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ أي: ومجيئه صدق المرسلين، فلولا مجيئه وإرساله لم يكن الرسل صادقين، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله، لأنهم أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق، لئن جاءهم، ليؤمنن به ولينصرنه، وأخذوا ذلك علىٰ أممهم، فلما جاء ظهر صدق الرسل الذين قبله، وتبيَّن كذب من خالفهم، فلو قُدّر عدم مجيئه، وهم قد أخبروا به، لكان ذلك قادحا في صدقهم.

وصدّق أيضا المرسلين، بأن جاء بما جاءوا به، ودعا إلىٰ ما دعوا إليه، وآمن بهم، وأخبر بصحة

رسالتهم ونبوّتهم وشرعهم.

[٣٨-٣٩] ولما كان قولهم السابق: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ قولًا صادرا منهم، يحتمل أن يكون صدقا أو غيره، أخبر تعالىٰ بالقول الفصل الذي لا يحتمل غير الصِّدق واليقين، وهو الخبر الصادر منه تعالىٰ، فقال: ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾؛ أي: المؤلم الموجع.

﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ﴾ في إذاقة العذاب الأليم ﴿إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فلم نظلمكم، وإنما عدلنا فيكم؟

ولما كان هذا الخطاب لفظُه عامًّا، والمراد به المشركون، استثنىٰ تعالىٰ المؤمنين فقال:

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤١ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ۝٤٢ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ۝٤٥ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ۝٤٩﴾ [الصافات]

[٤٠] يقول تعالىٰ: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ فإنهم غير ذائقي العذاب الأليم، لأنهم أخلصوا لله الأعمال، فأخلصهم، واختصهم برحمته، وجاد عليهم بلطفه.

[٤١-٤٢] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾؛ أي: غير مجهول، وإنما هو رزق عظيم جليل، لا يجهل أمره، ولا يبلغ كنهه.

فسره بقوله: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ من جميع أنواع الفواكه التي تتفكه بها النفس، للذتها في لونها وطعمها. ﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ لا مهانون محتقرون؛ بل معظَّمون مجلون موقرون. قد أكرم بعضهم بعضا، وأكرمتهم الملائكة الكرام، وصاروا يدخلون عليهم من كلِّ باب، ويهنئونهم ببلوغ أهنأ الثواب، وأكرمهم أكرم الأكرمين، وجاد عليهم بأنواع الكرامات، من نعيم القُلوب والأرواح والأبدان.

[٤٣] ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: الجنات التي النَّعيم وصفها، والسرور نعتها، وذلك لما جمعته، مما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، وسلمت من كل مُخل بنعيمها، من جميع المكدرات والمنغّصات.

[٤٤] ومن كرامتهم عند ربهم، وإكرام بعضهم بعضًا، أنهم علىٰ ﴿سُرُرٖ﴾ وهي: المجالس المرتفعة، المزينة بأنواع الأكسية الفاخرة، المزخرفة المجملة، فهم متكئون عليها، علىٰ وجه الراحة والطمأنينة، والفرح.

﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ فيما بينهم قد صفت قلوبُهم، ومحبتهم فيما بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض، فإنَّ مقابلة وجوههم، تدل علىٰ تقابل قلوبهم، وتأدُّب بعضهم مع بعض فلم يستدبره، أو يجعله إلىٰ جانبه، بل من كمال السُّرور والأدب، ما دل عليه ذلك التقابل.

[٤٥-٤٧] ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ﴾؛ أي: يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم بالأشربة اللذيذة، بالكاسات الجميلة المنظر، المترعة من الرحيق المختوم بالمسك، وهي كاسات الخمر.

وتلك الخمر، تخالف خمر الدُّنيا من كل وجه، فإنها في لونها ﴿بَيۡضَآءَ﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ يلتذّ شاربها بها وقت شربها وبعده، وأنها سالمة من غول العقل وذهابه، ونزفه، ونزف مال صاحبها، وليس فيها صداع ولا كدر.

[٤٨-٤٩] فلما ذكر طعامهم وشرابهم ومجالسهم، وعموم النعيم وتفاصيله داخلة في قوله: ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ لكن فصل هذه الأشياء لتُعلم فتشتاق النفوس إليها، ذكر أزواجهم؛ فقال: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ﴾؛ أي: وعند أهل دار النعيم، في محلاتهم القريبة، حورٌ حسان، كاملات الأوصاف، قاصرات الطرف، إما أنها قصرت طرفها علىٰ زوجها، لعفّتها وعدم مجاوزته لغيره، ولجمال زوجها وكماله، بحيث لا تطلُب في الجنة سواه، ولا ترغب إلا به، وإما لأنها قصرت طرف زوجها عليها، وذلك يدلُّ علىٰ كمالها وجمالها الفائق، الذي أوجب لزوجها، أن يقصُر طرفه عليها، وقصْر الطرف أيضا، يدل علىٰ قصر النَّفس والمحبة عليها، وكلا المعنيين محتملٌ، وكلاهما صحيح، وكل هذا يدل علىٰ جمال الرجال والنساء في الجنة، ومحبة بعضهم بعضا، محبة لا يطمح إلىٰ غيره، وشدة عفتهم كلهم، وأنه لا حسد فيها ولا تباغض، ولا تشاحن، وذلك لانتفاء أسبابه.

﴿عِينٞ﴾؛ أي: حسان الأعين جميلاتها، ملاح الحدق. ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾؛ أي: الحور، ﴿بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾؛ أي: مستور، وذلك من حسنهن وصفائهن وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهاها، ليس فيه كدر ولا شين.

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ۝٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾ [الصافات]

[٥٠-٥٩] لما ذكر تعالىٰ نعيمهم، وتمام سرورهم، بالمآكل والمشارب، والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة، ذكر تذاكرهم فيما بينهم، ومطارحتهم للأحاديث، عن الأمور الماضية، وأنهم ما زالوا في المحادثة والتساؤل، حتىٰ أفضىٰ ذلك بهم، إلىٰ أن قال قائل منهم: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ في الدُّنيا، ينكر البعث، ويلومني علىٰ تصديقي به و﴿يَقُولُ﴾ لي ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؛ أي: مجازَون بأعمالنا؟ أي: كيف تصدق بهذا الأمر البعيد، الذي في غاية الاستغراب، وهو أننا إذا تمزَّقنا، فصرنا ترابا وعظاما، أننا نبعث ونعاد، ثم نحاسب ونجازىٰ بأعمالنا؟ .

أي: يقول صاحب الجنة لإخوانه: هذه قصتي، وهذا خبري، أنا وقريني، ما زلت أنا مؤمنا مصدِّقا، وهو ما زال مكذبا منكرا للبعث، حتىٰ متنا، ثم بُعثنا، فوصلت أنا إلىٰ ما ترون، من النعيم، الذي أخبرتنا به الرسل، وهو لا شك، أنه قد وصل إلىٰ العذاب.

فـ ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ لننظر إليه، فنزداد غبطة وسرورا بما نحن فيه، ويكون ذلك رَأْيَ عين؟ والظاهر من حال أهل الجنة، وسرور بعضهم ببعض، وموافقة بعضهم بعضًا، أنهم أجابوه لما قال، وذهبوا تبعا له، للاطلاع علىٰ قرينه.

﴿فَٱطَّلَعَ﴾ فرأىٰ قرينه ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: في وسط العذاب وغمراته، والعذاب قد أحاط به.

فـ ﴿قَالَ﴾ له لائما علىٰ حاله، وشاكرا لله علىٰ نعمته أن نجاه من كيده: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾؛ أي: تهلكني بسبب ما أدخلت عليَّ من الشُّبَه بزعمك. ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ علىٰ أن ثبتني علىٰ الإسلام ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ في العذاب معك. ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؛ أي: يقوله المؤمن مبتهجا بنعمة الله علىٰ أهل الجنة بالخلود الدائم [فيها] (١) والسلامة من العذاب، استفهام بمعنىٰ الإثبات والتقرير. وقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ وحذف المعمول، والمقام مقام لذة وسرور، فدل ذلك علىٰ أنهم يتساءلون بكل ما يتلذذون بالتحدث به، والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال.

ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم، والبحث عنه، فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا، فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه.

---

(١) ساقط من نسخة ابن الجوزي بخلاف النسخ الأخرىٰ.

[٦٠] فلما ذكر تعالىٰ نعيم الجنة، ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة، مدحه، وشوَّق العاملين، وحثَّهم علىٰ العمل له؛ فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي حصل لهم به كل خير، وكل ما تهوىٰ النفوس وتشتهي، واندفع عنهم به كل محذور ومكروه، فهل فوز يُطلب فوقه؟ أم هو غاية الغايات، ونهاية النِّهايات، حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسَّمٰوات، وفرحوا بقربه، وتنعموا بمعرفته واستروا برؤيته، وطربوا لكلامه؟

[٦١] ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ فهو أحقُّ ما أنفقت فيه نفائس الأنفاس وأولىٰ ما شمّر إليه العارفون الأكياس، والحسرة كل الحسرة، أن يمضِي علىٰ الحازم، وقت من أوقاته، وهو غير مشتغل بالعمل، الذي يقرِّب لهذه الدار، فكيف إذا كان يسير بخطاياه إلىٰ دار البوار؟

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٧١ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٧٣ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٧٤﴾ [الصافات]

[٦٢] ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾؛ أي: ذلك النعيم الذي وصفناه لأهل الجنة خير، أم العذاب الذي يكون في الجحيم من جميع أصناف العذاب؟ فأيّ الطعامين أولىٰ؟ الذي وصف في الجنة ﴿أَمْ﴾ طعام أهل النار؟ وهو ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾.

[٦٣-٦٦] ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً﴾؛ أي: عذابا ونكالا ﴿لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي، ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: وسطه فهذا مخرجها، ومعدنها شرّ المعادن وأسوؤها، وشر المغرس، يدل علىٰ شر الغراس وخسته، ولهذا نبهنا الله علىٰ شرها بما ذكر أين تنبت به، وبما ذكر من صفة ثمرتها، وأنها كـ ﴿رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ فلا تسأل بعد هذا عن طعمها، وما تفعل في أجوافهم وبطونهم، وليس لهم عنها مندوحة ولا معدل. ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ فهذا طعام أهل النار، فبئس الطعام طعامهم.

[٦٧] ثم ذكر شرابهم فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾؛ أي: علىٰ أثر هذا الطعام ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: ماء حارا، قد انتهىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ

وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف]، وكما قال تعالىٰ: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾﴾ [محمد].

[٦٨] ﴿إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ﴾؛ أي: مآلهم ومقرهم ومأواهم ﴿لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾ ليذوقوا من عذابه الشديد، وحره العظيم، ما ليس عليه مزيد من الشقاء.

[٦٩-٧٣] كأنه قيل: ما الذي أوصلهم إلىٰ هذه الدار؟ فقال: ﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ﴾؛ أي: وجدوا ﴿ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ﴾؛ أي: يسرعون في الضلال، فلم يلتفتوا إلىٰ ما دعتهم إليه الرسل، ولا إلىٰ ما حذَّرتهم عنه الكتب، ولا إلىٰ أقوال الناصحين، بل عارضوهم بأن قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزُّخرُف].

﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ﴾؛ أي: قبل هؤلاء المخاطبين ﴿أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وقليل منهم آمن واهتدىٰ.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ ينذرونهم عن غيهم وضلالهم.

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ كانت عاقبتهم الهلاك، والخزي، والفضيحة، فليحذر هؤلاء أن يستمرُّوا علىٰ ضلالهم، فيصيبهم مثل ما أصابهم.

[٧٤] ولما كان المنذرون ليسوا كلهم ضالين؛ بل منهم من آمن وأخلص الدِّين لله، استثناه الله من الهلاك؛ فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾؛ أي: الذين أخلصهم الله، وخصّهم برحمته لإخلاصهم، فإن عواقبهم صارت حميدة.

ثم ذكر نموذجًا من عواقب الأمم المكذبين فقال:

﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الصافات]

[٧٥-٨٢] يخبر تعالىٰ عن عبده ورسوله نوح ﷺ، أول الرسل، أنه لما دعا قومه إلىٰ الله، تلك المدّة الطويلة فلم يزدهم دعاؤه، إلا فرارا، أنه نادىٰ ربّه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ الآية [نوح].

وقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت] فاستجاب الله له، ومدح تعالىٰ نفسه فقال: ﴿فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ لدعاء الداعين، وسماع تبتلهم وتضرعهم، أجابه إجابة طابقت ما سأل، نجاه وأهله من الكرب العظيم وأغرق جميع الكافرين، وأبقىٰ نسله وذريته متسلسلين، فجميع الناس من ذرية

نوح ﷺ، وجعل له ثناء حسنًا مستمرا إلىٰ وقت الآخرين، وذلك لأنه محسنٌ في عبادة الخالق، محسن إلىٰ الخلق، وهذه سنته تعالىٰ في المحسنين، أن ينشر لهم من الثناء علىٰ حسب إحسانهم.

ودلّ قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أن الإيمان أرفع منازل العباد وأنه مشتمل علىٰ جميع شرائع الدين وأصوله وفروعه، لأن الله مدح به خواص خلقه.

﴿۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات]

[٨٣-٨٤] أي: وإن من شيعة نوح ﷺ، ومن هو علىٰ طريقته في النبوة والرسالة، ودعوة الخلق إلىٰ الله، وإجابة الدعاء= إبراهيم الخليل ﷺ.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك والشبه، والشهوات المانعة من تصور الحق، والعمل به، وإذا كان قلب العبد سليما= سلم من كل شر، وحصل له كل خير.

[٨٥-٨٧] ومن سلامته أنه سليم من غش الخلق وحسدهم، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق، ولهذا نصح الخلق في الله، وبدأ بأبيه وقومه؛ فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ هذا استفهامٌ علىٰ وجه الإنكار، وإلزام لهم بالحجة. ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾؛ أي: أتعبدون من [دونه] آلهة كذبا، ليست بآلهة، ولا تصلح للعبادة، ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أن يفعل بكم وقد عبدتم معه غيره؟

وهذا ترهيب لهم بالجزاء بالعقاب علىٰ الإقامة علىٰ شركهم. وما الذي ظننتم برب العالمين، من النقص حتىٰ جعلتم له أندادا وشركاء.

[٨٨-٩٣] فأراد ﷺ أن يكسر أصنامهم، ويتمكن من ذلك، فانتهز الفرصة في حين غفلة منهم، لما ذهبوا إلىٰ عيد من أعيادهم، فخرج معهم.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ في الحديث الصحيح: «لم يكذب إبراهيم ﷺ إلا ثلاث كذبات: قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣] وقوله عن زوجته: إنها أختي» والقصد أنه تخلف عنهم، ليتم له الكيد بآلهتهم.

﴿فَـ﴾ لهذا ﴿تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ فلما وجد الفرصة ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾؛ أي: أسرع إليها علىٰ وجه الخفية والمراوغة، ﴿فَقَالَ﴾ متهكما بها ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾؛ أي: فكيف يليق أن تعبد، وهي أنقص من الحيوانات، التي تأكل وتكلم؟ وهذه جماد لا تأكل ولا تكلم.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾؛ أي: جعل يضربها بقوته ونشاطه، حتىٰ جعلها جذاذا، إلا كبيرا لهم، لعلهم إليه يرجعون.

[٩٤-٩٦] ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾؛ أي: يسرعون ويهرعون، أي: يريدون أن يوقعوا به، بعدما بحثوا و﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩﴾ [الأنبياء]. وقيل لهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾ [الأنبياء] يقول: ﴿تَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾[الأنبياء] فوبخوه ولاموه، فقال: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦﴾ الآية [الأنبياء].

و﴿قَالَ﴾ هنا: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾؛ أي: تنحتونه بأيديكم وتصنعونه؟ فكيف تعبدونهم، وأنتم الذين صنعتموهم، وتتركون الإخلاص لله؟ الذي ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

[٩٧-٩٨] ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾؛ أي: عاليا مرتفعا، وأوقدوا فيها النار ﴿فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ جزاء علىٰ ما فعل، من تكسير آلهتهم. و﴿أَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ ليقتلوه أشنع قتلة ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، وجعل النار علىٰ إبراهيم بردا وسلاما.

[٩٩] ﴿وَ﴾ لما فعلوا فيه هذا الفعل، وأقام عليهم الحجة، وأعذر منهم، ﴿قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾؛

أي: مهاجر إليه، قاصد إلىٰ الأرض المباركة أرض الشام، ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ يدلني علىٰ ما فيه الخير لي، من أمر ديني ودنياي، وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ۝٤٨﴾ [مريم].

[١٠٠] ﴿رَبِّ هَبۡ لِي﴾ ولدًا يكون ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وذلك عند ما أيس من قومه، ولم ير فيهم خيرا، دعا الله أن يهب له غلامًا صالحا، ينفع الله به في حياته، وبعد مماته.

[١٠١] فاستجاب الله له وقال: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك، فإنه ذكر بعده البشارة بإسحاق، ولأن الله تعالىٰ قال في بشراه بإسحاق ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ۝٧١﴾ [هود] فدل علىٰ أن إسحاق غير الذبيح، ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم، وهو يتضمن الصبر، وحسن الخلق، وسعة الصدر والعفو عمن جنىٰ.

[١٠٢] ﴿فَلَمَّا بَلَغَ﴾ الغلام ﴿مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾؛ أي: أدرك أن يسعىٰ معه، وبلغ سنا يكون في الغالب، أحب ما يكون لوالديه، قد ذهبت مشقته، وأقبلت منفعته، فقال له إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾؛ أي: قد رأيت في النوم والرؤيا، أن الله يأمرني بذبحك، ورؤيا الأنبياء وحي ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ فإن أمر الله تعالىٰ لا بد من تنفيذه، ﴿قَالَ﴾ إسماعيل صابرا محتسبا، مُرْضِيا لربه، وبارا بوالده: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾؛ أي: امض لما أمرك الله ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أخبر أباه أنه موطِّن نفسه علىٰ الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالىٰ؛ لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله.

[١٠٣] ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾؛ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل: إبراهيم جازما بقتل ابنه وثمرة فؤاده، امتثالا لأمر ربه، وخوفا من عقابه، والابن قد وطَّن نفسه علىٰ الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه، ورضا والده، ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾؛ أي: تل إبراهيم إسماعيل علىٰ جبينه، ليضجعه فيذبحه، وقد انكبّ لوجهه، لئلا ينظر وقت الذبح إلىٰ وجهه.

[١٠٤-١٠٥] ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ في تلك الحال المُزعجة، والأمر المدهش: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾؛ أي: قد فعلت ما أمرت به، فإنك وطَّنت نفسك علىٰ ذلك، وفعلت كل سبب، ولم يبق إلا إمرار السكين علىٰ حلقه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في عبادتنا، المقدمين رضانا علىٰ شهوات أنفسهم.

[١٠٦] ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي امتحنا به إبراهيم عليه السلام ﴿لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ أي: الواضح، الذي تبين به صفاء إبراهيم، وكمال محبته لربه وخلته، فإن إسماعيل عليه الصلاة لما وهبه الله لإبراهيم، أحبه حبا

شديدا، وهو خليل الرحمن، والخلة أعلىٰ أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة ويقتضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبوب، فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه بابنه إسماعيل، أراد الله تعالىٰ أن يصفِّي وُدَّه ويختبر خلّته، فأمره أن يذبح من زاحم حبه حب ربه، فلما قدّم حب الله، وآثره علىٰ هواه، وعزم علىٰ ذبحه، وزال ما في القلب من المُزاحم، بقي الذَّبح لا فائدة فيه، فلهذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾.

[١٠٧] ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾؛ أي: صار بدله ذبح من الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم، فكان عظيما من جهة أنه كان فداءً لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قربانا وسنة إلىٰ يوم القيامة.

[١٠٨-١٠٩] ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ أي: وأبقينا عليه ثناء صادقا في الآخِرين، كما كان في الأولين، فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام، فإنه فيه محبوب معظم مثنىٰ عليه. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ أي: تحيته عليه كقوله: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾ [النمل:٥٩].

[١١٠] إِنَّا ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في عبادة الله، ومعاملة خلقه، أن نفرّج عنهم الشدائد، ونجعل لهم العاقبة، والثناء الحسن.

[١١١] ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بما أمر الله بالإيمان به، الذين بلغ بهم الإيمان إلىٰ درجة اليقين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [الأنعام].

[١١٢] ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هذه البشارة الثانية بإسحاق، الذي من ورائه يعقوب، فبُشر بوجوده وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبيًّا من الصالحين، فهي بشارات متعددة.

[١١٣] ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾؛ أي: أنزلنا عليهما البركة، التي هي النمو والزيادة في علمهما وعملهما وذريتهما، فنشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾؛ أي: منهم الصالح والطالح، والعادل والظالم الذي تبيَّن ظلمه، بكفره وشركه، ولعل هذا من باب دفع الإيهام، فإنه لما قال: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾ اقتضىٰ ذلك البركة في ذريتهما، وأن من تمام البركة، أن تكون الذرية كلهم محسنين، فأخبر الله تعالىٰ أن منهم محسنًا وظالمًا، والله أعلم.

﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١١٤ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ۝١١٥ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ

ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الصافات]

[١١٤-١٢٢] يذكر تعالىٰ مِنَّتهُ علىٰ عبديه ورسوليه؛ موسىٰ وهارون ابني عمران، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، ونجاتهما وقومهما من عدوهما فرعون، ونصرهما عليه، حتىٰ أغرقه الله وهم ينظرون، وإنزال الله عليهما الكتاب المستبين، وهو التوراة التي فيها الأحكام والمواعظ وتفصيل كلِّ شيء، وأنَّ الله هداهما الصراط المستقيم، بأن شرع لهما دينًا ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلىٰ الله، ومَنَّ عليهما بسُلوكه.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ أي: أبقىٰ عليهما ثناءً حسنًا، وتحية في الآخرين، ومن باب أولىٰ وأحرىٰ في الأوَّلين ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات]

[١٢٣-١٣٢] يمدح تعالىٰ عبده ورسوله إلياس عليه الصلاة والسلام، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلىٰ الله، وأنه أمر قومه بالتقوىٰ، وعبادة الله وحده، ونهاهم عن عبادتهم صنما لهم يقال له: «بعل» وتركهم عبادة الله، الذي خلق الخلق، وأحسن خلقهم، ورباهم فأحسن تربيتهم، وأدرَّ عليهم النعم الظاهرة والباطنة، وأنكم كيف تركتم عبادة من هذا شأنه، إلىٰ عبادة صنم، لا يضر، ولا ينفع، ولا يخلق، ولا يرزق؛ بل لا يأكل ولا يتكلم؟ وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسفه والغي؟ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما دعاهم إليه، فلم ينقادوا له، قال الله متوعدا لهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ أي: يوم القيامة في العذاب، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾؛ أي: الذين أخلصهم الله، ومنَّ عليهم باتباع نبيِّهم، فإنهم غير محضرين في العذاب، وإنَّما لهم من الله جزيل الثواب.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: على إلياس ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ ثناءً حسنا.

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾؛ أي: تحية من الله، ومن عباده عليه.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٣١ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأثنى الله عليه كما أثنى على إخوانه صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝١٣٣ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ۝١٣٥ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ۝١٣٦ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِاللَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾ [الصافات]

[١٣٣-١٣٨] وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله لوط بالنبوة والرسالة، ودعوته إلى الله قومه، ونهيهم عن الشرك، وفعل الفاحشة. فلما لم ينتهوا، نجاه الله وأهله أجمعين، فسروا ليلا فنجوا.

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾؛ أي: الباقين المعذبين، وهي زوجة لوط لم تكن على دينه.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ بأن قلبنا عليهم ديارهم فـ﴿**جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢**﴾ [هود] حتى همدوا وخمدوا.

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾؛ أي: على ديار قوم لوط ﴿مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِاللَّيْلِ﴾؛ أي: في هذه الأوقات، يكثر ترددكم إليها ومروركم بها، فلم تقبل الشك والمرية، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الآيات والعبر، وتنزجرون عما يوجب الهلاك؟

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٤٨﴾ [الصافات]

[١٣٩] وهذا ثناءٌ منه تعالى، على عبده ورسوله، يونس بن متّى، كما أثنى على إخوانه المرسلين، بالنبوة والرِّسالة، والدعوة إلى الله.

[١٤٠] وذكر تعالى عنه، أنّه عاقبه عقوبة دنيوية، أنجاه منها بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾؛ أي: من ربِّه مغاضبًا له، ظانا أنه لا يقدر عليه، ويحبسه في بطن الحوت، ولم يذكر اللهُ ما غاضب عليه، ولا ذنبه الذي ارتكبه، لعدم فائدتنا بذكره، وإنما فائدتنا بما ذُكِّرنا عنه أنه أذنب، وعاقبه الله مع كونه

من الرُّسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه الملام، وقيَّض له ما هو سبب صلاحه.

فلما أبق لجأ ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ بالرّكاب والأمتعة.

[١٤١] فلما ركب مع غيره، والفلك شاحن، ثقلت السفينة، فاحتاجوا إلىٰ إلقاء بعض الركبان، وكأنهم لم يجدوا لأحدٍ مزية في ذلك، فاقترعوا علىٰ أن من قُرع وغلب، ألقي في البحر عدلا من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه.

فلما اقترعوا أصابت القرعة يونس ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾؛ أي: المغلوبين، فألقي في البحر.

[١٤٢] ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ﴾ وقت التقامه ﴿مُلِيمٌ﴾؛ أي: فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه.

[١٤٣-١٤٤] ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾؛ أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه، وتسبيحه، وتحميده، وفي بطن الحوت حيث قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء].

﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: لكانت مقبرته؛ ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله، نجاه الله تعالىٰ، وكذلك ينجي الله المؤمنين، عند وقوعهم في الشدائد.

[١٤٥] ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ بأن قذفه الحوت من بطنه بالعراء، وهي الأرض الخالية العارية من كل أحد؛ بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾؛ أي: قد سقم ومرض، بسبب حبسه في بطن الحوت، حتىٰ صار مثل الفرخ الممعوط من البيضة.

[١٤٦] ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ تظله بظلها الظليل، لأنها باردة الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به، وبرّه.

[١٤٧-١٤٨] ثم لطف به لطفا آخر، وامْتَنَّ عليه مِنّة عظمىٰ، وهو أنه أرسله ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾ من الناس ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ عنها، والمعنىٰ أنهم إن لم يزيدوا عنها لم ينقصوا، فدعاهم إلىٰ الله تعالىٰ.

﴿فَـَٔامَنُواْ﴾ فصاروا في موازينه؛ لأنه الداعي لهم.

﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ بأن صرف الله عنهم العذاب بعدما انعقدت أسبابه، قال تعالىٰ: **﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨﴾** [يونس].

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝١٤٩ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ

تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴿١٥٦﴾ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ [الصافات]

[١٤٩] يقول تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾؛ أي: اسأل المشركين بالله غيره، الذين عبدوا الملائكة، وزعموا أنها بنات الله، فجمعوا بين الشرك بالله، ووصفه بما لا يليق بجلاله، ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾؛ أي: هذه قسمة ضيزىٰ، وقول جائر، من جهة جعلهم الولد لله تعالىٰ، ومن جهة جعلهم أردأ القسمين وأخسهما له وهو البنات التي لا يرضونهن لأنفسهم، كما قال في الآية الأخرىٰ ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾[النحل] ومن جهة جعلهم الملائكة بنات الله، وحكمهم بذلك.

[١٥٠] قال تعالىٰ في بيان كذبهم: ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾ خلقهم؟ أي: ليس الأمر كذلك، فإنهم ما شهدوا خلقهم، فدل علىٰ أنهم قالوا هذا القول، بلا علم؛ بل افتراء علىٰ الله.

[١٥١-١٥٧] ولهذا قال: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ﴾؛ أي: كذبهم الواضح ﴿لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿أَصۡطَفَى﴾؛ أي: اختار ﴿ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ هذا الحكم الجائر.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وتميِّزون هذا القول الباطل الجائر فإنكم لو تذكرتم لم تقولوا هذا القول.

﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ﴾؛ أي: حجة ظاهرة علىٰ قولكم من كتاب أو رسول، وكل هذا غير واقع؛ ولهذا قال: ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ فإن من يقول قولا لا يقيم عليه حجة شرعية فإنه كاذب متعمد أو قائل علىٰ الله بلا علم.

﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الصافات]

[١٥٨] أي: جعل هؤلاء المشركون بالله بين الله وبين الجنة نسبا، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهم سروات الجن، والحال أن الجنة قد علمت أنهم محضرون بين يدي الله، ليجازيهم عبادا أذلاء، فلو كان بينهم وبينه نسب، لم يكونوا كذلك.

[١٥٩-١٦٠] ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الملك العظيم، والكامل الحليم، عما يصفه به المشركون من كل وصف أوجبه كفرهم وشركهم.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإنه لم ينزه نفسه عما وصفوه به، لأنهم لم يصفوه إلا بما يليق بجلاله، وبذلك كانوا مخلصين.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦٣﴾ [الصافات]

[١٦١-١٦٣] أي: إنكم أيها المشركون ومن عبدتموه مع الله، لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحدا إلا من قضىٰ الله أنه من أهل الجحيم، فنفذ فيه القضاء الإلهي، والمقصود من هذا، بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد، وبيان كمال قدرة الله تعالىٰ، أي: فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين.

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦﴾ [الصافات]

[١٦٤-١٦٦] هذا فيه بيان براءة الملائكة عليهم السلام، عما قاله فيهم المشركون، وأنهم عباد الله، لا يعصونه طرفة عين، فما منهم من أحد إلا وله مقام وتدبير قد أمره الله به لا يتعدَّاه ولا يتجاوزه، وليس لهم من الأمر شيء.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ في طاعة الله وخدمته.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ لله عمَّا لا يليق به. فكيف - مع هذا - يصلحون أن يكونوا شركاء لله؟! تعالىٰ الله.

﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ۝١٦٧ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٩ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝١٧٠ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٤ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٧ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٨ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٩ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾ [الصافات]

[١٦٧-١٧٠] يخبر تعالىٰ أن هؤلاء المشركين، يظهرون التمنِّي، ويقولون: لو جاءنا من الذكر والكتب، ما جاء الأولين، لأخلصنا لله العبادة؛ بل لكنا المخلصين علىٰ الحقيقة.

وهم كَذَبَة في ذلك، فقد جاءهم أفضل الكتب فكفروا به، فعلم أنهم متمردون علىٰ الحق ﴿فَسَوْفَ

﴿يَعۡلَمُونَ﴾ العذاب حين يقع بهم.

[١٧١-١٧٩] ولا يحسبوا أيضا أنهم في الدنيا غالبون؛ بل قد سبقت كلمة الله التي لا مرد لها ولا مخالف لها لعباده المرسلين وجنده المفلحين، أنهم الغالبون لغيرهم، المنصورون من ربهم، نصرا عزيزا، يتمكَّنون فيه من إقامة دينهم، وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله، بأن كانت أحواله مستقيمة، وقاتل من أمر بقتالهم، أنه غالب منصور.

ثم أمر رسوله بالإعراض عمن عاندوا، ولم يقبلوا الحق، وأنه ما بقي إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، ولهذا قال: ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ من يحل به النكال، فإنه سيحلُّ بهم.

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ﴾؛ أي: نزل عليهم، وقريبا منهم ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ لأنه صباح الشر والعقوبة، والاستئصال. ثم كرر الأمر بالتَّولي عنهم، وتهديدهم بوقوع العذاب.

[١٨٠-١٨٢] ولما ذكر في هذه السورة كثيرا من أقوالهم الشنيعة، التي وصفوه بها، نزه نفسه عنها فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ﴾؛ أي: تنزه وتعالىٰ ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾؛ أي: الذي عز فقهر كل شيء، واعتز عن كل سوء يصفونه به.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ لسلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسَّمٰوات.

﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الألف واللام للاستغراق، فجميع أنواع الحمد، من الصفات الكاملة العظيمة، والأفعال التي ربَّىٰ بها العالمين، وأدرَّ عليهم فيها النعم، وصرف عنهم بها النقم، ودبرهم تعالىٰ في حركاتهم وسكونهم، وفي جميع أحوالهم، كلها لله تعالىٰ، فهو المقدس عن النقص، المحمود بكل كمال، المحبوب المعظم، ورسله سالمون مسلَّم عليهم، ومن اتبعهم في ذلك له السلامة في الدنيا والآخرة. وأعداؤه لهم الهلاك والعطب في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الصافات في ٦ شوال سنة ١٣٤٣هـ

علىٰ يد جامعه وكاتبه: عبد الرحمن بن ناصر السعدي

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وسلم تسليما والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

٣٨- تَفْسِيرُ سُورَةِ ص

وَهِي مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ
فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤
أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ
ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ
ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ٨ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ
ٱلۡوَهَّابِ ٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ١٠ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ
مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ١١﴾ [ص]

[١] هذا بيانٌ من الله تعالىٰ لحال القرآن، وحال المكذبين به معه ومع من جاء به، فقال: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾؛ أي: ذي القدر العظيم والشرف، المُذَكِّرِ للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم، بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشَّرعية، ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء، فهو مذكِّر لهم في أصول دينهم وفروعه.

وهنا لا يحتاج إلىٰ ذكر المقسم عليه، فإن حقيقة الأمر أن المقسم به وعليه شيء واحد، وهو هذا القرآن، الموصوف بهذا الوصف الجليل

[٢] فإذا كان القرآن بهذا الوصف، علم ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تَلَقِّيه بالإيمان والتصديق، والإقبال علىٰ استخراج ما يتذكر به منه، فهدىٰ الله من هدىٰ لهذا، وأبىٰ الكافرون به وبمن أنزله، وصار معهم ﴿عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ عزة وامتناع عن الإيمان به، واستكبار وشقاق له، أي: مشاقة ومخاصمة في رده وإبطاله، وفي القدح بمن جاء به.

[٣] فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسل، وأنهم حين جاءهم الهلاك، نادوا واستغاثوا

في صرف العذاب عنهم؛ ولكن ﴿لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾؛ أي: وليس الوقت، وقت خلاص مما وقعوا فيه، ولا فرج لما أصابهم، فَلْيَحْذَرْ هؤلاء أن يدوموا علىٰ عزتهم وشقاقهم، فيصيبهم ما أصابهم.

[٤] ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ﴾؛ أي: عجب هؤلاء المكذبون في أمر ليس محل عجب، أن جاءهم منذر منهم، ليتمكنوا من التلقي عنه، وليعرفوه حق المعرفة، ولأنه من قومهم، فلا تأخذهم النخوة القومية عن اتباعه، فهذا مما يوجب الشُّكر عليهم، وتمام الانقياد له.

ولكنهم عكسوا القضية، فتعجبوا تعجب إنكار وَقَالُوا من كفرهم وظلمهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

[٥] وذنبه عندهم أنه جعل ﴿ٱلْأَٰلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ﴾؛ أي: كيف ينهىٰ عن اتخاذ الشركاء والأنداد، ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي جاء به ﴿لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾؛ أي: يقضي منه العجب لبطلانه وفساده عندهم.

[٦] ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ المقبول قولهم، محرِّضين قومهم علىٰ التمسك بما هم عليه من الشرك. ﴿أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ﴾؛ أي: استمروا عليها، وجاهدوا نفوسكم في الصبر عليها وعلىٰ عبادتها، ولا يردُّكم عنها راد، ولا يصدنكم عن عبادتها، صاد. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي جاء به محمد، من النهي عن عبادتها ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾؛ أي: يقصد، أي: له قصد ونية غير صالحة في ذلك، وهذه شبهة لا تروج إلا علىٰ السُّفهاء، فإن من دعا إلىٰ قول حق أو غير حق، لا يرد قوله بالقدح في نيته، فنيته وعمله له، وإنما يرد بمقابلته بما يبطله ويفسده، من الحجج والبراهين، وهم قصدُهم، أن محمدا، ما دعاكم إلىٰ ما دعاكم، إلا ليرأس فيكم، ويكون معظما عندكم، متبوعا.

[٧] ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ القول الذي قاله، والدين الذي دعا إليه ﴿فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْأٓخِرَةِ﴾؛ أي: في الوقت الأخير، فلا أدركنا عليه آباءنا، ولا آباؤنا أدركوا آباءهم عليه، فامضوا علىٰ الذي مضىٰ عليه آباؤكم، فإنه الحق، وما هذا الذي دعا إليه محمد إلا اختلاق اختلقه، وكذب افتراه، وهذه أيضا شبهة من جنس شبهتهم الأولىٰ، حيث ردوا الحق بما ليس بحجة لرد أدنىٰ قول، وهو أنه قول مخالف لما عليه آباؤهم الضالون، فأين في هذا ما يدل علىٰ بطلانه؟

[٨] ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ﴾؛ أي: ما الذي فضله علينا، حتىٰ ينزل الذكر عليه من دوننا، ويخصه الله به؟ وهذه أيضا شبهة، أين البرهان فيها علىٰ رد ما قاله؟ وهل جميع الرسل إلا بهذا الوصف، يَمُنُّ الله عليهم برسالته، ويأمرهم بدعوة الخلق إلىٰ الله، ولهذا، لما كانت هذه الأقوال الصادرة منهم لا

يصلح شيء منها لرد ما جاء به الرسول، أخبر تعالىٰ من أين صدرت، وأنهم ﴿فِي شَكٍّ مِّن ذِكۡرِيۚ﴾ ليس عندهم علم ولا بيِّنة.

فلما وقعوا في الشَّكّ وارتضوا به، وجاءهم الحق الواضح، وكانوا جازمين بإقامتهم علىٰ شكِّهم، قالوا ما قالوا من تلك الأقوال لدفع الحق، لا عن بيِّنة من أمرهم، وإنما ذلك من باب الائتفاك منهم.

ومن المعلوم، أنَّ من هو بهذه الصفة يتكلَّم عن شك وعناد، فإن قوله غير مقبول، ولا قادح أدنىٰ قدح في الحق، وأنه يتوجه عليه الذم واللوم بمجرد كلامه، ولهذا توعدهم بالعذاب فقال: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾؛ أي: قالوا هذه الأقوال، وتجرأوا عليها، حيث كانوا ممتَّعين في الدنيا، لم يصبهم من عذاب الله شيء، فلو ذاقوا عذابه، لم يتجرأوا.

[٩] ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾ فيُعطُون منها من شاءوا، ويمنعون منها من شاءوا، حيث قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾؛ أي: هذا فضله تعالىٰ ورحمته، وليس ذلك بأيديهم حتىٰ يتجرّأوا علىٰ الله.

[١٠] ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ﴾ بحيث يكونون قادرين علىٰ ما يريدون. ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ الموصلة لهم إلىٰ السماء، فيقطعوا الرحمة عن رسول الله، فكيف يتكلمون، وهم أعجز خلق الله وأضعفهم بما تكلموا به؟!

[١١] أم قصدهم التحزب والتجند، والتعاون علىٰ نصر الباطل وخذلان الحق؟ وهو الواقع فإن هذا المقصود لا يتمُّ لهم؛ بل سعيهم خائب، وجندهم مهزوم، ولهذا قال: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾.

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ١٢ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ١٥﴾ [ص]

[١٢-١٥] يحذِّرهم تعالىٰ أن يفعل بهم ما فعل بالأمم من قبلهم، الذين كانوا أعظم قوة منهم وتحزبا علىٰ الباطل، ﴿قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ﴾ قوم هود ﴿وَفِرۡعَوۡنُ [ذُو] ٱلۡأَوۡتَادِ﴾؛ أي: الجنود العظيمة، والقوة الهائلة.

﴿وَثَمُودُ﴾ قوم صالح، ﴿وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ﴾؛ أي: الأشجار والبساتين الملتفة، وهم قوم

شعيب، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ الذين اجتمعوا بقوتهم وعَدَدِهِمْ وعُدَدِهِمْ علىٰ رد الحق، فلم تغن عنهم شيئا.

﴿إِن كُلٌّ﴾ من هؤلاء ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ﴾ عليهم ﴿عِقَابِ﴾ الله، وهؤلاء، ما الذي يطهرهم ويزكيهم، ألا يصيبهم ما أصاب أولئك.

فلينتظروا ﴿صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾؛ أي: من رجوع ورد، تهلكهم وتستأصلهم إن أقاموا علىٰ ما هم عليه.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝١٦ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص]

[١٦] أي: قال هؤلاء المكذبون، من جهلهم ومعاندتهم الحق، مستعجلين للعذاب: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾؛ أي: قسطنا وما قسم لنا من العذاب عاجلا ﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ ولَجُّوا في هذا القول، وزعموا أنك يا محمد، إن كنت صادقا، فعلامة صدقك أن تأتينا بالعذاب.

[١٧] فقال لرسوله: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ كما صبر مَنْ قبلك من الرسل، فإن قولهم لا يضر الحق شيئا، ولا يضرونك في شيء، وإنما يضرون أنفسهم

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝١٩ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ۝٢٠﴾ [ص]

[١٧] لما أمر الله رسوله بالصبر علىٰ قومه، أمره أن يستعين علىٰ الصبر بالعبادة لله وحده، ويتذكر حال العابدين، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ [طه:١٣٠]

ومن أعظم العابدين، نبي الله داود عليه الصلاة والسلام [ذو] ﴿ٱلۡأَيۡدِۖ﴾؛ أي: القوة العظيمة علىٰ عبادة الله تعالىٰ، في بدنه وقلبه. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ أي: رجّاع إلىٰ الله في جميع الأمور بالإنابة إليه، بالحب والتأله، والخوف والرجا، وكثرة التضرّع والدعاء، رجاع إليه عندما يقع منه بعض الخلل، بالإقلاع والتوبة النصوح.

[١٨-١٩] ومن شدة إنابته لربه وعبادته، أن سخر الله الجبال معه، تسبح معه بحمد ربها ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ أول النهار وآخره، ﴿وَ﴾ سخر ﴿ٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾ معه مجموعة ﴿كُلّٞ﴾ من الجبال والطير، ﴿لَّهُۥٓ﴾ تعالىٰ ﴿أَوَّابٞ﴾ امتثالا لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ﴾[سبأ:١٠] فهذه مِنَّةٌ الله عليه

بالعبادة

[٢٠] ثم ذكر منته عليه بالملك العظيم فقال: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾؛ أي: قويناه بما أعطيناه من الأسباب وكثرة الْعَدَد والْعُدَدِ التي بها قوّىٰ الله ملكه، ثم ذكر منته عليه بالعلم فقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: النبوة والعلم العظيم، ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾؛ أي: الخصومات بين الناس.

﴿۞وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص]

[٢١] لما ذكر تعالىٰ أنه آتىٰ نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس، وكان معروفا بذلك مقصودا، ذكر تعالىٰ نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلهما الله فتنة لداود، وموعظة لخلل ارتكبه، فتاب الله عليه، وغفر له، وقيض له هذه القضية، فقال لنبيه محمَّد ﷺ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ فإنه نبأ عجيب ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟﴾ علىٰ داود ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾؛ أي: محل عبادته من غير إذن ولا استئذان، ولم يدخلوا عليه [مع] باب.

[٢٢] فلذلك لما دخلوا عليه بهذه الصورة، فزع منهم وخاف، فقالوا له: نحن ﴿خَصْمَانِ﴾ فلا تخف ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالظلم ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل، ولا تمل مع أحدنا ﴿وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾.

[٢٣] والمقصود من هذا: أن الخصمين قد عرف أن قصدهما الحق الواضح الصرف، وإذا كان ذلك، فسيقصُّون عليه نبأهما بالحق، فلم يشمئز نبي الله داود من وعظهما له، ولم يؤنِّبهما.

فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ نص علىٰ الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة، لاقتضائها عدم البغي، وأن بغيه الصَّادر منه أعظم من غيره. ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾؛ أي: زوجة، وذلك خير كثير،

يوجب عليه القناعة بما آتاه الله.

﴿وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ فطمع فيها ﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾؛ أي: دعها لي، وخلها في كفالتي. ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾؛ أي: غلبني في القول، فلم يزل بي حتىٰ أدركها أو كاد.

[٢٤] فقال داود – لما سمع كلامه – ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما، أن هذا هو الواقع، فلهذا لم يحتج أن يتكلم الآخر، فلا وجه للاعتراض بقول القائل: " لم حكم داود، قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر"؟ ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾ وهذه عادة الخلطاء والقرناء الكثير منهم، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ لأن الظلم من صفة النفوس، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح، يمنعهم من الظلم. ﴿وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ كما قال تعالىٰ ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ] ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ حين حكم بينهما ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾؛ أي: اختبرناه ودبرنا عليه هذه القضية ليتنبه ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لما صدر منه، ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا﴾؛ أي: ساجدا ﴿وَأَنَابَ﴾ لله تعالىٰ بالتوبة النصوح والعبادة

[٢٥] ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾ الذي صدر منه، وأكرمه الله بأنواع الكرامات، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾؛ أي: منزلة عالية، وقربة منا، ﴿وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾؛ أي: مرجع.

وهذا الذنب الذي صدر من داود ﷺ، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلىٰ ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصّه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها.

[٢٦] ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية، ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: العدل، وهذا لا يتمكن منه، إلا بعلم بالواجب، وعلم بالواقع، وقدرة علىٰ تنفيذ الحق، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ فتميل مع أحد، لقرابة أو صداقة أو محبة، أو بغض للآخر ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الهوىٰ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ ويخرجك عن الصراط المستقيم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ خصوصا المتعمدين منهم، ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ فلو ذكروه ووقع خوفه في قلوبهم، لم يميلوا مع الهوىٰ الفاتن.

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ

كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]

[٢٧] يخبر تعالىٰ عن تمام حكمته في خلقه السَّمٰوات والأرض، وأنه لم يخلقهما باطلا أي: عبثا ولعبا من غير فائدة ولا مصلحة.

﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بربهم، حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فإنها التي تأخذ الحق منهم، وتبلغ منهم كل مبلغ.

وإنما خلق الله السَّمٰوات والأرض بالحق وللحق، فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه تعالىٰ وحده المعبود، دون من لم يخلق مثقال ذرة من السَّمٰوات والأرض، وأن البعث حق، وسيفصل الله بين أهل الخير والشر. ولا يظن الجاهل بحكمة الله أن يسوِّي الله بينهما في حكمه.

[٢٨] ولهذا قال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا.

[٢٩] ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدىٰ من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكمٍ يحتاج إليه المكلَّفون، وفيه من الأدلة القطعية علىٰ كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله.

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدل علىٰ الحث علىٰ تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة علىٰ التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب، فدلَّ هذا علىٰ أنه بحسب لبِّ الإنسان وعقله يحصل له التذكُّر والانتفاع بهذا الكتاب.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا

﴿عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٤٠﴾ [ص]

[٣٠] لما أثنىٰ تعالىٰ علىٰ داود، وذكر ما جرىٰ له ومنه، أثنىٰ علىٰ ابنه سليمان عليهما السلام فقال: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ﴾؛ أي: أنعمنا به عليه، وأقررنا به عينه، ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ سليمان عليه السلام، فإنه اتصف بما يوجب المدح، وهو ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ أي: رجّاع إلىٰ الله في جميع أحواله، بالتأله والإنابة، والمحبة والذكر والدعاء والتضرع، والاجتهاد في مرضاة الله، وتقديمها علىٰ كل شيء.

[٣١-٣٣] ولهذا، لما عرضت عليه الخيل الجياد السبق ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾؛ أي: التي من وصفها الصُّفون؛ وهو: رفع إحدىٰ قوائمها عند الوقوف، وكان لها منظر رائق، وجمال معجب، خصوصا للمحتاج إليها كالملوك، فما زالت تعرض عليه حتىٰ غابت الشمس في الحجاب، فألهته عن صلاة المساء وذكره.

فقال ندما علىٰ ما مضىٰ منه، وتقربا إلىٰ الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديما لحب الله علىٰ حب غيره: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ وضمن ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ معنىٰ (آثرت) أي: آثرت حب الخير، الذي هو المال عموما، وفي [هذا] (١) الموضع المراد الخيل ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ﴾ فردوها ﴿فَطَفِقَ﴾ فيها ﴿مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾؛ أي: جعل يعقرها بسيفه، في سوقها وأعناقها.

[٣٤] ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾؛ أي: ابتليناه واختبرناه بذهاب مُلكه وانفصاله عنه بسبب خللٍ اقتضته الطبيعة البشرية، ﴿وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا﴾؛ أي: شيطانًا قضىٰ الله وقدر أن يجلس علىٰ كرسي ملكه، ويتصرف في الملك في مدة فتنة سليمان، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ سليمان إلىٰ الله تعالىٰ وتاب.

[٣٥-٣٩] فـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ فاستجاب الله له وغفر له، ورد عليه ملكه، وزاده ملكا لم يحصل لأحد من بعده، وهو تسخير الشياطين له، يبنون ما يريد، ويغوصون له في البحر، يستخرجون الدر والحلي، ومن عصاه منهم قرَّنه في الأصفاد وأوثقه.

وقلنا له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ فَقَرَّ به عينا ﴿فَٱمۡنُنۡ﴾ علىٰ من شئت، ﴿أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ من شئت ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾؛ أي: لا حرج عليك في ذلك ولا حساب، لعلمه تعالىٰ بكمال عدله، وحسن أحكامه.

[٤٠] ولا تحسبن هذا لسليمان في الدنيا دون الآخرة؛ بل له في الآخرة خير عظيم.

(١) ساقطة من نسخة ابن الجوزي والمجموع.

ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾؛ أي: هو من المقربين عند الله المكرمين بأنواع الكرامات لله.

فصل فيما تبين لنا من الفوائد والحكم في قصة داود وسليمان عليهما السلام

فمنها: أن الله تعالىٰ يقص علىٰ نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله، ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم، ما يشوِّقه إلىٰ منافستهم، والتقرب إلىٰ الله الذي تقربوا له، والصبر علىٰ أذىٰ قومه، ولهذا - في هذا الموضع - لما ذكر الله ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به، أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود فيتسلّىٰ به.

ومنها: أن الله تعالىٰ يمدح ويحب القوة في طاعته، قوة القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها، ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها، وعدم الركون إلىٰ الكسل والبطالة المخلة بالقوىٰ المضعفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلىٰ الله في جميع الأمور، من أوصاف أنبياء الله وخواص خلقه، كما أثنىٰ الله علىٰ داود وسليمان بذلك، فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهداهم السالكون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٩٠].

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود عليه السلام، من حسن الصوت العظيم، الذي جعل الله بسببه الجبال الصم، والطيور البهم، يجاوبنه إذا رجَّع صوته بالتسبيح، ويسبحن معه بالعشي والإشراق.

ومنها: أن من أكبر نعم الله علىٰ عبده، أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتن الله به علىٰ عبده داود عليه السلام.

ومنها: اعتناء الله تعالىٰ بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور، ويعودون إلىٰ أكمل من حالتهم الأولىٰ، كما جرىٰ لداود وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالىٰ؛ لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن الله يتداركهم ويبادرهم بلطفه.

ومنها: أن داود عليه السلام، [كان] (١) في أغلب أحواله لازما مِحْرابه لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان

(١) ساقطة من نسخة ابن الجوزي والمجموع.

عليه المحراب، لأنه كان إذا خلا في محرابه لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام؛ بل جعل له وقتا يخلو فيه بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه علىٰ الإخلاص في جميع أموره.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول علىٰ الحكّام وغيرهم، فإن الخصمين لما دخلا علىٰ داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود، فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حِلم داود ﷺ، فإنه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما، ولا وبخهما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه "أنت ظلمتني" أو "يا ظالم" ونحو ذلك أو باغ عليّ لقولهما: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد، أو وعظه، لا يغضب، ولا يشمئز؛ بل يبادره بالقبول والشكر، فإن الخصمين نصحا داود فلم يشمئز ولم يغضب ولم يثنه ذلك عن الحق؛ بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلّقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادي بينهم، وبغي بعضهم علىٰ بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوىٰ الله، والصبر علىٰ الأمور، بالإيمان والعمل الصّالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: أنّ الاستغفار والعبادة، خصوصا الصلاة، من مكفّرات الذنوب، فإن الله، رتب مغفرة ذنب داود علىٰ استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان، بالقرب منه، وحسن الثواب، وألا يظن أن ما جرىٰ لهما منقص لدرجتهما عند الله تعالىٰ، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتىٰ ما يقع في قلوب الخلق، فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولىٰ، فأزال الله تعالىٰ هذه الآثار، وما ذاك بعزيز علىٰ الكريم الغفار.

ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية، تولّاها رسل الله وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوىٰ، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

ومنها: أنه ينبغي للحاكم أن يحذر الهوىٰ، ويجعله منه علىٰ بالٍ، فإن النفوس لا تخلو منه؛ بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كل محبة أو بغض لأحد الخصمين.

ومنها: أن سليمان عليه السلام من فضائل داود، ومن منن الله عليه حيث وهبه له، وأن من أكبر نعم الله علىٰ عبده، أن يهب له ولدا صالحا، فإن كان عالما، كان نورا علىٰ نور.

ومنها: ثناء الله تعالىٰ علىٰ سليمان ومدحه في قوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

ومنها: كثرة خير الله وبره بعبيده، أن يمن عليهم بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق، ثم يثني عليهم بها، وهو المتفضّل الوهاب.

ومنها: تقديم سليمان محبة الله تعالىٰ علىٰ محبّة كل شيء.

ومنها: أن كل ما شغل العبد عن الله، فإنه مشئوم مذموم، فَلْيُفَارِقْه ولْيُقْبِلْ علىٰ ما هو أنفع له.

ومنها: القاعدة المشهورة «من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه» فسليمان عليه السلام عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس، تقديما لمحبة الله، فعوضه الله خيرا من ذلك، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة، التي تجري بأمره إلىٰ حيث أراد وقصد، غدوها شهر، ورواحها شهر، وسخر له الشياطين، أهل الاقتدار علىٰ الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميون.

ومنها: أن تسخير الشياطين لا [يكون] لأحد بعد سليمان عليه السلام.

ومنها: أن سليمان عليه السلام، كان مَلِكا نبيا، يفعل ما أراد، ولكنه لا يريد إلا العدل، بخلاف النبي العبد، فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله، فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر، كحال نبينا محمد ﷺ، وهذه الحال أكمل

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص]

[٤١] أي: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ في هذا الكتاب ذي الذِّكر ﴿عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ بأحسن الذكر، وأثن عليه بأحسن الثناء، حين أصابه الضر، فصبر علىٰ ضره، فلم يشتك لغير ربه، ولا لجأ إلا إليه.

فـ ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ داعيا، وإليه لا إلىٰ غيره شاكيا، فقال: رب ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾؛ أي: بأمر مشق متعب معذب، وكان سُلِّط علىٰ جسده فنفخ فيه حتىٰ تقرح، ثم تقيح بعد ذلك واشتد به الأمر، وكذلك هلك أهله وماله.

[٤٢] فقيل له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾؛ أي: اضرب الأرض بها، لينبع لك منها عين تغتسل منها وتشرب، فيذهب عنك الضُّر والأذىٰ، ففعل ذلك، فذهب عنه الضر، وشفاه الله تعالىٰ.

[٤٣] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ قيل: إن الله تعالىٰ أحياهم له ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ في الدنيا، وأغناه الله، وأعطاه مالًا عظيما ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ بعبدنا أيوب، حيث صبر فأثبناه من رحمتنا ثوابًا عاجلا وآجلا. ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: وليتذكر أولو العقول بحالة أيوب ويعتبروا، فيعلموا أن من صبر علىٰ الضر، فإن الله تعالىٰ يثيبه ثوابا عاجلا وآجلا ويستجيب دعاءه إذا دعاه.

[٤٤] ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾؛ أي: حزمة شماريخ ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾.

قال المفسرون: وكان في مرضه وضره، قد غضب علىٰ زوجته في بعض الأمور، فحلف: لئن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة، فلما شفاه الله، وكانت امرأته صالحة محسنة إليه، رحمها الله ورحمه، فأفتاه أن يضربها بِضِغْث فيه مائة شمراخ ضربة واحدة، فيبر في يمينه.

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ﴾؛ أي: أيوب ﴿صَابِرًا﴾؛ أي: ابتليناه بالضر العظيم، فصبر لوجه الله تعالىٰ. ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ الذي كمل مراتب العبودية، في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ أي: كثير الرجوع إلىٰ الله، في مطالبه الدينية والدنيوية، كثير الذِّكر لربه والدعاء، والمحبة والتأله.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص]

[٤٥] يقول تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾ الذين أخلصوا لنا العبادة ذكرا حسنا، ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل ﴿وَ﴾ ابنه ﴿إِسْحَٰقَ وَ﴾ ابن ابنه ﴿يَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾؛ أي: القوة علىٰ عبادة الله تعالىٰ ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ أي: البصيرة في دين الله. فوصفهم بالعلم النافع، والعمل الصالح الكثير.

[٤٦] ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ عظيمة، وخصيصة جسيمة؛ وهي: ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ جعلنا ذكرىٰ الدار الآخرة في قلوبهم، والعمل لها صفوة وقتهم، والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرىٰ الدّار يتذكر بأحوالهم المتذكر، ويعتبر بهم المعتبر، ويذكرون بأحسن الذكر.

[٤٧] ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ الذين اصطفاهم الله من صفوة خلقه، ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ الذين لهم كل خُلق كريم، وعمل مستقيم.

﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٨ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾ [ص]

[٤٨] أي: واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء، فإن كلا منهم من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال، من الأعمال، والأخلاق، والصفات الحميدة، والخصال السديدة.

[٤٩] ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: ذكر هؤلاء الأنبياء الصفوة وذكر أوصافهم، ﴿ذِكۡرٞۚ﴾ في هذا القرآن ذي الذكر، يتذكر بأحوالهم المتذكِّرون، ويشتاق إلىٰ الاقتداء بأوصافهم الحميدة المقتدون، ويُعرف ما منَّ الله عليهم به من الأوصاف الزّكية، وما نشر لهم من الثناء بين البرية.

فهذا نوع من أنواع الذِّكر، وهو ذكر أهل الخير، ومن أنواع الذكر، ذكر جزاء أهل الخير وأهل الشر، ولهذا قال:

﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٤٩ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ۝٥١ ۞وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ۝٥٢ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝٥٣ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾ [ص]

[٤٩] أي: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ ربّهم، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، من كل مؤمن ومؤمنة، ﴿لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾؛ أي: لمآبا حسنا، ومرجعا مستحسنا.

[٥٠] ثم فسّره وفصله فقال: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾؛ أي: جنات إقامة، لا يبغي صاحبها بدلا منها، من كمالها وتمام نعيمها، وليسوا بخارجين منها ولا بمخرجين.

﴿مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾؛ أي: مفتحة لأجلهم أبواب منازلها ومساكنها، لا يحتاجون أن يفتحوها هم؛ بل هم مخدومون، وهذا دليل أيضا علىٰ الأمان التام، وأنه ليس في جنات عدن ما يوجب أن تغلق لأجله أبوابها.

[٥١] ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ علىٰ الأرائك المزيّنات، والمجالس المزخرفات. ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا﴾؛ أي: يأمرون خدامهم، أن يأتوا ﴿بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ من كلّ ما تشتهيه نفوسهم، وتلذه أعينهم، وهذا يدلّ علىٰ كمال النعيم، وكمال الراحة والطمأنينة، وتمام اللّذة.

[٥٢] ﴿وَعِندَهُمۡ﴾ من أزواجهم، الحور العين ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ طرفهن علىٰ أزواجهن، وطرف أزواجهن عليهن، لجمالهم كلهم، ومحبة كل منهما للآخر، وعدم طموحه لغيره، وأنه لا يبغي بصاحبه بدلا ولا

عنه عوضا. ﴿أَتْرَابٌ﴾؛ أي: علىٰ سنّ واحد، أعدل سن الشباب وأحسنه وألذّه.

[٥٣] ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾؛ أيها المتقون ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ جزاءً علىٰ أعمالكم الصالحة.

[٥٤] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا﴾ [الذي] أوردناه علىٰ أهل دار النعيم ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾؛ أي: انقطاع، بل هو دائم مستقر في جميع الأوقات، متزايد في جميع الآنات.

وليس هذا بعظيم علىٰ الرب الكريم، الرءوف الرحيم، البر الجواد، الواسع الغني، الحميد اللطيف الرحمن، الملك الديان، الجليل الجميل المنان، ذي الفضل الباهر، والكرم المتواتر، الذي لا تحصىٰ نعمه، ولا يحاط ببعض بره.

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص]

[٥٥] ﴿هَٰذَا ۚ﴾ الجزاء للمتقين ما وصفناه ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾؛ أي: المتجاوزين للحد في الكفر والمعاصي ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾؛ أي: لشر مرجع ومنقلب.

[٥٦] ثم فصله فقال: ﴿جَهَنَّمَ﴾ التي جمع فيها كل عذاب، واشتد حرها، وانتهىٰ قرها ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾؛ أي: يعذبون فيها عذابا يحيط بهم من كل وجه، لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل.

﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ المعد لهم مسكنا ومستقرا.

[٥٧] ﴿هَٰذَا﴾ المهاد، هذا العذاب الشديد، والخزي والفضيحة والنكال ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ﴾ ماء حار، قد اشتد حره، يشربونه فَيقطعُ أمعاءهم. ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ وهو أكره ما يكون من الشراب، من قيح وصديد، مر المذاق، كريه الرائحة.

[٥٨] ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾؛ أي: من نوعه ﴿أَزْوَٰجٌ﴾؛ أي: عدة أصناف من أصناف العذاب، يعذبون بها ويخزون بها.

[٥٩-٦٠] وعند تواردهم علىٰ النار يشتم بعضهم بعضًا، ويقول بعضهم لبعض: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ النار ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾.

﴿قَالُواْ﴾؛ أي: الفوج المقبل المقتحم: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ﴾؛ أي: العذاب ﴿لَنَاۖ﴾ بدعوتكم لنا، وفتنتكم وإضلالكم وتسببكم. ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ قرار الجميع، قرار السوء والشر.

[٦١] ثم دعوا علىٰ المغوين لهم، فـ ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ﴾، وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ [الأعراف].

[٦٢] ﴿وَقَالُواْ﴾ وهم في النار ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾؛ أي: كنا نزعم أنهم من الأشرار، المستحقين لعذاب النار، وهم المؤمنون، تفقّدهم أهل النار - قبحهم الله - هل يرونهم في النار؟

[٦٣] ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾؛ أي: عدم رؤيتنا لهم دائر بين أمرين:

إما أننا غالطون في عدنا إياهم من الأشرار؛ بل هم من الأخيار، وإنما كلامنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم، وهذا هو الواقع، كما قال تعالىٰ لأهل النار: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠﴾ [المؤمنون].

والأمر الثاني أنهم لعلهم زاغت أبصارنا عن رؤيتهم معنا في العذاب، وإلا فهم معنا معذبون؛ ولكن تجاوزتهم أبصارنا فيحتمل أن هذا الذي في قلوبهم، فتكون العقائد التي اعتقدوها في الدنيا وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان بالنار تمكنت من قلوبهم وصارت صبغة لها؛ فدخلوا النار وهم بهذه الحالة، فقالوا ما قالوا.

ويحتمل أن كلامهم هذا كلام تمويه، كما موهوا في الدنيا موهوا حتىٰ في النار، ولهذا يقول أهل الأعراف لأهل النار: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩﴾ [الأعراف].

[٦٤] قال تعالىٰ مؤكدا ما أخبر به وهو أصدق القائلين ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرتُ لكم ﴿لَحَقّٞ﴾ ما فيه شك ولا مرية ﴿تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٦٦ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ٦٨ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٦٩ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٧٠ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن

طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ
﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ
أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ
فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾
وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾[ص]

[٦٥] ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين، إن طلبوا منك ما ليس لك ولا بيدك: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ هذا نهاية ما عندي، وأما الأمر فلله تعالىٰ، ولكني آمركم، وأنهاكم، وأحثكم علىٰ الخير وأزجركم عن الشر فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَعَلَيْهَا ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ أي: ما أحد يؤله ويعبد بحق إلا الله ﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ هذا تقرير لألوهيته، بهذا البرهان القاطع، وهو وحدته تعالىٰ، وقهره لكل شيء، فإنّ القهر ملازم للوحدة، فلا يكون قهّارين متساويين في قهرهما أبدا.

فالذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يعبد وحده، كما كان قاهرا وحده.

[٦٦] وقرر ذلك أيضا بتوحيد الربوبية فقال: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: خالقهما، ومربيهما، ومدبرها (١) بجميع أنواع التدابير. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي له القوة، التي بها خلق المخلوقات العظيمة. ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لجميع الذنوب، صغيرها، وكبيرها، لمن تاب إليه وأقلع منها.

فهذا الذي يحب ويستحق أن يعبد، دون من لا يخلق ولا يرزق، ولا يضر ولا ينفع، ولا يملك من الأمر شيئا، وليس له قوة الاقتدار، ولا بيده مغفرة الذنوب والأوزار.

[٦٧-٦٨] ﴿قُلْ﴾ لهم، مخوّفا ومحذرا، ومنهضا لهم ومنذرا: ﴿هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾؛ أي: ما أنبأتكم به من البعث والنشور والجزاء علىٰ الأعمال، خبر عظيم ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه، ولا ينبغي إغفاله؛ ولكن ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب.

[٦٩-٧٠] فإن شككتم في قولي، وامتريتم في خبري، فإني أخبركم بأخبارٍ لا علم لي بها ولا درستها في

كتاب، فإخباري بها علىٰ وجهها، من غير زيادة ولا نقص، أكبر شاهدٍ لصدقي، وأدل دليل علىٰ حق ما جئتكم به، ولهذا قال: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾؛ أي: الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ لولا تعليم الله إياي، وإيحاؤه إلي، ولهذا قال: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر النذارة، جليها، فلا نذير أبلغ من نذارته ﷺ.

[٧١-٧٢] ثم ذكر اختصام الملأ الأعلىٰ فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ علىٰ وجه الإخبار ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾؛ أي: مادته من طين.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾؛ أي: سويت جسمه وتم، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

[٧٣-٧٤] فوطَّن الملائكة الكرام أنفسهم علىٰ ذلك، حين يتم خلقه ونفخ الروح فيه، امتثالا لربهم، وإكراما لآدم عليه السلام، فلما تمَّ خلقه في بدنه وروحه، وامتحن الله آدم والملائكة في العلم، وظهر فضله عليهم، أمرهم الله بالسجود؛ فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس لم يسجد ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ عن أمر ربه، واستكبر علىٰ آدم ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في علم الله تعالىٰ.

[٧٥] فـ ﴿قَالَ﴾ الله موبِّخا ومعاتبا: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾؛ أي: شرّفته وكرمته واختصصته بهذه الخصيصة، التي اختصّ بها عن سائر الخلق، وذلك يقتضي عدم التكبُّر عليه.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ في امتناعك ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾.

[٧٦] ﴿قَالَ﴾ إبليس معارضا لربه مناقضا: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطِّين، وهذا من القياس الفاسد، فإن عنصر النار مادة الشر والفساد، والعلو والطَّيش والخفة وعنصر الطين مادة الرَّزانة والتواضع وإخراج أنواع الأشجار والنباتات وهو يغلب النار ويطفئها، والنار تحتاج إلىٰ مادةٍ تقوم بها، والطين قائم بنفسه، فهذا قياس شيخ القوم، الذي عارض به الأمر الشفاهي من الله، قد تبيَّن غاية بطلانه وفساده، فما بالك بأقيسة التلاميذ الذين عارضوا الحق بأقيستهم؟ فإنها كلّها أعظم بطلانا وفسادا من هذا القياس.

[٧٧-٧٨] فـ ﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾؛ أي: من السماء والمحل الكريم. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾؛ أي: مبعد مدحور.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾؛ أي: طردي وإبعادي ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: دائما أبدا.

[٧٩] ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لشدة عداوته لآدم وذريته، ليتمكن من إغواء من قدر الله

أن يغويه.

[٨٠-٨١] فـ ﴿قَالَ﴾ الله مجيبا لدعوته، حيث اقتضت حكمته ذلك: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ حين تستكمل الذرية، يتم الامتحان.

[٨٢-٨٣] فلما علم أنه منظر، بادئ ربه، من خبثه، بشدة العداوة لربه ولآدم وذريته، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يحتمل أن الباء للقسم، وأنه أقسم بعزة الله ليُغوينهم كلهم أجمعين.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ علم أن الله سيحفظهم من كيده. ويحتمل أن الباء للاستعانة، وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه، وأنه لا يضل أحدا إلا بمشيئة الله تعالىٰ، فاستعان بعزة الله علىٰ إغواء ذرية آدم هذا، وهو عدوّ الله حقًّا.

ونحن يا ربنا العاجزون المقصرون، المقرون لك بكل نعمة، ذرية من شرفته وكرَّمته، فنستعين بعزتك العظيمة، وقدرتك، ورحمتك الواسعة لكل مخلوق، ورحمتك التي أوصلت إلينا بها ما أوصلت من النعم الدينية والدنيوية، وصرفت بها ما عنَّا صرفت من النِّقم، أن تعيننا علىٰ محاربته وعداوته، والسلامة من شره وشركه، ونحسن الظن بك أن تجيب دعاءنا، ونؤمن بوعدك الذي قلت لنا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا ﴿لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝١٩٤﴾ [آل عمران].

[٨٤-٨٥] ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾؛ أي: الحق وصفي، والحق قولي، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

[٨٦] فلما بين الرسول للناس الدليل ووضح لهم السبيل قال الله له:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: علىٰ دعائي إياكم ﴿مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أدعي أمرا ليس لي، وأقفو ما ليس لي به علم، لا أتبع إلا ما يوحىٰ إليَّ.

[٨٧] ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: هذا الوحي والقرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ يتذكرون به كل ما ينفعهم، من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون شرفا ورفعة للعاملين به، وإقامة حجة علىٰ المعاندين.

فهذه السورة العظيمة، مشتملة علىٰ الذكر الحكيم، والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين، علىٰ من كذّب بالقرآن وعارضه، وكذّب من جاء به، والإخبار عن عباد الله المخلصين، وجزاء المتقين والطاغين، فلهذا أقسم في أولها بأنه ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه ذكر للعالمين.

وأكثر التذكير بها فيما بين ذلك؛ كقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا﴾[ص:١٧]، ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ﴾ [ص:٤٥]، ﴿رَحۡمَةً مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ﴾[ص:٤٣]، ﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ ﴾[ص:٤٩].

اللَّهُمَّ علمنا منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نسِّينا، نسيان غفلة ونسيان ترك.

[٨٨] ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾؛ أي: خبره ﴿بَعۡدَ حِينِۭ﴾ وذلك حين يقع عليهم العذاب وتتقطع عنهم الأسباب.

تم تفسير سورة ص بمنه تعالىٰ وعونه.

٣٩- تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّمَرِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ۝٣﴾ [الزُّمَر]

[١] يخبر تعالىٰ عن عظمة القرآن، وجلالة من تكلم به ونزل منه، وأنه نزل ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ أي: الذي وصْفُه الألوهية للخلق، وذلك لعظمته وكماله، والعزة التي قهر بها كل مخلوق، وذل له كل شيء، والحكمة في خلقه وأمره.

فالقرآن نازل ممن هذا وصفه، والكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف، فكما أنَّ الله تعالىٰ هو الكامل من كل وجه، الذي لا مثيل له، فكذلك كلامه كامل من كل وجه لا مثيل له، فهذا وحده كافٍ في وصف القرآن، دالٌّ علىٰ مرتبته.

[٢] ولكنه - مع هذا - زاد بيانا لكماله بمن نزل عليه؛ وهو: محمد ﷺ، الذي هو أشرف الخلق فعلم أنه أشرف الكتب، وبما نزل به، وهو الحق، فنزل بالحق الذي لا مرية فيه، لإخراج الخلق من الظلمات إلىٰ النور، ونزل مشتملا علىٰ الحق في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة، فكل ما دل عليه فهو أعظم أنواع الحق، من جميع المطالب العلمية، وما بعد الحق إلا الضلال، ولما كان نازلا من الحق، مشتملا علىٰ الحق لهداية الخلق، علىٰ أشرف الخلق، عظُمت فيه النعمة، وجلَّت، ووجب القيام بشُكرها، وذلك بإخلاص الدِّين لله، فلهذا قال: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: أخلص لله تعالىٰ جميع دينك، من الشرائع الظاهرة والشرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تفرد الله وحده بها، وتقصد به وجهه، لا غير ذلك من المقاصد.

[٣] ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالىٰ كما أنه له الكمال كله، وله التفضل علىٰ عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب، فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به؛ لأنه متضمن للتأله لله في حبه وخوفه ورجائه، وللإنابة إليه في عبوديته، والإنابة إليه في تحصيل مطالب عباده.

وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها، دون الشرك به في شيء من العبادة. فإن الله بريء منه، وليس لله فيه شيء، فهو أغنىٰ الشركاء عن الشرك، وهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مُشْقٍ للنفوس غاية الشّقاء، فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص، نهىٰ عن الشرك به، وأخبر بذم من أشرك به فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾؛ أي: يتولونهم بعبادتهم ودعائهم، معتذرين عن أنفسهم وقائلين: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾؛ أي: لترفع حوائجنا لله، وتشفع لنا عنده، وإلا فنحن نعلم أنها، لا تخلق، ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئا.

أي: فهؤلاء، قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص، وتجرأوا علىٰ أعظم المحرّمات، وهو الشرك، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء، الملك العظيم، بالملوك، وزعموا بعقولهم الفاسدة ورأيهم السقيم، أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء، وشفعاء، ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم، ويستعطفونهم عليهم، ويمهِّدون لهم الأمر في ذلك، أن الله تعالىٰ كذلك.

وهذا القياس من أفسد الأقيسة، وهو يتضمّن التسوية بين الخالق والمخلوق، مع ثبوت الفرق العظيم، عقلا ونقلا وفطرة، فإن الملوك، إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم؛ لأنه لا يعلمون أحوالهم. فيحتاج من يعلمهم بأحوالهم، وربما لا يكون في قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة، فيحتاج من يعطفهم عليه ويسترحمه لهم، ويحتاجون إلىٰ الشفعاء والوزراء، ويخافون منهم، فيقضون حوائج من توسطوا لهم، مراعاة لهم، ومداراة لخواطرهم، وهم أيضا فقراء، قد يمنعون لما يخشون من الفقر.

وأما الرب تعالىٰ، فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها، الذي لا يحتاج من يخبره بأحوال رعيته وعباده، وهو تعالىٰ أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، لا يحتاج إلىٰ أحدٍ من خلقه يجعله راحما لعباده؛ بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، وهو الذي يحثُّهم ويدعوهم إلىٰ الأسباب التي ينالون بها رحمته، وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم، وهو الغنيُّ، الذي له الغنىٰ التام المطلق، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيدٍ واحد فسألوه، فأعطىٰ كلًّا منهم ما سأل وتمنىٰ، لم ينقصوا غناه شيئا، ولم ينقصوا مما عنده، إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيَط.

وجميع الشفعاء يخافونه، فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه، وله الشفاعة كلها.

فبهذه الفروق يعلم جهل المشركين به، وسفههم العظيم، وشدّة جراءتهم عليه.

ويعلم أيضا الحكمة في كون الشرك لا يغفره الله تعالىٰ، لأنه يتضمن القدح في الله تعالىٰ، ولهذا قال حاكما بين الفريقين، المخلصين والمشركين، وفي ضمنه التهديد للمشركين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾.

وقد عُلم أنّ حكمه أن المؤمنين المخلصين في جنات النعيم، ومن يُشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، ومأواه النار، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾؛ أي: لا يوفق للهداية إلىٰ الصراط المستقيم ﴿مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾؛ أي: وصفه الكذب أو الكفر، بحيث تأتيه المواعظ والآيات، ولا يزول عنه ما اتَّصف به، ويريه الله الآيات، فيجحدها ويكفر بها ويكذِّب، فهذا أنّىٰ له الهدىٰ وقد سد علىٰ نفسه الباب، وعوقب بأن طبع الله علىٰ قلبه، فهو لا يؤمن؟

> ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٤﴾ [الزُّمَر]

[٤] أي: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا﴾ كما زعم ذلك من زعمه، من سفهاء الخلق، ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾؛ أي: لاصطفىٰ بعض مخلوقاته التي يشاء اصطفاءه، واختصه لنفسه، وجعله بمنزلة الولد، ولم يكن حاجة إلىٰ اتخاذ الصاحبة.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ عمّا ظنه به الكافرون، أو نسبه إليه المُلحدون.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾؛ أي: الواحد في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أفعاله، فلا شبيه له في شيء من ذلك، ولا مماثل، فلو كان له ولد، لاقتضىٰ أن يكون شبيها له في وحدته، لأنه بعضه، وجزء منه.

القهار لجميع العالم العلوي والسفلي، فلو كان له ولد لم يكن مقهورا، ولكان له إدلال علىٰ أبيه ومناسبة منه.

ووحدته تعالىٰ وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلا قهارا، والقهار لا يكون إلا واحدا، وذلك ينفي الشركة له من كلِّ وجه.

> ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ

وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٦ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾ [الزُّمَر]

[٥] يخبر تعالىٰ أنه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أي: بالحكمة والمصلحة، وليأمر العباد وينهاهم، ويثيبهم ويعاقبهم.

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾؛ أي: يدخل كلًّا منهما علىٰ الآخر، ويحله محله، فلا يجتمع هذا وهذا؛ بل إذا أتىٰ أحدهما انعزل الآخر عن سلطانه.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ بتسخيرٍ منظم، وسير مقنن، ﴿كُلّٞ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجۡرِي﴾ متأثِّرا عن تسخيره تعالىٰ ﴿لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾ وهو انقضاء هذه الدار وخرابها، فيخرب الله آلاتها وشمسها وقمرها، وينشئ الخلق نشأة جديدة ليستقروا في دار القرار، الجنة أو النار.

﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب، القاهر لكل شيء، الذي لا يستعصي عليه شيء، الذي من عزّته أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وسخرها تجري بأمره، ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ لذنوب عباده التوابين المؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾ [طه] الغفار لمن أشرك به بعد ما رأىٰ من آياته العظيمة، ثم تاب وأناب.

[٦] ومن عزته أن ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ علىٰ كثرتكم وانتشاركم في أنحاء الأرض، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه، وتتم بذلك النعمة، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾؛ أي: خلقها بقدر نازل منه، رحمةً بكم، ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾ وهي التي ذكرها في سورة الأنعام ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾[١٤٣]، ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾[١٤٤].

وخصها بالذكر، مع أنه أنزل لمصالح عباده من البهائم غيرها، لكثرة نفعها، وعموم مصالحها، ولشرفها، ولاختصاصها بأشياء لا يصلح غيرها، كالأضحية والهدي، والعقيقة، ووجوب الزكاة فيها، واختصاصها بالدية.

ولما ذكر خلق أبينا وأمنا، ذكر ابتداء خلقنا، فقال: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ

خَلۡقٖ﴾؛ أي: طورا بعد طور، وأنتم في حال لا يد مخلوق تمسّكم، ولا عين تنظر إليكم، وهو قد ربّاكم في ذلك المكان الضيق ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ ظُلمة البطن، ثم ظلمة الرحم، ثم ظلمة المشيمة، ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي خلق السَّمٰوات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وخلقكم وخلق لكم الأنعام والنعم ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾؛ أي: المألوه المعبود، الذي ربّاكم ودبركم، فكما أنه الواحد في خلقه وتربيته لا شريك له في ذلك، فهو الواحد في ألوهيته، لا شريك له، ولهذا قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ بعد هذا البيان ببيان استحقاقه تعالىٰ الإخلاص وحده إلىٰ عبادة الأوثان التي لا تدبر شيئا، وليس لها من الأمر شيء.

[٧] ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ لا يضره كفركم، كما لا ينتفع بطاعتكم، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم.

﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ لكمال إحسانه بهم، وعلمه أن الكفر يشقيهم شقاوة لا يسعدون بعدها، ولأنه خلقهم لعبادته، فهي الغاية التي خلق لها الخلق، فلا يرضىٰ أن يدعو ما خلقهم لأجله.

﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ﴾ لله تعالىٰ بتوحيده، وإخلاص الدين له ﴿يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ لرحمته بكم، ومحبته للإحسان عليكم، ولفعلكم ما خلقكم لأجله.

وكما أنه لا يتضرر بشرككم ولا ينتفع بأعمالكم وتوحيدكم، كذلك كل أحد منكم له عمله، من خير وشر ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ في يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ﴾ إخبارا أحاط به علمه، وجرىٰ عليه قلمه، وكتبته عليكم الحفظة الكرام، وشهدت به عليكم الجوارح، فيجازي كلا منكم ما يستحقه.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بنفس الصدور، وما فيها من وصف برٍّ أو فجور، والمقصود من هذا، الإخبار بالجزاء بالعدل التام.

﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾ [الزُّمَر]

[٨] يخبر تعالىٰ عن كرمه بعبده وإحسانه وبره، وقلة شكر عبده، وأنه حين يمسه الضر، من مرض أو فقر، أو وقوع في كربة بَحْرٍ أو غيره؛ أنه يعلم أنه لا ينجيه في هذه الحال إلا الله، فيدعوه متضرعا منيبا، ويستغيث به في كشف ما نزل به ويلح في ذلك.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ الله ﴿نِعۡمَةً مِّنۡهُ﴾ بأن كشف ما به من الضر والكربة، ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ﴾؛ أي: نسي ذلك الضر الذي دعا الله لأجله، ومر كأنه ما أصابه ضر، واستمر علىٰ شركه.

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾؛ أي: ليضل بنفسه، ويضل غيره، لأن الإضلال فرع عن الضلال، فأتىٰ بالملزوم ليدل علىٰ اللازم.

﴿قُلۡ﴾ لهذا العاتي، الذي بدّل نعمة الله كفرا: ﴿تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾ [الزُّمَر] فلا يغنيك ما تتمتع به إذا كان المآل النار.

﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾ [الشعراء].

﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ [الزُّمَر]

[٩] هذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهل، وأن هذا من الأمور التي تقرر في العقول تباينها، وعلم علما يقينا تفاوتها، فليس المعرض عن طاعة ربه، المتبع لهواه، كمن ﴿هُوَ قَٰنِتٌ﴾؛ أي: مطيع لله بأفضل العبادات وهي الصلاة، وأفضل الأوقات وهي أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله، ثم وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة، علىٰ ما سلف من الذنوب، وأنّ متعلق الرجاء، رحمة الله، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن.

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ﴾ ربهم ويعلمون دينه الشرعي ودينه الجزائي، وما له في ذلك من الأسرار والحكم ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ شيئا من ذلك؟ لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلام، والماء والنار.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ إذا ذكروا ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ أي: أهل العقول الزكية الذكية، فهم الذين يؤثرون الأعلىٰ علىٰ الأدنىٰ، فيؤثرون العلم علىٰ الجهل، وطاعة الله علىٰ مخالفته؛ لأن لهم عقولا ترشدهم للنظر في العواقب، بخلاف من لا لبّ له ولا عقل، فإنه يتخذ إلهه هواه.

﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزُّمَر]

[١٠] أي: قل مناديا لأشرف الخلق، وهم المؤمنون، آمرا لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوىٰ، ذاكرا

لهم السبب الموجب للتقوىٰ، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم، المقتضي ذلك منهم أن يتقوه، ومن ذلك ما مَنَّ الله عليهم به من الإيمان فإنه موجب للتقوىٰ، كما تقول: أيها الكريم تصدق، وأيها الشجاع قاتل.

وذكر لهم الثواب المنشط في الدنيا فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعبادة ربهم ﴿حَسَنَةٌۗ﴾ ورزق واسع، ونفس مطمئنة، وقلب منشرح، كما قال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ﴾ [النحل:٩٧].

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾ إذا منعتم من عبادته في أرض، فهاجروا إلىٰ غيرها، تعبدون فيها ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم.

ولما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ﴾ كان لبعض النفوس مجال في هذا الموضع، وهو أن النص عام، أنه كل من أحسن فله في الدنيا حسنة، فما بال من آمن في أرض يضطهد فيها ويمتهن، لا يحصل له ذلك، دفع هذا الظن بقوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾ وهنا بشارة نص عليها النبي ﷺ، بقوله: «**لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله وهم علىٰ ذلك**» تشير إليه هذه الآية، وترمي إليه من قريب، وهو أنه تعالىٰ أخبر أن أرضه واسعة، فمهما منعتم من عبادته في موضع فهاجروا إلىٰ غيرها، وهذا عام في كل زمان ومكان، فلا بد أن يكون لكل مهاجر، ملجأ من المسلمين يلجأ إليه، وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وهذا عام في جميع أنواع الصبر، الصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر علىٰ طاعته حتىٰ يؤدِّيها، فوعد الله الصابرين ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله، وأنه معين علىٰ كل الأمور.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزُّمَر]

[١١] أي ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول للناس: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ في قوله في أول السورة: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزُّمَر].

[١٢] ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لأني الداعي الهادي للخلق إلىٰ ربهم، فيقتضي أني أول من ائتمر بما آمر به، وأول من أسلم، وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد ﷺ، وممن زعم أنه من أتباعه، فلا بد من الإسلام في الأعمال الظاهرة، والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة.

[١٣] ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ فيما أمرني به من الإخلاص والإسلام، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يخلد فيه من أشرك، ويعاقب فيه من عصىٰ.

[١٤-١٥] ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون].

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ حقيقة هم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث حرموها الثواب واستحقت بسببهم وخيم العقاب ﴿وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾؛ أي: فرق بينهم وبينهم واشتد عليهم الحزن وعظم الخسران ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ الذي ليس مثله خسران وهو خسران مستمر لا ربح بعده؛ بل ولا سلامة.

[١٦] ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء فقال ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: قطع عذاب كالسحاب العظيم ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الوصف الذي وصفنا به عذاب أهل النار سوط يسوق الله به عباده إلىٰ رحمته ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾؛ أي: جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو عباده إلىٰ التقوىٰ وزجرا عما يوجب العذاب، فسبحان من رحم عباده في كل شيء وسهل لهم الطرق الموصلة إليه وحثهم علىٰ سلوكها، ورغبهم بكل مرغب تشتاق له النفوس وتطمئن له القلوب، وحذرهم من العمل لغيره غاية التحذير، وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾ [الزُّمَر]

[١٧] لما ذكر حال المجرمين ذكر حال المنيبين وثوابهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ والمراد بالطاغوت في هذا الموضع، عبادة غير الله، فاجتنبوها في عبادتها. وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم، لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها في عبادتها.

﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بعبادته وإخلاص الدين له، فانصرفت دواعيهم من عبادة الأصنام إلىٰ عبادة الملك العلام، ومن الشرك والمعاصي إلىٰ التوحيد والطاعات، ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ التي لا يقادر قدرها، ولا يعلم وصفها، إلا من أكرمهم بها، وهذا شامل للبشرىٰ في الحياة الدنيا بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الربانية من الله، التي يرون في خلالها، أنه مريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة، ولهم البشرىٰ في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وخاتمة البشرىٰ ما يبشرهم به الرب الكريم، من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة.

[١٨] ولما أخبر أن لهم البشرىٰ، أمره الله ببشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة؛ فقال: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾.

وهذا جنس يشمل كل قول فهم يستمعون جنس القول ليميزوا بين ما ينبغي إيثاره مما ينبغي اجتنابه، فلهذا كان من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه، وأحسنه علىٰ الإطلاق كلام الله وكلام رسوله، كما قال في هذه السورة: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ الآية.

وفي هذه الآية نكتة؛ وهي: أنه لما أخبر عن هؤلاء الممدوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأنه قيل: هل من طريق إلىٰ معرفة أحسنه حتىٰ نتصف بصفات أولي الألباب، وحتىٰ نعرف أن من آثره علمنا أنه من أولي الألباب؟

قيل: نعم، أحسنه ما نص الله عليه بقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ الآية، أولئك ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ لأحسن الأخلاق والأعمال ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ أي: العقول الزاكية. ومن لبهم وحزمهم، أنهم عرفوا الحسن من غيره، وآثروا ما ينبغي إيثاره، علىٰ ما سواه، وهذا علامة العقل؛ بل لا علامة للعقل سوىٰ ذلك، فإن الذي لا يميز بين الأقوال، حسنها، وقبيحها، ليس من أهل العقول الصحيحة، أو الذي يميز؛ لكن غلبت شهوته عقله، فبقي عقله تابعا لشهوته فلم يؤثر الأحسن، كان ناقص العقل.

﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ

مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزُّمَر]

[١٩] أي: أفمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره علىٰ غيّه وعناده وكفره، فإنه لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدر تنقذ مَن في النار لا محالة.

[٢٠] لكن الغنىٰ كل الغنىٰ [١]، والفوز كل الفوز للمتقين الذين أعد لهم من الكرامة وأنواع النعيم، ما لا يقادر قدره.

﴿لَهُمۡ غُرَفٞ﴾؛ أي: منازل عالية مزخرفة، من حسنها وبهائها وصفائها، أنه يرىٰ ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، ومن علوها وارتفاعها، أنها ترىٰ كما يرىٰ الكوكب الغابر في الأفق الشرقي أو الغربي، ولهذا قال: ﴿مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ﴾؛ أي: بعضها فوق بعض ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ بذهب وفضة، وملاطها المسك الأذفر.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ المتدفِّقة، المسقية للبساتين الزاهرة والأشجار الطّاهرة، فتغل بأنواع الثمار اللّذيذة، والفاكهة النّضيجة.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ وقد وعد المتقين هذا الثواب، فلا بد من الوفاء به، فليوفوا بخصال التقوىٰ، ليوفيهم أجورهم.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزُّمَر]

[٢١] يذكر تعالىٰ أولي الألباب، ما أنزله من السماء من الماء، وأنه سلكه ينابيع في الأرض؛ أي: أودعه فيها ينبوعا، يستخرج بسهولة ويسر، ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ من بر وذرة، وشعير وأرز، وغير ذلك، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ عند استكماله، أو عند حدوث آفة فيه، ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾ متكسرا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ يذكرون به عناية ربهم ورحمته بعباده، حيث يسَّر لهم هذا الماء، وخزنه بخزائن الأرض تبعا لمصالحهم، ويذكرون به كمال قدرته، وأنه يحيي الموتىٰ، كما أحيا الأرض بعد موتها، ويذكرون به أن الفاعل [لذلك] [٢] هو المستحق للعبادة.

اللّٰهُمَّ اجعلنا من أولي الألباب، الذين نوهت بذكرهم، وهديتهم بما أعطيتهم من العقول، وأريتهم

---

(١) في نسخة ابن الجوزي: الغبن كل الغبن.

(٢) ساقطة من نسخة ابن الجوزي.

من أسرار كتابك وبديع آياتك ما لم يصل إليه غيرهم، إنك أنت الوهاب.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزُّمَر]

[٢٢] أي: أفيستوي من شرح الله صدره للإسلام، فاتسع لتلقي أحكام الله والعمل بها، منشرحا قرير العين، علىٰ بصيرة من أمره، وهو المراد بقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ كمن ليس كذلك، بدليل قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾؛ أي: لا تلين لكتابه، ولا تتذكر آياته، ولا تطمئن بذكره؛ بل هي معرضة عن ربها، ملتفتة إلىٰ غيره، فهؤلاء لهم الويل الشديد، والشر الكبير.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وأي ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن وليه؟ ومن كل السعادة في الإقبال عليه، وقسا قلبه عن ذكره، وأقبل علىٰ كل ما يضره؟

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزُّمَر]

[٢٣] يخبر تعالىٰ عن كتابه الذي نزله أنه أَحْسَنَ ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾ علىٰ الإطلاق، فأحسن الحديث كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن، علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه، أجل المعاني، لأنه أحسن الحديث في لفظه ومعناه، ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف، بوجه من الوجوه. حتىٰ إنه كلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر، رأىٰ من اتفاقه، حتىٰ في معانيه الغامضة، ما يبهر الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم، هذا المراد بالتشابه في هذا الموضع.

وأما في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ﴾ [آل عمران:٧] فالمراد بها، التي تشتبه علىٰ فهوم كثير من الناس، ولا يزول هذا الاشتباه إلا بردها إلىٰ المحكم، ولهذا قال: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ﴾ [آل عمران:٧] فجعل التشابه لبعضه، وهنا جعله كله متشابها، أي: في حسنه، لأنه قال: ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وهو سور وآيات، والجميع يشبه بعضه بعضا كما ذكرنا.

﴿مَّثَانِيَ﴾؛ أي: تثنىٰ فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتثنىٰ فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته، وحسنه، فإنه تعالىٰ، لما علم احتياج الخلق إلىٰ معانيه المزكية للقلوب، المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب، بمنزلة الماء لسقي الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بعد عهدها بسقي الماء نقصت؛ بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنت وأثمرت أنواع الثمار النافعة، فكذلك القلب يحتاج دائما إلىٰ تكرر معاني كلام الله تعالىٰ عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنىٰ مرة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعا، ولم تحصل النتيجة منه، ولهذا سلكت في هذا التفسير هذا المسلك الكريم، اقتداء بما هو تفسير له، فلا تجد فيه الحوالة علىٰ موضع من المواضع، بل كل موضع تجد تفسيره كامل المعنىٰ، غير مراع لما مضىٰ مما يشبهه، وإن كان بعض المواضع يكون أبسط من بعض وأكثر فائدة، وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن، المتدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه، فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير، ونفع غزير.

ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة، أثَّر في قلوب أولي الألباب المهتدين، فلهذا قال تعالىٰ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ لما فيه من التخويف والترهيب المزعج، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عند ذكر الرجاء والترغيب، فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم، ﴿يَهْدِي بِهِۦ﴾؛ أي: بسبب ذلك ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده. ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: القرآن الذي وصفناه لكم.

﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي لا طريق يوصل إلىٰ الله إلا منه ﴿يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:٨٨] ممن حسن قصده، كما قال تعالىٰ: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق للإقبال علىٰ كتابه، فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلىٰ الهدىٰ، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزُّمَر]

[٢٤] أي: أفيستوي هذا الذي هداه الله، ووفقه لسلوك الطريق الموصلة لدار كرامته، كمن كان في الضلال واستمر علىٰ عناده حتىٰ قدم القيامة، فجاءه العذاب العظيم فجعل يتقي بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء، وأدنىٰ شيء من العذاب يؤثر فيه، فهو يتقي فيه سوء العذاب لأنه قد غُلت يداه ورجلاه، ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم، بالكفر والمعاصي، توبيخا وتقريعا: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾.

[٢٥] ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من الأمم كما كذب هؤلاء، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ جاءهم في غفلة أول نهار، أو هم قائلون.

[٢٦] ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك العذاب ﴿ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ فافتضحوا عند الله وعند خلقه ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ فليحذر هؤلاء من المقام علىٰ التكذيب، فيصيبهم ما أصاب أولئك من التعذيب.

﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٢٨ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩ إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ٣١﴾ [الزُّمَر]

[٢٧] يخبر تعالىٰ أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال، أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشر، وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء، والحكمة في ذلك ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ عندما نوضح لهم الحق فيعلمون ويعملون.

[٢٨] ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾؛ أي: جعلناه قرآنا عربيا، واضح الألفاظ، سهل المعاني، خصوصا علىٰ العرب. ﴿غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾؛ أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمٗا﴾ [الكهف].

﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالىٰ، حيث سهلنا عليهم طرق التقوىٰ العلمية والعملية، بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل.

[٢٩] ثم ضرب مثلا للشرك والتوحيد فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا﴾؛ أي: عبدا ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ فهم كثيرون، وليسوا متفقين علىٰ أمر من الأمور وحالة من الحالات حتىٰ تمكن راحته؛

بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾؛ أي: خالصا له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾؛ أي: هذان الرجلان ﴿مَثَلًا﴾؟ لا يستويان.

كذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا، ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه، قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، فـ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ علىٰ تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجهال، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

[٣٠] ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾؛ أي: كلكم لا بد أن يموت ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء].

[٣١] ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل، ويجازي كُلا ما عمله ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦].

﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزُّمَر]

[٣٢] يقول تعالىٰ محذرا ومخبرا: أنه لا أظلم وأشد ظلما ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ إما بنسبته إلىٰ ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء النبوة، أو الإخبار بأن الله تعالىٰ قال كذا، أو أخبر بكذا، أو حكم بكذا وهو كاذب، فهذا داخل في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[البقرة] إن كان جاهلا وإلا فهو أشنع وأشنع، أو ﴿كَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾؛ أي: ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبينات فكذبه، فتكذيبه ظلم عظيم منه، لأنه رد الحق بعد ما تبين له، فإن كان جامعا بين الكذب علىٰ الله والتكذيب بالحق، كان ظلما علىٰ ظلم.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ يحصل بها الاشتفاء منهم، وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر.

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان].

[٣٣] ولما ذكر الكاذب المكذب وجنايته وعقوبته، ذكر الصادق المصدق وثوابه، فقال: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ في قوله وعمله، فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم، ممن صدق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه، وفيما فعله من خصال الصدق.

﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾؛ أي: بالصدق؛ لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يصدق به، بسبب استكباره، أو احتقاره لمن قاله وأتىٰ به، فلا بد في المدح من الصدق والتصديق، فصدقه يدل علىٰ علمه وعدله، وتصديقه يدل علىٰ تواضعه وعدم استكباره.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الذين وفقوا للجمع بين الأمرين ﴿هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ فإن جميع خصال التقوىٰ ترجع إلىٰ الصدق بالحق والتصديق به.

[٣٤] ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ من الثواب، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر. فكل ما تعلقت به إرادتهم ومشيئتهم، من أصناف اللذات والمشتهيات، فإنه حاصل لهم، معد مهيأ، ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ إلىٰ عباد الله.

[٣٥] ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ عمل الإنسان له ثلاث حالات: إما أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ، ولا أحسن والقسم الأخير قسم المباحات وما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، والأسوأ، المعاصي كلها، والأحسن الطاعات كلها، فبهذا التفصيل، يتبين معنىٰ الآية، وأن قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾؛ أي: ذنوبهم الصغار، بسبب إحسانهم وتقواهم، ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: بحسناتهم كلها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾[النساء].

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ۝٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ۝٣٧﴾ [الزُّمَر]

[٣٦-٣٧] ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾؛ أي: أليس من كرمه وجوده، وعنايته بعبده، الذي قام بعبوديته، وامتثل أمره واجتنب نهيه، خصوصا أكمل الخلق عبودية لربه، وهو محمد ﷺ، فإن الله تعالىٰ سيكفيه في أمر دينه ودنياه، ويدفع عنه من ناوأه بسوء.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ من الأصنام والأنداد أن تنالك بسوء، وهذا من غيهم وضلالهم.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۞ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾؛ لأنه تعالىٰ الذي بيده الهداية والإضلال، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ له العزة الكاملة التي قهر بها كل شيء، وبعزته يكفي عبده ويدفع عنه مكرهم، ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ممن عصاه، فاحذروا موجبات نقمته.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۞ ٣٨﴾ [الزُّمَر]

[٣٨] أي: ولئن سألت هؤلاء الضلال الذين يخوفونك بالذين من دونه، وأقمت عليهم دليلا من أنفسهم، فقلت: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ لم يثبتوا لآلهتهم من خلقها شيئا، ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ الذي خلقها الله وحده، ﴿قُلْ﴾ لهم مقررا عجز آلهتهم، بعد ما تبينت قدرة الله: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾؛ أي: أخبروني ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي ضر كان.

﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ بإزالته بالكلية، أو بتخفيفه من حال إلىٰ حال؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ يوصل إليّ بها منفعة في ديني أو دنياي، ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ ومانعاتها عني؟ سيقولون: لا يكشفون الضر ولا يمسكون الرحمة.

قل لهم: بعد ما تبين الدليل القاطع علىٰ أنه وحده المعبود، وأنه الخالق للمخلوقات، النافع الضار وحده، وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق والنفع والضر، مستجلبا كفايته، مستدفعا مكرهم وكيدهم ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ أي: عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، فالذي بيده - وحده - الكفاية هو حسبي، سيكفيني كل ما أهمّني وما لا أهتم به.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ ٣٩ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۞ ٤٠﴾ [الزُّمَر]

[٣٩-٤٠] أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: علىٰ حالتكم التي رضيتموها لأنفسكم، من عبادة من لا يستحق من العبادة شيئا ولا له من الأمر شيء.

﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ علىٰ ما دعوتكم إليه، من إخلاص الدين لله تعالىٰ وحده، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لمن

العاقبة.

و﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ في الدنيا. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ﴾ في الأخرىٰ ﴿عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ لا يحول عنه ولا يزول، وهذا تهديد عظيم لهم، وهم يعلمون أنهم المستحقون للعذاب المقيم؛ ولكن الظلم والعناد حال بينهم وبين الإيمان.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الزُّمَر]

[٤١] يخبر تعالىٰ أنه أنزل علىٰ رسوله الكتاب المشتمل علىٰ الحق، في أخباره وأوامره ونواهيه، الذي هو مادة الهداية، وبلاغ لمن أراد الوصول إلىٰ الله وإلىٰ دار كرامته، وأنه قامت به الحجة علىٰ العالمين.

﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ بنوره واتبع أوامره فإن نفع ذلك يعود إلىٰ نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بعدما تبين له الهدىٰ ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ لا يضر الله شيئا، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، وتجبرهم علىٰ ما تشاء، وإنما أنت مبلِّغ تؤدي إليهم ما أمرت به.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزُّمَر]

[٤٢] يخبر تعالىٰ أنه المتفرد بالتصرف بالعباد، في حال يقظتهم ونومهم، وفي حال حياتهم وموتهم، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ وهذه الوفاة الكبرىٰ، وفاة الموت.

وإخباره أنه يتوفىٰ الأنفس وإضافة الفعل إلىٰ نفسه، لا ينافي أنه قد وكل بذلك ملك الموت وأعوانه، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ [السجدة:١١]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام] لأنه تعالىٰ يضيف الأشياء إلىٰ نفسه، باعتبار أنه الخالق المدبر، ويضيفها إلىٰ أسبابها، باعتبار أن من سننه تعالىٰ وحكمته أن جعل لكل أمر من الأمور سببا. وقوله: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ وهذه الموتة الصغرىٰ، أي: ويمسك النفس التي لم تمت في منامها، ﴿فَيُمۡسِكُ﴾ من هاتين النفسين النفس ﴿ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ وهي نفس من كان مات أو قضي أن يموت في منامه، ﴿وَيُرۡسِلُ﴾ النفس ﴿ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾؛ أي: إلىٰ استكمال رزقها وأجلها. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ علىٰ كمال اقتداره، وإحيائه الموتىٰ بعد موتهم.

وفي هذه الآية دليل علىٰ أن الروح والنفس جسم قائم بنفسه، مخالف جوهره جوهر البدن، وأنها مخلوقة مدبرة، يتصرف الله فيها في الوفاة والإمساك والإرسال، وأن أرواح الأحياء والأموات تتلاقىٰ في البرزخ، فتجتمع، فتتحادث، فيرسل الله أرواح الأحياء، ويمسك أرواح الأموات.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾

[٤٣] ينكر تعالىٰ، علىٰ من اتخذ من دونه شفعاء يتعلق بهم ويسألهم ويعبدهم، ﴿قُلۡ﴾ لهم - مبينا جهلهم، وأنها لا تستحق شيئا من العبادة-: ﴿أَوَلَوۡ كَانُواْ﴾؛ أي: من اتخذتم من الشفعاء ﴿لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾؛ أي: لا مثقال ذرة في السَّمٰوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر؛ بل وليس لهم عقل يستحقون أن يمدحوا به؛ لأنها جمادات من أحجار وأشجار وصور وأموات؛ فهل يقال: إن لمن اتخذها عقلا؟ أم هو من أضل الناس وأجهلهم وأعظمهم ظلما؟

[٤٤] ﴿قُل﴾ لهم: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ لأن الأمر كله لله، وكل شفيع فهو يخافه، ولا يقدر أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فإذا أراد رحمة عبده، أذن للشفيع الكريم عنده أن يشفع، رحمة بالاثنين. ثم قرر أن الشفاعة كلها له بقوله: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ أي: جميع ما فيهما من الذوات والأفعال والصفات. فالواجب أن تطلب الشفاعة ممن يملكها، وتخلص له العبادة. ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيجازي المخلص له بالثواب الجزيل، ومن أشرك به بالعذاب الوبيل.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزُّمَر]

[٤٥-٤٦] يذكر تعالىٰ حالة المشركين، وما الذي اقتضاه شركهم أنهم ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ توحيدا له، وأمر بإخلاص الدين له، وترك ما يعبد من دونه، أنهم يشمئزون وينفرون، ويكرهون ذلك أشد الكراهة.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ من الأصنام والأنداد، ودعا الداعي إلىٰ عبادتها ومدحها، ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ بذلك، فرحا بذكر معبوداتهم، ولكون الشرك موافقا لأهوائهم، وهذه الحال أشر الحالات وأشنعها، ولكن موعدهم يوم الجزاء، فهناك يؤخذ الحق منهم، وينظر: هل تنفعهم آلهتهم التي كانوا يدعون من دون الله شيئا؟

ولهذا قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: خالقهما ومدبرهما. ﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ﴾ الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الذي نشاهده.

﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ وإن من أعظم الاختلاف اختلاف الموحدين المخلصين القائلين: إن ما هم عليه هو الحق، وإن لهم الحسنىٰ في الآخرة دون غيرهم، والمشركين الذين اتخذوا من دونك الأنداد والأوثان، وسووا بك من لا يسوىٰ شيئا، وتنقصوك غاية التنقص، واستبشروا عند ذكر آلهتهم، واشمأزوا عند ذكرك، وزعموا مع هذا أنهم علىٰ الحق وغيرهم علىٰ الباطل، وأن لهم الحسنىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ [الحج].

وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها بقوله: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾[الحج] إلىٰ أن قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾[الحج].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام]، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ [المائدة:٧٢] ففي هذه الآية، بيان عموم خلقه تعالىٰ وعموم علمه، وعموم حكمه بين عباده، فقدرته التي نشأت عنها المخلوقات، وعلمه المحيط بكل شيء، دال علىٰ حكمه بين عباده وبعثهم، وعلمه بأعمالهم، خيرها وشرها، وبمقادير جزائها، وخلقه دال علىٰ علمه ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ [المُلك:١٤].

﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ٤٧ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٤٨﴾ [الزُّمَر]

[٤٧] لما ذكر تعالىٰ أنه الحاكم بين عباده، وذكر مقالة المشركين وشناعتها، كأن النفوس تشوفت إلىٰ ما يفعل الله بهم يوم القيامة، فأخبر أن لهم ﴿سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ أي: أشده وأفظعه، كما قالوا أشد الكفر وأشنعه، وأنهم علىٰ - الفرض والتقدير - لو كان لهم ما في الأرض جميعا، من ذهبها وفضتها ولؤلؤها

وحيواناتها وأشجارها وزروعها وجميع أوانيها وأثاثها ومثله معه، ثم بذلوه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۚ﴾ ليفتدوا به من العذاب وينجوا منه، ما قُبل منهم، ولا أغنىٰ عنهم من عذاب الله شيئا، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾؛ أي: يظنون من السخط العظيم، والمقت الكبير، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك.

[٤٨] ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾؛ أي: الأمور التي تسوؤهم، بسبب صنيعهم وكسبهم، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من الوعيد والعذاب الذي نزل بهم، وما حلَّ عليهم العقاب.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الزُّمَر]

[٤٩] يخبر تعالىٰ عن حالة الإنسان وطبيعته، أنه حين يمسه ضر، من مرض أو شدة أو كرب. ﴿دَعَانَا﴾ ملحا في تفريج ما نزل به ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ فكشفنا ضره وأزلنا مشقته، عاد بربه كافرا، ولمعروفه منكرا، و﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ﴾؛ أي: علم من الله، أني له أهل، وأني مستحق له، لأني كريم عليه، أو علىٰ علم مني بطرق تحصيله.

قال تعالىٰ: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ يبتلي الله به عباده، لينظر من يشكره ممن يكفره. ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك يعدون الفتنة منحة، ويشتبه عليهم الخير المحض، بما قد يكون سببا للخير أو للشر.

[٥٠] قال تعالىٰ: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: قولهم ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ﴾ فما زالت متوارثة عند المكذبين، لا يقرون بنعمة ربهم، ولا يرون له حقا، فلم يزل دأبهم حتىٰ أهلكوا، ولم يغن ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ حين جاءهم العذاب.

[٥١] ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ﴾ والسيئات في هذا الموضع: العقوبات، لأنها تسوء الإنسان وتحزنه، ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ فليسوا خيرا من أولئك، ولم يكتب لهم براءة في الزبر.

[٥٢] ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال، وزعموا - بجهلهم - أنه يدل علىٰ حسن حال صاحبه، أخبرهم تعالىٰ، أن رزقه، لا يدل علىٰ ذلك، وأنه ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده، سواء كان صالحا أو طالحا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ الرزق، أي: يضيقه علىٰ من يشاء، صالحا أو طالحا، فرزقه مشترك بين البرية، والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: بسط الرزق وقبضه، لعلمهم أن مرجع ذلك، عائد إلىٰ الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبيده، فقد يضيق عليهم الرزق لطفا بهم، لأنه لو بسطه لبغوا في الأرض، فيكون تعالىٰ مراعيا في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم، والله أعلم.

﴿۞قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزُّمَر]

[٥٣] يخبر تعالىٰ عباده المسرفين بسعة كرمه، ويحثهم علىٰ الإنابة قبل ألا يمكنهم ذلك فقال: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله، مخبرا للعباد عن ربهم: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علام الغيوب.

﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: لا تيأسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلىٰ التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين علىٰ العصيان، متزوِّدين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة علىٰ كرمه وجوده، واعلموا أنَّه يغفر الذنوب جميعا من الشرك، والقتل، والزنىٰ، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان، لا تنفكُّ ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، مالئة للموجود، تسح يداه من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم علىٰ العباد والفواضل في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة

سبقت الغضب وغلبته.

[٥٤] ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق علىٰ نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلىٰ الله تعالىٰ بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم إلىٰ هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم.

ولهذا أمر تعالىٰ بالإنابة إليه، والمبادرة إليها؛ فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ بقلوبكم ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ بجوارحكم، إذا أفردت الإنابة، دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما، كما في هذا الموضع، كان المعنىٰ ما ذكرنا.

وفي قوله ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ دليل علىٰ الإخلاص، وأنه من دون إخلاص، لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئا. ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ مجيئا لا يدفع ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

[٥٥] فكأنه قيل: ما هي الإنابة والإسلام؟ وما جزئياتها وأعمالها؟

فأجاب تعالىٰ بقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ مما أمركم من الأعمال الباطنة، كمحبة الله، وخشيته، وخوفه، ورجائه، والنصح لعباده، ومحبة الخير لهم، وترك ما يضاد ذلك.

ومن الأعمال الظاهرة، كالصلاة، والزكاة والصيام، والحج، والصدقة، وأنواع الإحسان، ونحو ذلك، مما أمر الله به، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، فالمتبع لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها هو المنيب المسلم، ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ وكل هذا حثٌّ علىٰ المبادرة وانتهاز الفرصة.

[٥٦] ثم حذرهم ﴿أَن﴾ لا يستمروا علىٰ غفلتهم، حتىٰ يأتيهم يوم يندمون فيه، ولا تنفع الندامة. و﴿تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في جانب حقه. ﴿وَإِن كُنتُ﴾ في الدنيا ﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ في إتيان الجزاء، حتىٰ رأيته عيانا.

[٥٧] ﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ و(لو) في هذا الموضع للتمني، أي: ليت أن الله هداني فأكون متقيا له، فأسلم من العقاب وأستحق الثواب، وليست (لو) هنا شرطية، لأنها لو كانت شرطية لكانوا محتجين بالقضاء والقدر علىٰ ضلالهم، وهو حجة باطلة، ويوم القيامة تضمحل كل حجة باطلة.

[٥٨] ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ﴾ وتجزم بوروده ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾؛ أي: رجعة إلىٰ الدنيا لكنت

﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

[٥٩] قال تعالىٰ: إن ذلك غير ممكن ولا مفيد، وإن هذه أماني باطلة لا حقيقة لها، إذ لا يتجدد للعبد لَوْ رُدَّ، بيان بعد البيان الأول.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ الدالة دلالة لا يمترىٰ فيها. علىٰ الحق ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ عن اتباعها ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فسؤال الرد إلىٰ الدنيا، نوع عبث، ﴿[وَلَوْ] رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزُّمَر]

[٦٠] يخبر تعالىٰ عن خزي ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟﴾ عليه، وأن وجوههم يوم القيامة ﴿مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾ كأنها الليل البهيم، يعرفهم بذلك أهل الموقف، فالحق أبلج واضح كأنه الصبح، فكما سوَّدوا وجه الحق بالكذب، سود الله وجوههم، جزاء من جنس عملهم.

فلهم سواد الوجوه، ولهم العذاب الشديد في جهنم، ولهذا قال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق، وعن عبادة ربهم، المفترين عليه؟ بلىٰ والله، إن فيها لعقوبة وخزيا وسخطا، يبلغ من المتكبّرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم بهما.

والكذب علىٰ الله يشمل الكذب عليه باتخاذ الشريك والولد والصاحبة، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء النبوة، أو القول في شرعه بما لم يقله، والإخبار بأنه قاله وشرعه.

[٦١] ولما ذكر حالة المتكبِّرين، ذكر حالة المتقين، فقال: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾؛ أي: بنجاتهم، وذلك لأنّ معهم آلة النجاة، [وهي] تقوىٰ الله تعالىٰ، التي هي العدة عند كل هول وشدة. ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾؛ أي: العذاب الذي يسوؤهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فنفىٰ عنهم مباشرة العذاب وخوفه، وهذا غاية الأمان؛ فلهم الأمن التام، يصحبهم حتىٰ يوصلهم إلىٰ دار السلام، فحينئذ يأمنون من كل سوء ومكروه، وتجري عليهم نضرة النعيم، ويقولون ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر].

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ [الزُّمَر]

[٦٢] يخبر تعالىٰ عن عظمته وكماله، الموجب لخسران من كفر به فقال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ﴾ هذه العبارة وما أشبهها، مما هو كثير في القرآن، تدل علىٰ أن جميع الأشياء - غير الله - مخلوقة، ففيها رد علىٰ كل من قال بقدم بعض المخلوقات، كالفلاسفة القائلين بقدم الأرض والسَّمٰوات، وكالقائلين بقدم الأرواح، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل، المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه.

وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة، لأن الكلام صفة المتكلم، والله تعالىٰ بأسمائه وصفاته أول ليس قبله شيء، فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها أنه مخلوق، من أعظم الجهل، فإنه تعالىٰ لم يزل بأسمائه وصفاته، ولم يحدث له صفة من صفاته، ولم يكن معطّلا عنها بوقت من الأوقات، والشاهد من هذا، أن الله تعالىٰ أخبر عن نفسه الكريمة أنه خالق لجميع العالم العلوي والسفلي، وأنه علىٰ كل شيء وكيل، والوكالة التامة لا بد فيها من علم الوكيل، بما كان وكيلا عليه، وإحاطته بتفاصيله، ومن قدرة تامة علىٰ ما هو وكيلٌ عليه، ليتمكن من التصرُّف فيه، ومن حفظ لما هو وكيل عليه، ومن حكمة، ومعرفة بوجوه التصرفات، ليصرّفها ويدبرها علىٰ ما هو الأليق، فلا تتم الوكالة إلا بذلك كله، فما نقص من ذلك، فهو نقصٌ فيها.

ومن المعلوم المتقرر، أن الله تعالىٰ منزَّه عن كل نقص في صفة من صفاته، فإخباره بأنه علىٰ كل شيء وكيل، يدل علىٰ إحاطة علمه بجميع الأشياء، وكمال قدرته علىٰ تدبيرها، وكمال تدبيره، وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها.

[٦٣] ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾؛ أي: مفاتيحها، علما وتدبيرا، فـ ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر] فلما بين من عظمته ما يقتضي أن تمتلئ القلوب له إجلالا وإكراما، ذكر حال من عكس القضية فلم يقدره حق قدره، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة علىٰ الحق اليقين والصراط المستقيم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ خسروا ما به تصلح القلوب من التأله والإخلاص لله، وما به تصلح الألسن من إشغالها بذكر الله، وما تصلح به الجوارح من طاعة الله، وتعوضوا عن ذلك كل مفسد للقلوب والأبدان، وخسروا جنات النعيم، وتعوضوا عنها بالعذاب الأليم.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ

أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزُّمَر]

[٦٤] ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين، الذين دعوك إلىٰ عبادة غير الله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾؛ أي: هذا الأمر صدر من جهلكم، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالىٰ الكامل من جميع الوجوه، مسدي جميع النعم، هو المستحق للعبادة، دون من كان ناقصا من كل وجه، لا ينفع ولا يضر، لم تأمروني بذلك.

وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال، مفسد للأحوال.

[٦٥] ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من جميع الأنبياء، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ هذا مفرد مضاف، يعم كل عمل، ففي نبوة جميع الأنبياء، أن الشرك محبط لجميع الأعمال، كما قال تعالىٰ في سورة الأنعام – لما عدد كثيرا من أنبيائه ورسله قال عنهم: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ دينك وآخرتك، فبالشرك تحبط الأعمال، ويستحق العقاب والنكال.

[٦٦] ثم قال: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ لما أخبر أن الجاهلين يأمرونه بالشرك، وأخبر عن شناعته، أمره بالإخلاص فقال: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾؛ أي: أخلص له العبادة وحده لا شريك له، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ لله علىٰ توفيق الله تعالىٰ، فكما أنه تعالىٰ يشكر علىٰ النعم الدنيوية، كصحة الجسم وعافيته، وحصول الرزق وغير ذلك، كذلك يشكر ويثنىٰ عليه بالنعم الدينية، كالتوفيق للإخلاص، والتقوىٰ، بل نعم الدين، هي النعم علىٰ الحقيقة، وفي تدبر أنها من الله تعالىٰ والشكر لله عليها، سلامة من آفة العجب التي تعرض لكثير من العاملين، بسبب جهلهم، وإلا فلو عرف العبد حقيقة الحال، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمَر]

[٦٧] يقول تعالىٰ: وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه؛ بل فعلوا ما يناقض ذلك، من إشراكهم به من هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا يملك من الأمر شيئا.

فسووا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السَّمٰوات - علىٰ سعتها وعظمها - مطويات بيمينه، فلا عظمه حق عظمته من سوَّىٰ به غيره، ولا أظلم منه.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ أي: تنزه وتعاظم عن شركهم به.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٧٠﴾ [الزُّمَر]

[٦٨] لما خوفهم تعالىٰ من عظمته، خوفهم بأحوال يوم القيامة، ورغَّبهم ورهَّبهم فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ وهو قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه، ومن أطلعه الله علىٰ علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، أحد الملائكة المقربين، وأحد حملة عرش الرحمن.

﴿فَصَعِقَ﴾؛ أي: غشي أو مات، علىٰ اختلاف القولين: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: كلهم، لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمها، وما يعلمون أنها مقدمة له. ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ ممن ثبته الله عند النفخة، فلم يصعق، كالشهداء أو بعضهم، وغيرهم. وهذه النفخة الأولىٰ، نفخة الصعق، ونفخة الفزع.

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ النفخة الثانية نفخة البعث ﴿فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾؛ أي: قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم، قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ ماذا يفعل الله بهم.

[٦٩] ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ علم من هذا، أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل، وهو كذلك، فإن الله أخبر أن الشمس تكوّر، والقمر يخسف، والنجوم تُنتثر، ويكون الناس في ظلمة، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها، عندما يتجلّىٰ وينزل للفصل بينهم، وذلك اليوم يجعل الله للخلق قوّة، وينشئهم نشأة يَقْوَوْنَ علىٰ ألَّا يحرقهم نوره، ويتمكنون أيضا من رؤيته، وإلا فنورُه تعالىٰ عظيم، لو كشفه، لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصرُه من خلقه.

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ أي: كتاب الأعمال وديوانه، وضع ونشر، ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات،

كما قال تعالىٰ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]، ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء].

﴿وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ليسألوا عن التبليغ، وعن أممهم، ويشهدوا عليهم، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ من الملائكة، والأعضاء والأرض، ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: العدل التام والقسط العظيم، لأنه حساب صادر ممن لا يظلم مثقال ذرة، ومن هو محيط بكل شيء، وكتابه الذي هو اللوح المحفوظ، محيط بكل ما عملوه، والحفظة الكرام، والذين لا يعصون ربهم، قد كتبت عليهم ما عملوه، وأعدل الشهداء قد شهدوا علىٰ ذلك الحكم، فحكم بذلك من يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب.

فيحصل حكم يقر به الخلق، ويعترفون لله بالحمد والعدل، ويعرفون به من عظمته وعلمه وحكمته ورحمته ما لم يخطُر بقلوبهم، ولا تعبِّر عنه ألسنتهم.

[٧٠] ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ [وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ]﴾.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزُّمَر]

[٧١] لما ذكر تعالىٰ حكمه بين عباده، الذين جمعهم في خلقه ورزقه وتدبيره، واجتماعهم في موقف القيامة، فرقهم تعالىٰ عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر، والتقوىٰ والفجور، فقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: سوقا عنيفا، يضربون بالسياط الموجعة، من الزبانية الغلاظ الشداد، إلىٰ شر محبس وأفظع موضع، وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء،

وزال عنها كل سرور، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣﴾ [الطور] أي: يدفعون إليها دفعا، وذلك لامتناعهم من دخولها.

ويساقون إليها ﴿زُمَرًاۖ﴾؛ أي: فرقا متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضا، ويبرأ بعضهم من بعض. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾؛ أي: وصلوا إلىٰ ساحتها ﴿فُتِحَتۡ﴾ لهم أي: لأجلهم ﴿أَبۡوَٰبُهَا﴾ لقدومهم وقِرًىٰ لنزولهم.

﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ مهنئين لهم بالشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي، وموبخين لهم علىٰ الأعمال التي أوصلتهم إلىٰ هذا المحل الفظيع: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾؛ أي: من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتتمكنون من التلقي عنهم، ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾ التي أرسلهم الله بها، الدالة علىٰ الحق اليقين بأوضح البراهين.

﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾؛ أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟

﴿قَالُواْ﴾ مقرّين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وحذرونا من هذا اليوم. ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب، التي هي لكل من كفر بآيات الله، وجحد ما جاءت به المرسلون، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

[٧٢] فـ ﴿قِيلَ﴾ لهم علىٰ وجه الإهانة والإذلال: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ أبدا، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا ينظرون. ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ أي: بئس المقر، النار مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا علىٰ الحق، فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل، والخزي.

[٧٣] ثم قال عن أهل الجنة: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ بتوحيده والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وفدا علىٰ النجائب ﴿إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾؛ أي: وصلوا لتلك الرحاب الرحيبة والمنازل الأنيقة، وهبَّ عليهم ريحها ونسيمها، وآن خلودها ونعيمها، ﴿وَفُتِحَتۡ﴾ لهم ﴿أَبۡوَٰبُهَا﴾ فتح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها. ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا﴾ تهنئة لهم وترحيبا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: سلام من كل آفة

وشر حالّ عليكم ﴿طِبۡتُمۡ﴾؛ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبته وخشيته، وألسنتكم بذكره، وجوارحكم بطاعته. ﴿فَـ﴾ بسبب طيبكم ﴿ٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾؛ لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون.

وقال في النار ﴿فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ وفي الجنة ﴿وَفُتِحَتۡ﴾ بالواو، إشارة إلىٰ أن أهل النار، بمجرد وصولهم إليها، فتحت لهم أبوابها من غير إنظار ولا إمهال، وليكون فتحها في وجوههم، وعلىٰ وصولهم، أعظم لحرها، وأشد لعذابها.

وأما الجنة، فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد، إلا من أتىٰ بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك، فيحتاجون لدخولها لشفاعة أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها؛ بل يستشفعون إلىٰ الله بمحمد ﷺ، حتىٰ يشفع، فيشفّعه الله تعالىٰ.

وفي الآيات دليل علىٰ أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، وهما الداران الخالصتان، اللتان لا يدخل فيهما إلا من استحقهما، بخلاف سائر الأمكنة والدور.

[٧٤] ﴿وَقَالُواْ﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم، حامدين ربهم علىٰ ما أولاهم ومنَّ عليهم وهداهم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾؛ أي: وعدنا الجنة علىٰ ألسنة رسله، إن آمنا وصلحنا، فوفّىٰ لنا بما وعدنا، وأنجز لنا ما منّانا. ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أي: أرض الجنة ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾؛ أي: ننزل منها أي مكان شئنا، ونتناول منها أي نعيم أردنا، ليس ممنوعا عنا شيء نريده، ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ الذين اجتهدوا بطاعة ربهم، في زمن قليل منقطع، فنالوا بذلك خيرا عظيما باقيا مستمرا.

وهذه الدار التي تستحق المدح علىٰ الحقيقة، التي يكرم الله فيها خواص خلقه، ورضيها الجواد الكريم لهم نزلًا وبنىٰ أعلاها وأحسنها، وغرسها بيده، وحشاها من رحمته وكرامته ما ببعضه يفرح الحزين، ويزول الكدر، ويتم الصّفاء.

[٧٥] ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾؛ أيها الرائي ذلك اليوم العظيم ﴿حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ أي: قد قاموا في خدمة ربهم، واجتمعوا حول عرشه، خاضعين لجلاله، معترفين بكماله، مستغرقين بجماله. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ﴾؛ أي: ينزّهونه عن كل ما لا يليق بجلاله، مما نسب إليه المشركون وما لم ينسبوا.

﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم﴾؛ أي: بين الأولين والآخرين من الخلق ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار،

ممن عليه الحق،﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لم يذكر القائل من هو، ليدل ذلك علىٰ أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته علىٰ ما قضىٰ به علىٰ أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة.

تم تفسير سورة الزمر بحمد الله وعونه.

٤٠- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُؤْمِنِ

مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۞ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۞﴾ [غافر]

[١-٣] يخبر تعالىٰ عن كتابه العظيم وبأنه صادر ومنزل من الله، المألوه المعبود، لكماله وانفراده بأفعاله، ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي قهر بعزته كل مخلوق ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ بكل شيء.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ للمذنبين ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ من التائبين، ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ علىٰ من تجرأ علىٰ الذنوب ولم يتب منها، ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾؛ أي: التفضل والإحسان الشامل.

فلما قرر ما قرر من كماله وكان ذلك موجبًا لأن يكون وحده المألوه الذي تخلص له الأعمال قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله الموصوف بهذه الأوصاف أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن، من المعاني.

فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله، وصفاته، وأفعاله، وهذه أسماء، وأوصاف، وأفعال.

وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة، فهي: من تعليم العليم لعباده.

وإما إخبار عن نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلىٰ ذلك، من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾.

وإما إخبار عن نقمه الشديدة، وعما يوجبها ويقتضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾.

وإما دعوة للمذنبين إلىٰ التوبة والإنابة، والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾.

وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية علىٰ ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوىٰ الله، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية علىٰ فسادها والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾.

وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۢ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٦﴾ [غافر]

[٤] يخبر تبارك وتعالىٰ أنه ما يجادل في آياته إلا الذين كفروا، والمراد بالمجادلة هنا: المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل؛ فهذا من صنيع الكفار، وأما المؤمنون فيخضعون لله للحق ليدحضوا به الباطل، ولا ينبغي للإنسان أن يغتر بحالة الإنسان الدنيوية، ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا دليل علىٰ محبته له وأنه علىٰ الحق؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾؛ أي: ترددهم فيها بأنواع التجارات والمكاسب؛ بل الواجب علىٰ العبد، أن يعتبر الناس بالحق، وينظر إلىٰ الحقائق الشرعية ويزن بها الناس، ولا يزن الحق بالناس، كما عليه من لا علم ولا عقل له.

[٥] ثم هدد من جادل بآيات الله ليبطلها، كما فعل من قبله من الأمم من ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾ وعاد ﴿وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾، الذين تحزبوا وتجمعوا علىٰ الحق ليبطلوه، وعلىٰ الباطل لينصروه، ﴿وَ﴾ أنه بلغت بهم الحال، وآل بهم التحزب إلىٰ أنه ﴿هَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۢ﴾ من الأمم ﴿بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾؛ أي: يقتلوه. وهذا أبلغ ما يكون للرسل الذين هم قادة أهل الخير الذين معهم الحق الصرف الذي لا شك فيه ولا اشتباه، همُّوا بقتلهم، فهل بعد هذا البغي والضلال والشقاء إلا العذاب العظيم الذي لا يخرجون منه؟ ولهذا قال في عقوبتهم الدنيوية والأخروية: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ﴾؛ أي: بسبب تكذيبهم وتحزبهم ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ كان أشد العقاب وأفظعه، إن هو إلا صيحة أو حاصب ينزل عليهم أو يأمر الأرض أن تأخذهم، أو البحر أن يغرقهم فإذا هم خامدون.

[٦] ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ أي: كما حقت علىٰ أولئك، حقت عليهم كلمة الضلال التي نشأت عنها كلمة العذاب، ولهذا قال: ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۞٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۞٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۞٩﴾ [غافر]

[٧] يخبر تعالىٰ عن كمال لطفه تعالىٰ بعباده المؤمنين، وما قيض لأسباب سعادتهم من الأسباب الخارجة عن قُدَرهم، من استغفار الملائكة المقربين لهم، ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم، وفي ضمن ذلك الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله، وقربهم من ربهم، وكثرة عبادتهم ونصحهم لعباد الله، لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾؛ أي: عرش الرحمن، الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها، وأقربها من الله تعالىٰ، الذي وسع الأرض والسَّمٰوات والكرسي، وهؤلاء الملائكة، قد وكلهم الله تعالىٰ بحمل عرشه العظيم، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم، واختيار الله لهم لحمل عرشه، وتقديمهم في الذكر، وقربهم منه، يدل علىٰ أنهم أفضل أجناس الملائكة عليهم السلام، قال تعالىٰ: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ۞١٧﴾[الحاقة].

﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ من الملائكة المقربين في المنزلة والفضيلة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالىٰ، وخصوصًا التسبيح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسبيح الله وتحميده، لأنها تنزيه له عن كون العبد يصرفها لغيره، وحمد له تعالىٰ، بل الحمد هو العبادة لله تعالىٰ، وأما قول العبد: "سبحان الله وبحمده" فهو داخل في ذلك وهو من جملة العبادات.

﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جدًّا، أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، فالمؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم.

ولما كانت المغفرة لها لوازم لا تتم إلا بها -غير ما يتبادر إلىٰ كثير من الأذهان، أن سؤالها وطلبها غايته مجرد مغفرة الذنوب- ذكر تعالىٰ صفة دعائهم لهم بالمغفرة، بذكر ما لا تتم إلا به، فقال: ﴿رَبَّنَا

﴿وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ فعلمك قد أحاط بكل شيء، لا يخفىٰ عليك خافية، ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ورحمتك وسعت كل شيء، فالكون علويه وسفليه قد امتلأ برحمة الله تعالىٰ ووسعتهم، ووصل إلىٰ ما وصل إليه خلقه.

﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ باتباع رسلك، بتوحيدك وطاعتك.

﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ أي: قهم العذاب نفسه، وقهم أسباب العذاب.

[٨] ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ علىٰ ألسنة رسلك ﴿وَمَن صَلَحَ﴾؛ أي: صلح بالإيمان والعمل الصالح ﴿مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ زوجاتهم وأزواجهن وأصحابهم ورفقائهم ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء، فبعزتك تغفر ذنوبهم، وتكشف عنهم المحذور، وتوصلهم بها إلىٰ كل خير ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا نسألك يا ربنا أمرا تقتضي حكمتك خلافه؛ بل من حكمتك التي أخبرت بها علىٰ ألسنة رسلك، واقتضاها فضلك، المغفرة للمؤمنين.

[٩] ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾؛ أي: الأعمال السيئة وجزاءها، لأنها تسوء صاحبها، ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾ لأن رحمتك لم تزل مستمرة علىٰ العباد، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم، فمن وقيته السيئات وفقته للحسنات وجزائها الحسن. ﴿وَذَٰلِكَ﴾؛ أي: زوال المحذور بوقاية السيئات، وحصول المحبوب بحصول الرحمة، ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز مثله، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه.

وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة كمال معرفتهم بربهم، والتوسل إلىٰ الله بأسمائه الحسنىٰ، التي يحب من عباده التوسل بها إليه، والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه، فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة، وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية التي علم الله نقصها واقتضاءها لما اقتضته من المعاصي، ونحو ذلك من المبادئ والأسباب التي قد أحاط الله بها علمًا توسلوا بالرحيم العليم.

وتضمن كمال أدبهم مع الله تعالىٰ بإقرارهم بربوبيته لهم الربوبية العامة والخاصة، وأنه ليس لهم من الأمر شيء وإنما دعاؤهم لربهم صدر من فقير بالذات من جميع الوجوه، لا يُدْلِي علىٰ ربه بحالة من الأحوال، إن هو إلا فضل الله وكرمه وإحسانه.

وتضمّن موافقتهم لربهم تمام الموافقة، بمحبة ما يحبه من الأعمال التي هي العبادات التي قاموا بها،

واجتهدوا اجتهاد المحبِّين، ومن العمال الذين هم المؤمنون الذين يحبهم الله تعالىٰ من بين خلقه، فسائر الخلق المكلفين يبغضهم الله إلا المؤمنين منهم، فمن محبة الملائكة لهم دعوا الله، واجتهدوا في صلاح أحوالهم، لأن الدعاء للشخص من أدل الدلائل علىٰ محبته، لأنه لا يدعو إلا لمن يحبه.

وتضمن ما شرحه الله وفصّله من دعائهم بعد قوله: ﴿[وَ]يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ التنبيه اللطيف علىٰ كيفية تدبر كتابه، وألَّا يكون المتدبر مقتصرًا علىٰ مجرد معنىٰ اللفظ بمفرده، بل ينبغي له أن يتدبر معنىٰ اللفظ، فإذا فهمه فهمًا صحيحًا علىٰ وجهه، نظر بعقله إلىٰ ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه وما لا يتم إلا به وما يتوقف عليه، وجزم بأن الله أراده، كما يجزم أنه أراد المعنىٰ الخاص، الدال عليه اللفظ.

والذي يوجب الجزم له بأن الله أراده أمران:

أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من توابع المعنىٰ والمتوقف عليه.

والثاني: علمه بأن الله بكل شيء عليم، وأن الله أمر عباده بالتدبر والتفكر في كتابه.

وقد علم تعالىٰ ما يلزم من تلك المعاني. وهو المخبر بأن كتابه هدىٰ ونور وتبيان لكل شيء، وأنه أفصح الكلام وأجله إيضاحًا، فبذلك يحصل للعبد من العلم العظيم والخير الكثير، بحسب ما وفقه الله له، وقد كان في تفسيرنا هذا، كثير من هذا من به الله علينا.

وقد يخفىٰ في بعض الآيات مأخذُه علىٰ غير المتأمل صحيح الفكرة، ونسأله تعالىٰ أن يفتح علينا من خزائن رحمته ما يكون سببًا لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين، فليس لنا إلا التعلق بكرمه، والتوسل بإحسانه، الذي لا نزال نتقلب فيه في كل الآنات، وفي جميع اللحظات، ونسأله من فضله، أن يقينا شر أنفسنا المانع والمعوق لوصول رحمته، إنه الكريم الوهاب، الذي تفضل بالأسباب ومسبباتها.

وتضمن ذلك، أن المقارن من زوج وولد وصاحب، يسعد بقرينه، ويكون اتصاله به سببًا لخير يحصل له، خارج عن عمله وسبب عمله كما كانت الملائكة تدعو للمؤمنين ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وقد يقال: إنه لا بد من وجود صلاحهم لقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ فحينئذ يكون ذلك من نتيجة عملهم والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ

﴿ٱلۡكَبِيرِ ١٢﴾ [غافر]

[١٠] يخبر تعالىٰ عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة، والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها، من الكفر بالله، أو بكتبه، أو برسله، أو باليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويقرون أنهم مستحقونها، لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك، ويقال لهم: ﴿لَمَقۡتُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إياكم ﴿إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ﴾؛ أي: حين دعتكم الرسل وأتباعهم إلىٰ الإيمان، وأقاموا لكم من البينات ما تبيَّن به الحق، فكفرتم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له، وخرجتم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم، فهذا ﴿أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ أي: فلم يزل هذا المقت مستمرًا عليكم، والسخط من الكريم حَالًّا بكم، حتىٰ آلت بكم الحال إلىٰ ما آلت، فاليوم حلَّ عليكم غضب الله وعقابه حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه.

[١١] فتمنوا الرجوع و﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ يريدون الموتة الأولىٰ وما بين النفختين علىٰ ما قيل أو العدم المحض قبل إيجادهم، ثم أماتهم بعدما أوجدهم، ﴿وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ الحياة الدنيا والحياة الأخرىٰ، ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾؛ أي: تحسروا وقالوا ذلك، فلم يفد ولم ينجع.

[١٢] ووبخوا علىٰ عدم فعل أسباب النجاة، فقيل لهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ﴾؛ أي: إذا دعي لتوحيده، وإخلاص العمل له، ونهي عن الشرك به ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾ به واشمأزت لذلك قلوبكم ونفرتم غاية النفور.

﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾؛ أي: هذا الذي أنزلكم هذا المنزل وبوأكم هذا المقيل والمحل، أنكم تكفرون بالإيمان، وتؤمنون بالكفر، ترضون بما هو شر وفساد في الدنيا والآخرة، وتكرهون ما هو خير وصلاح في الدنيا والآخرة.

تؤثرون سبب الشقاوة والذُّل والغضب وتزهدون بما هو سبب الفوز والفلاح والظفر ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف:١٤٦].

﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ العلي: الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر. ومن علو قدره كمال عدله تعالىٰ، وأنه يضع الأشياء مواضعها، ولا يساوي بين

المتقين والفجار.

﴿ٱلۡكَبِيرِ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة والمجد، في أسمائه وصفاته وأفعاله المتنزه عن كل آفة وعيب ونقص، فإذا كان الحكم له تعالىٰ، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم، فحكمه لا يغير ولا يبدل.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾ [غافر]

[١٣] يذكر تعالىٰ نعمه العظيمة علىٰ عباده، بتبيين الحق من الباطل، بما يُرِي عباده من آياته النفسية والآفاقية والقرآنية، الدالة علىٰ كل مطلوب مقصود، الموضحة للهدىٰ من الضلال، بحيث لا يبقىٰ عند الناظر فيها والمتأمل لها أدنىٰ شك في معرفة الحقائق، وهذا من أكبر نعمه علىٰ عباده، حيث لم يُبْقِ الحق مشتبهًا ولا الصواب ملتبسًا؛ بل نوَّع الدلالات ووضح الآيات، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة، وكلما كانت المسائل أجل وأكبر كانت الدلائل عليها أكثر وأيسر، فانظر إلىٰ التوحيد لما كانت مسألته من أكبر المسائل؛ بل أكبرها، كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية وتنوّعت، وضرب الله لها الأمثال وأكثر لها من الاستدلال، ولهذا ذكرها في هذا الموضع، ونبه علىٰ جملة من أدلتها؛ فقال: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

ولما ذكر أنه يُرِي عباده آياته، نبه علىٰ آية عظيمة فقال: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾؛ أي: مطرًا به ترزقون وتعيشون أنتم وبهائمكم، وذلك يدل علىٰ أن النعم كلها منه، فمنه نعم الدين، وهي المسائل الدينية والأدلة عليها، وما يتبع ذلك من العمل بها، والنعم الدنيوية كلها، كالنعم الناشئة عن الغيث، الذي تحيا به البلاد والعباد. وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود، الذي يتعين إخلاص الدِّين له، كما أنه وحده المنعم.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات حين يذكر بها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ إلىٰ الله تعالىٰ، بالإقبال علىٰ محبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه، فهذا الذي ينتفع بالآيات، وتصير رحمة في حقه، ويزداد بها بصيرة.

[١٤] ولما كانت الآيات تثمر التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص لله، رتب الأمر علىٰ ذلك بالفاء

الدالة علىٰ السببية فقال: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، والإخلاص معناه: تخليص القصد لله تعالىٰ في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق عباده. أي: أخلصوا لله تعالىٰ في كل ما تدينونه به وتتقربون به إليه.

﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ لذلك، فلا تبالوا بهم، ولا يثنكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم بالله لومة لائم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٥﴾ [الزُّمَر].

[١٥] ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له فقال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ أي: العلي الأعلىٰ، الذي استوىٰ علىٰ العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعًا باين به مخلوقاته، وارتفع به قدره، وجلّت أوصافه، وتعالت ذاته، أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الطاهر المطهر، وهو الإخلاص، الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه ويجعلهم فوق خلقه، ثم ذكر نعمته علىٰ عباده بالرسالة والوحي، فقال: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾؛ أي: الوحي الذي للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش، فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح، فهو تعالىٰ: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ الذي فيه نفع العباد ومصلحتهم.

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ وهم الرسل الذين فضلهم الله واختصهم الله لوحيه ودعوة عباده.

والفائدة في إرسال الرسل، هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهذا قال: ﴿لِيُنذِرَ﴾ من ألقىٰ الله إليه الوحي ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾؛ أي: يخوِّف العباد بذلك، ويحثهم علىٰ الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه.

وسماه ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم.

[١٦] ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾؛ أي: ظاهرون علىٰ الأرض، وقد اجتمعوا في صعيد واحد لا عوج ولا أمْت فيه، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر.

﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ﴾ لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال.

﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾؛ أي: من هو المالك لذلك اليوم العظيم الجامع للأولين والآخرين، أهل السَّمٰوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك، وتقطعت الأسباب، ولم يبق إلا الأعمال

الصالحة أو السيئة؟ الملك ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾؛ أي: المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. ﴿ٱلۡقَهَّارِ﴾ لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصًا في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذنه.

[١٧] ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾ في الدنيا، من خير وشر، قليل وكثير. ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ﴾ علىٰ أحد، بزيادة في سيئاته، أو نقص من حسناته. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ أي: لا تستبطئوا ذلك اليوم فإنه آت، وكل آت قريب. وهو أيضا سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة، لإحاطة علمه وكمال قدرته.

﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ١٨ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٢٠﴾ [غافر]

[١٨] يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾؛ أي: يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وآن الوصول إلىٰ أهوالها وقلاقلها وزلازلها، ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾؛ أي: قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواء، ووصلت القلوب من الروع والكرب إلىٰ الحناجر، شاخصة أبصارهم. ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا، وكاظمين علىٰ ما في قلوبهم من الروع الشديد والمزعجات الهائلة.

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ﴾؛ أي: قريب ولا صاحب، ﴿وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم، فالله تعالىٰ لا يرضىٰ شفاعتهم، فلا يقبلها.

[١٩] ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جليسه ومقارنه، وهو نظر المسارقة، ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فالله تعالىٰ يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولىٰ وأحرىٰ.

[٢٠] ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق وهو المحيط علمًا وكتابة وحفظا بجميع الأشياء، وهو المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القدري، الذي إذا شاء شيئًا كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين

والكافرين في الدنيا، ويفصل بينهم بفتح ينصر به أولياءه وأحبابه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، علىٰ تفنن الحاجات. [﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾] بما كان وما يكون، وما نبصر وما لا نبصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

قال في أول هاتين الآيتين ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ ثم وصفها بهذه الأوصاف المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم، لاشتمالها علىٰ الترغيب والترهيب.

﴿۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ [غافر]

[٢١-٢٢] يقول تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: بقلوبهم وأبدانهم سير نظر واعتبار، وتفكر في الآثار، ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من المكذبين، فسيجدونها شر العواقب، عاقبة الهلاك والدمار والخزي والفضيحة، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء في الْعَدَد والْعُدَد وكبر الأجسام. ﴿وَ﴾ أشد ﴿ءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من البناء والغرس، وقوة الآثار تدل علىٰ قوة المؤثر فيها وعلىٰ تمنعه بها. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بعقوبته بذنوبهم حين أصروا واستمروا عليها.

﴿إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فلم تغن قوتهم عند قوة الله شيئًا، بل من أعظم الأمم قوة، قوم عاد الذين قالوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فُصِّلَت:١٥] أرسل الله إليهم ريحا أضعفت قواهم، ودمرتهم كل تدمير.

ثم ذكر نموذجًا من أحوال المكذبين بالرسل وهو فرعون وجنوده فقال:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا

يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ
ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ
وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ
﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ
فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾
ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾
أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ
وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ
ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا
يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ
فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ
بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ
لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾
فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا
مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ
أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر]

[٢٣] أي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إلىٰ جنس هؤلاء المكذبين ﴿مُوسَىٰ﴾ ابن عمران، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ العظيمة، الدالة دلالة قطعية علىٰ حقيقة ما أرسل به، وبطلان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه. ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: حجة بينة، تتسلط علىٰ القلوب فتذعن لها، كالحية والعصا ونحوهما من الآيات البينات، التي أيد الله بها موسىٰ، ومكنه مما دعا إليه من الحق.

[٢٤] والمبعوث إليهم ﴿فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وزيره ﴿وَقَٰرُونَ﴾ الذي كان من قوم موسىٰ، فبغىٰ عليهم بماله، فكلهم ردوا عليه أشد الرد ﴿[فَـ]قَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

[٢٥] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا﴾ وأيده الله بالمعجزات الباهرة، الموجبة لتمام الإذعان، لم يقابلوها بذلك، ولم يكفهم مجرد الترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم، بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلىٰ أن ﴿قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ حيث كادوا هذه المكيدة، وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم، لم يقووا، وبقوا في رقهم وتحت عبوديتهم.

فما كيدهم إلا في ضلال، حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضد ما قصدوا، أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم.

قاعدة: وتدبر هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالىٰ: إذا كان السياق في قصة معينة أو علىٰ شيء معين، وأراد الله أن يحكم علىٰ ذلك المعين بحكم، لا يختص به؛ ذكر الحكم وعلقه علىٰ الوصف العام ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سيق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين. فلهذا لم يقل وما كيدهم إلا في ضلال؛ بل قال: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾.

[٢٦] ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ متكبرًا متجبرًا مغرِّرًا لقومه السفهاء: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ﴾؛ أي: زعم -قبحه الله- أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه منه دعاء ربه، ثم ذكر الحامل له علىٰ إرادة قتله، وأنه نصحٌ لقومه، وإزالة للشر في الأرض فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ الذي أنتم عليه ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق هذا من التمويه والترويج الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾[الزُّخرُف].

[٢٧] ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة التي أوجبها له طغيانه، واستعان فيها بقوته واقتداره، مستعينًا بربه: ﴿إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾؛ أي: امتنعت بربوبيته التي دبر بها جميع الأمور ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ أي: يحمله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب علىٰ الشر والفساد، يدخل فيه فرعون وغيره، كما تقدم قريبًا في القاعدة، فمنعه الله تعالىٰ بلطفه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقيض له من الأسباب ما اندفع به عنه شر فرعون وملئه.

[٢٨] ومن جملة الأسباب، هذا الرجل المؤمن، الذي من آل فرعون، من بيت المملكة، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة، وخصوصًا إذا كان يظهر موافقتهم ويكتم إيمانه، فإنهم يراعونه في الغالب ما لا يراعونه لو خالفهم في الظاهر، كما منع الله رسوله محمدًا ﷺ بعمه أبي طالب من قريش، حيث كان أبو

طالب كبيرًا عندهم، موافقًا لهم علىٰ دينهم، ولو كان مسلمًا لم يحصل منه ذلك المنع.

فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم، مقبِّحًا فعل قومه، وشناعة ما عزموا عليه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: كيف تستحلون قتله، وهذا ذنبه وجرمه، أنه يقول ربي الله، ولم يكن أيضا قولا مجردًا عن البينات، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لأن بينته اشتهرت عندهم اشتهارًا علِم به الصغير والكبير، أي: فهذا لا يوجب قتله.

فهلا أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرتم: هل يحل قتله إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته، واستعلىٰ برهانه، فبينكم وبين حل قتله مفاوز تنقطع بها أعناق المطي.

ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل، بأي حالة قدرت، فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾؛ أي: موسىٰ بين أمرين، إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذبًا فكذبه عليه، وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقًا وقد جاءكم بالبينات، وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذبكم الله عذابًا في الدنيا وعذابًا في الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا.

وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسىٰ، حيث أتىٰ بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائرًا بين تلك الحالتين، وعلىٰ كل تقدير فقتْلُه سفَهٌ وجهل منكم.

ثم انتقل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه وغفر له ورحمه إلىٰ أمر أعلىٰ من ذلك، وبيان قرب موسىٰ من الحق فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾؛ أي: متجاوز الحد بترك الحق والإقبال علىٰ الباطل. ﴿كَذَّابٌ﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلىٰ الله، فهذا لا يهديه الله إلىٰ طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله، ولا يوفق للصراط المستقيم، أي: وقد رأيتم ما دعا موسىٰ إليه من الحق، وما هداه الله إلىٰ بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية، فالذي اهتدىٰ هذا الهدىٰ لا يمكن أن يكون مسرفًا ولا كاذبًا، وهذا دليل علىٰ كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.

[٢٩] ثم حذَّر قومه ونصحهم، وخوفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: في الدنيا ﴿ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ علىٰ رعيتكم، تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير، فهبكم حصل لكم ذلك وتم، ولن يتم، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عذابه ﴿إِن

﴿جَآءَنَا﴾ ؟ وهذا من حسن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركًا بينه وبينهم بقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾ وقوله: ﴿إِن جَآءَنَا﴾ ليفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضىٰ لهم ما يرضىٰ لنفسه.

فـ ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ معارضًا له في ذلك، ومغررًا لقومه أن يتبعوا موسىٰ: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ وصدق في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ ولكن ما الذي رأىٰ؟

رأىٰ أن يستخف قومه فيتابعوه، ليقيم بهم رياسته، ولم ير الحق معه، بل رأىٰ الحق مع موسىٰ، وجحد به مستيقنًا له.

وكذب في قوله: ﴿[وَ]مَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعًا مجردًا علىٰ كفره وضلاله، لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق وفي اتباع الحق، اتباع الضلال.

[٣٠] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ مكررًا دعوة قومه غير آيس من هدايتهم، كما هي حالة الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ، لا يزالون يدعون إلىٰ ربهم، ولا يردهم عن ذلك راد، ولا يثنيهم عتو من دعوه عن تكرار الدعوة فقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ يعني الأمم المكذبين، الذين تحزبوا علىٰ أنبيائهم، واجتمعوا علىٰ معارضتهم.

[٣١] ثم بينهم فقال: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾؛ أي: مثل عادتهم في الكفر والتكذيب وعادة الله فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جرم أسلفوه.

[٣٢] ولما خوفهم العقوبات الدنيوية، خوفهم العقوبات الأخروية، فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾؛ أي: يوم القيامة، حين ينادي أهل الجنة أهل النار: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ [الأعراف:٤٤] إلىٰ آخر الآيات.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾ [الأعراف].

وحين ينادي أهل النار مالكًا ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ فيقول: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزُّخرُف] وحين ينادون ربهم: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧﴾ فيجيبهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾ [المؤمنون] وحين يقال للمشركين: ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾

[القصص:٦٤].

[٣٣] فخوفهم ﷺ هذا اليوم المهُول، وتوجع لهم أن أقاموا علىٰ شركهم بذلك، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾؛ أي: قد ذهب بكم إلىٰ النار ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۞ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۞﴾ [الطارق].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ لأن الهدىٰ بيد الله تعالىٰ، فإذا منع عبده الهدىٰ لعلمه أنه غير لائق به، لخبثه، فلا سبيل إلىٰ هدايته.

[٣٤] ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ بن يعقوب عليهما السلام ﴿مِن قَبْلُ﴾ إتيان موسىٰ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالة علىٰ صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له، ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ﴾ في حياته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ ازداد شككم وشرككم، و﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾؛ أي: هذا ظنكم الباطل، وحسبانكم الذي لا يليق بالله تعالىٰ، فإنه تعالىٰ لا يترك خلقه سدىٰ، لا يأمرهم وينهاهم، ويرسل إليهم رسله، وظن أن الله لا يرسل رسولا ظن ضلال، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ وهذا هو وصفهم الحقيقي الذي وصفوا به موسىٰ ظلمًا وعلوًّا، فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلىٰ الضلال، وهم الكذبة، حيث نسبوا ذلك إلىٰ الله، وكذبوا رسوله.

فالذي وصْفه السرف والكذب، لا ينفك عنهما= لا يهديه الله، ولا يوفقه للخير، لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله، بأن يمنعه الهدىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾[الصف:٥]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۞﴾ [الأنعام]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞﴾[البقرة].

[٣٥] ثم ذكر وصف المسرف الكذاب فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي بينت الحق من الباطل، وصارت -من ظهورها- بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها علىٰ وضوحها، ليدفعوها ويبطلوها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ﴾؛ أي: بغير حجّة وبرهان، وهذا وصف لازم لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطانٍ، لأنَّ الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي أصلا ﴿كَبُرَ﴾ ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل ﴿مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ فالله أشد بغضًا لصاحبه؛ لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمورٌ يشتد

بغض الله لها ولمن اتّصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون علىٰ ذلك أشدّ المقت موافقة لربهم، وهؤلاء خواص خلق الله تعالىٰ، فمقتهم دليلٌ علىٰ شناعة من مقتوه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كما طبع علىٰ قلوب آل فرعون ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ متكبر في نفسه علىٰ الحق برده وعلىٰ الخلق باحتقارهم، جبار بكثرة ظلمه وعدوانه.

[٣٦-٣٧] ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضًا لموسىٰ ومكذبًا له في دعوته إلىٰ الإقرار برب العالمين، الذي علىٰ العرش استوىٰ، وعلىٰ الخلق اعتلىٰ: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾؛ أي: بناء عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه لعلي أطلع ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ في دعواه أن لنا ربًا، وأنه فوق السَّمٰوات؛ ولكنه يريد أن يحتاط فرعون، ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالىٰ في بيان الذي حمله علىٰ هذا القول: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فزين له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسِّنه، حتىٰ رآه حسنًا ودعا إليه وناظر مناظرة المحقين، وهو من أعظم المفسدين، ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زُيِّن له. ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه محق، وأن موسىٰ مبطل ﴿إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾؛ أي: خسار وبوار، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

[٣٨] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ معيدًا نصيحته لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ لا كما يقول لكم فرعون، فإنَّه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد.

[٣٩] ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ يتمتع بها ويتنعم قليلا ثم تنقطع وتضمحل، فلا تغرنكم وتخدعنكم عما خلقتم له ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ التي هي محل الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار، فينبغي لكم أن تؤثروها، وتعملوا لها عملا يسعدكم فيها.

[٤٠] ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾؛ أي: لا يجازىٰ إلا بما يسوؤه ويحزنه لأن جزاء السيئة السوء.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ من أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: يعطون أجرهم بلا حد ولا عد، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.

[٤١] ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ بما قلت لكم ﴿وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بترك اتباع نبي الله موسىٰ عليه السلام.

[٤٢] ثم فسر ذلك؛ فقال: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ أنه يستحق أن يعبد من دون الله، والقول علىٰ الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها، ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي له القوة كلها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء. ﴿ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ الذي يسرف العباد علىٰ أنفسهم ويتجرؤون علىٰ مساخطه ثم إذا تابوا وأنابوا إليه، كفر عنهم السيئات والذنوب، ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والأخروية.

[٤٣] ﴿لَا جَرَمَ﴾؛ أي: حقًا يقينًا ﴿أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ أي: لا يستحق من الدعوة إليه، والحث علىٰ اللجأ إليه، في الدنيا ولا في الآخرة، لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعًا، ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة، ولا نشورًا.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالىٰ فسيجازي كل عامل بعمله، ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وهم الذين أسرفوا علىٰ أنفسهم بالتجرِّي علىٰ ربهم بمعاصيه والكفر به، دون غيرهم.

[٤٤] فلما نصحهم وحذرهم وأنذرهم ولم يطيعوه ولا وافقوه قال لهم:

﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾ من هذه النصيحة، وسترون مغبة عدم قبولها حين يحل بكم العقاب، وتحرمون جزيل الثواب.

﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: ألجأ إليه وأعتصم، وألقي أموري كلها لديه، وأتوكل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ يعلم [أحوالهم] وما يستحقون، يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته، فإن سلطكم عليَّ فبحكمة منه تعالىٰ، وعن إرادته ومشيئته صدر ذلك.

[٤٥-٤٦] ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾؛ أي: وقىٰ الله القويّ الرحيم ذلك الرجل المؤمن الموفق، عقوبات ما مكر فرعون وآله له، من إرادة إهلاكه وإتلافه؛ لأنه بادأهم بما يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسىٰ ﷺ، ودعاهم إلىٰ ما دعاهم إليه موسىٰ، وهذا أمر لا يحتملونه وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه، فأرادوا به كيدًا فحفظه الله من كيدهم ومكرهم وانقلب كيدهم ومكرهم، علىٰ أنفسهم، ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أغرقهم الله تعالىٰ في صبيحة واحدة عن آخرهم.

وفي البرزخ ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ

﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ فهذه العقوبات الشنيعة، التي تحل بالمكذبين لرسل الله، المعاندين لأمره.

﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ۝٤٨ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٩ قَالُوٓاْ أَوَ لَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ۝٥٠﴾ [غافر]

[٤٧] يخبر تعالىٰ عن تخاصم أهل النار، وعتاب بعضهم بعضًا واستغاثتهم بخزنة النار، وعدم الفائدة في ذلك فقال: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ يحتج التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين، ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾؛ أي: الأتباع للقادة ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ علىٰ الحق، ودعوهم إلىٰ ما استكبروا لأجله. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ أنتم أغويتمونا وأضللتمونا وزينتم لنا الشرك والشر، ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ولو قليلا.

[٤٨] ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ مبينين لعجزهم ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع: ﴿إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ وجعل لكلٍّ قسطه من العذاب، فلا يزاد في ذلك ولا ينقص منه، ولا يغير ما حكم به الحكيم.

[٤٩] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ﴾ من المستكبرين والضعفاء ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ لعله تحصل بعض الراحة.

[٥٠] فـ ﴿قَالُوٓاْ﴾ لهم موبِّخين ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم، ودعاءهم لا يفيدهم شيئًا: ﴿أَوَ لَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ التي تبينتم بها الحق والصراط المستقيم، وما يقرب من الله وما يبعد منه، ﴿قَالُواْ بَلَىٰۚ﴾ قد جاءونا بالبينات، وقامت علينا حجة الله البالغة فظلمنا وعاندنا الحق بعد ما تبين. ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: الخزنة لأهل النار، متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة: ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾ أنتم ولكن هذا الدعاء هل يغني شيئا أم لا؟

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾؛ أي: باطل لاغٍ؛ لأن الكفر محبط لجميع الأعمال صادّ لإجابة الدعاء.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ

﴿... مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾ [غافر]

[٥١] لما ذكر عقوبة آل فرعون في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وذكر حالة أهل النار الفظيعة، الذين نابذوا رسله وحاربوهم، قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: بالحجة والبرهان والنصر، وفي الآخرة بالحكم [لهم] ولأتباعهم بالثواب، ولمن حاربهم بشدة العذاب.

[٥٢] ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ﴾ حين يعتذرون ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾؛ أي: الدار السيئة التي تسوء نازليها.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٥٤ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ۝٥٥﴾ [غافر]

[٥٣-٥٤] لما ذكر ما جرىٰ لموسىٰ وفرعون، وما آل إليه أمر فرعون وجنوده، ثم ذكر الحكم العام الشامل له ولأهل النار، ذكر أنه أعطىٰ موسىٰ ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾؛ أي: الآيات، والعلم الذي يهتدي به المهتدون. ﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: جعلناه متوارثًا بينهم، من قرن إلىٰ آخر، وهو التوراة، وذلك الكتاب مشتمل علىٰ الهدىٰ الذي هو: العلم بالأحكام الشرعية وغيرها، وعلىٰ التذكر للخير بالترغيب فيه، وعن الشر بالترهيب عنه، وليس ذلك لكل أحد، وإنما هو ﴿لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

[٥٥] ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ يا أيها الرسول كما صبر من قبلك من أولي العزم المرسلين، ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾؛ أي: ليس مشكوكًا فيه، أو فيه ريب أو كذب، حتىٰ يعسر عليك الصبر، وإنما هو الحق المحض، والهدىٰ الصرف، الذي يصبر عليه الصابرون، ويجتهد في التمسك به أهل البصائر.

فقوله: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ من الأسباب التي تحث علىٰ الصبر علىٰ طاعة الله وعما يكره الله.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك، فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور، وبالتسبيح بحمد الله تعالىٰ خصوصًا ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ اللذين هما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيهما، لأن في ذلك عونًا علىٰ جميع الأمور.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝٥٦﴾ [غافر]

[٥٦] يخبر تعالىٰ أن من جادل في آياته ليبطلها بالباطل، بغير بينة من أمره ولا حجة، أن هذا صادر من كِبْر في صدورهم علىٰ الحق وعلىٰ من جاء به، يريدون الاستعلاء عليه بما معهم من الباطل، فهذا قصدهم ومرادهم.

ولكن هذا لا يتم لهم وليسوا ببالغيه، فهذا نص صريح، وبشارة، بأن كل من جادل الحق أنه مغلوب، وكل من تكبر عليه فهو في نهايته ذليل.

﴿فَٱسْتَعِذْ﴾؛ أي: اعتصم والجأ ﴿بِٱللَّهِۖ﴾ ولم يذكر ما يستعيذ منه، إرادة للعموم. أي: استعذ بالله من الكبر الذي يوجب التكبر علىٰ الحق، واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن، واستعذ بالله من جميع الشرور. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات علىٰ اختلافها، ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بجميع المرئيات، بأي محل وموضع وزمان كانت.

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٩﴾ [غافر]

[٥٧] يخبر تعالىٰ بما تقرر في العقول، أن خلق السَّمٰوات والأرض -علىٰ عظمهما وسعتهما- أعظم و﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾، فإن الناس بالنسبة إلىٰ خلق السَّمٰوات والأرض من أصغر ما يكون فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها، قادر علىٰ إعادة الناس بعد موتهم من باب أولىٰ وأحرىٰ.

وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة علىٰ البعث، دلالة قاطعة، بمجرد نظر العاقل إليها، يستدل بها استدلالًا لا يقبل الشك والشبهة بوقوع ما أخبرت به الرسل من البعث.

وليس كل أحد يجعل فكره لذلك، ويقبل بتدبره، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولذلك لا يعتبرون بذلك، ولا يجعلونه منهم علىٰ بال.

[٥٨] ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ﴾؛ أي: كما لا يستوي الأعمىٰ والبصير، كذلك لا يستوي من آمن بالله وعمل الصالحات، ومن كان مستكبرًا علىٰ عبادة ربه، مقدّمًا علىٰ معاصيه، ساعيًا في مساخطه، ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: تذكركم قليل وإلا فلو تذكرتم مراتب الأمور، ومنازل الخير والشر، والفرق بين الأبرار والفجار، وكانت لكم همة علية، لآثرتم النافع علىٰ الضار، والهدىٰ علىٰ الضلال، والسعادة الدائمة، علىٰ الدنيا الفانية.

[٥٩] ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ قد أخبرت بها الرسل الذين هم أصدق الخلق ونطقت بها الكتب السماوية، التي جميع أخبارها أعلىٰ مراتب الصدق، وقامت عليها الشواهد المرئية، والآيات الأفقية. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مع هذه الأمور، التي توجب كمال التصديق، والإذعان.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر]

[٦٠] هذا من لطفه بعباده، ونعمته العظيمة، حيث دعاهم إلىٰ ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وأمرهم بدعائه، دعاء العبادة، ودعاء المسألة، ووعدهم أن يستجيب لهم، وتوعد من استكبر عنها فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾؛ أي: ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة، جزاءً علىٰ استكبارهم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر]

تدبر هذه الآيات الكريمات، الدالة علىٰ سعة رحمة الله تعالىٰ وجزيل فضله، ووجوب شكره، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، وسعة ملكه، وعموم خلقه لجميع الأشياء، وكمال حياته، واتصافه بالحمد علىٰ كل ما اتصف به من الصفات الكاملة، وما فعله من الأفعال الحسنة، وتمام ربوبيته، وانفراده فيها، وأن جميع التدبير في العالم العلوي والسفلي في ماضي الأوقات وحاضرها، ومستقبلها بيد الله تعالىٰ، ليس لأحد من الأمر شيء، ولا من القدرة شيء، فينتج من ذلك، أنه تعالىٰ المألوه المعبود وحده، الذي لا يستحق أحد من العبودية شيئًا، كما لم يستحق من الربوبية شيئًا، وينتج من ذلك، امتلاء القلوب بمعرفة الله تعالىٰ ومحبته وخوفه ورجائه، وهذان الأمران -وهما معرفته وعبادته- هما اللذان خلق الله الخلق لأجلهما، وهما الغاية المقصودة منه تعالىٰ لعباده، وهما الموصلان إلىٰ كل خير وفلاح وصلاح، وسعادة دنيوية وأخروية، وهما اللذان هما أشرف عطايا الكريم لعباده، وهما أشرف اللذات علىٰ

الإطلاق، وهما اللذان إن فاتا، فات كل خير، وحضر كل شر.

فنسأله تعالىٰ أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبته، وأن يجعل حركاتنا الباطنة والظاهرة، خالصة لوجهه، تابعة لأمره، إنه لا يتعاظمه سؤال، ولا يحفيه نوال.

[٦١] فقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ﴾؛ أي: لأجلكم جعل الله الليل مظلمًا، ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ من حركاتكم، التي لو استمرت لضرت، فتأوون إلىٰ فرشكم، ويلقي الله عليكم النوم الذي يستريح به القلب والبدن، وهو من ضروريات الآدمي لا يعيش بدونه، ويسكن فيه أيضًا، كل حبيب إلىٰ حبيبه، ويجتمع الفكر، وتقل الشواغل.

﴿وَ﴾ جعل تعالىٰ ﴿ٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ منيرًا بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلىٰ أشغالكم الدينية والدنيوية، هذا لذكره وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراسته، وهذا لبيعه وشرائه، وهذا لبنائه أو حدادته، أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفره برًّا وبحرًا، وهذا لفلاحته، وهذا لتصليح حيواناته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ﴾؛ أي: عظيم، كما يدلُّ عليه التنكير ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها، وصرف عنهم النِّقم، وهذا يوجب عليهم، تمام شكره وذكره، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ بسبب جهلهم وظلمهم. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ] الذين يقرُّون بنعمة ربهم، ويخضعون لله، ويحبونه، ويصرفونها في طاعة مولاهم ورِضاه.

[٦٢] ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي فعل ما فعل ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾؛ أي: المنفرد بالإلهية، والمنفرد بالربوبية، لأن انفراده بهذه النعم، من ربوبيته، وإيجابها للشكر، من ألوهيته، ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ تقرير لربوبيته، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ تقرير أنه المستحق للعبادة وحده، لا شريك له.

ثم صرح بالأمر بعبادته فقال: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾؛ أي: كيف تصرفون عن عبادته، وحده لا شريك له، بعد ما أبان لكم الدليل، وأنار لكم السبيل؟

[٦٣] ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾؛ أي: عقوبة علىٰ جحدهم لآيات الله، وتعديهم علىٰ رسله، صرفوا عن التوحيد والإخلاص، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧﴾ [التوبة].

[٦٤] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾؛ أي: قارة ساكنة، مهيأة لكل مصالحكم، تتمكنون من حرثها وغرسها، والبناء عليها، والسفر، والإقامة فيها.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ سقفًا للأرض، [التي] أنتم فيها، قد جعل الله فيها ما تنتفعون به من الأنوار والعلامات، التي يهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فليس في جنس الحيوانات، أحسن صورة من بني آدم، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين].

وإذا أردت أن تعرف حسن الآدمي وكمال حكمة الله تعالىٰ فيه، فانظر إليه، عضوًا عضوًا، هل تجد عضوًا من أعضائه، يليق به، ويصلح أن يكون في غير محله؟ وانظر أيضًا، إلىٰ الميل الذي في القلوب، بعضهم لبعض، هل تجد ذلك في غير الآدمين؟ وانظر إلىٰ ما خصه الله به من العقل والإيمان، والمحبة والمعرفة، التي هي أحسن الأخلاق المناسبة لأجمل الصور.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ وهذا شامل لكل طيب، من مأكل، ومشرب، ومنكح، وملبس، ومنظر، ومسمع، وغير ذلك، من الطيبات التي يسرها الله لعباده، ويسر لهم أسبابها، ومنعهم من الخبائث، التي تضادها، وتضر أبدانهم، وقلوبهم، وأديانهم، ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي دبر الأمور، وأنعم عليكم بهذه النعم ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾؛ أي: تعاظم، وكثر خيره وإحسانه، المربي جميع العالمين بنعمه.

[٦٥] ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ الذي له الحياة الكاملة التامة، المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية، التي لا تتم حياته إلا بها، كالسمع، والبصر، والقدرة، والعلم، والكلام، وغير ذلك، من صفات كماله، ونعوت جلاله.

﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق، إلا وجهه الكريم. ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: اقصدوا بكل عبادة ودعاء وعمل= وجه الله تعالىٰ، فإن الإخلاص، هو المأمور به؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة:٥].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾؛ أي: جميع المحامد والمدائح والثناء بالقول؛ كنطق الخلق بذكره، والفعل؛ كعبادتهم له، كل ذلك لله تعالىٰ وحده لا شريك له، لكماله في أوصافه وأفعاله وتمام نعمه.

﴿۞قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٦ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦٧ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٦٨﴾ [غافر]

[٦٦] لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله وحده، وذكر الأدلة علىٰ ذلك والبينات، صرح بالنهي عن عبادة ما سواه فقال: ﴿قُلۡ﴾ يا أيها النبي ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأوثان والأصنام، وكل ما عبد من دون الله.

ولست علىٰ شك من أمري، بل علىٰ يقين وبصيرة، ولهذا قال: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بقلبي ولساني، وجوارحي، بحيث تكون منقادة لطاعته، مستسلمة لأمره، وهذا أعظم مأمور به، علىٰ الإطلاق، كما أن النهي عن عبادة ما سواه، أعظم مَنْهِيٍّ عنه، علىٰ الإطلاق.

[٦٧] ثم قرّر هذا التوحيد، بأنه الخالق لكم والمطور لخلقتكم، فكما خلقكم وحده، فاعبدوه وحده فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ وذلك بخلقة أصلكم وأبيكم آدم ﷺ. ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنساني، ما دام في بطن أمه، فنبه بالابتداء علىٰ بقية الأطوار، من العلقة، فالمضغة، فالعظام، فنفخ الروح، ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ ثم هكذا تنتقلون في الخلقة الإلهية حتىٰ ﴿تَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ من قوة العقل والبدن، وجميع قواه الظاهرة والباطنة.

﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾ بلوغ الأشد ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ﴾ بهذه الأطوار المقدرة إلىٰ أجلٍ ﴿مُّسَمّٗى﴾ تنتهي عنده أعماركم. ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أحوالكم، فتعلمون أن المطور لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأنكم ناقصون من كل وجه.

[٦٨] ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾؛ أي: هو المنفرد بالإحياء والإماتة، فلا تموت نفس بسبب أو بغير سبب، إلا بإذنه، ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١﴾ [فاطر]، ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ جليلا أو حقيرًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لا رد في ذلك، ولا مثنوية، ولا تمنع.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [غافر]

[٦٩] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الواضحة البينة متعجبًا من حالهم الشنيعة، ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾؛ أي: كيف ينعدلون عنها؟ وإلىٰ أي شيء يذهبون بعد البيان التام؟ هل يجدون آيات بينات تعارض آيات الله؟ لا والله. أم يجدون شبهًا توافق أهواءهم، ويصولون بها لأجل باطلهم؟

[٧٠-٧٢] فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم، بتكذيبهم بالكتاب، الذي جاءهم من الله، وبما أرسل الله به رسله، الذين هم خير الخلق وأصدقهم، وأعظمهم عقولا فهؤلاء لا جزاء لهم سوىٰ النار الحامية، ولهذا توعدهم الله بعذابها فقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ﴾ التي لا يستطيعون معها حركة. ﴿وَٱلسَّلَـٰسِلُ﴾ التي يقرنون بها، هم وشياطينهم ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ﴾؛ أي: الماء الذي اشتد غليانه وحره. ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يوقد عليهم اللهب العظيم، فيصلون بها، ثم يوبخون علىٰ شركهم وكذبهم.

[٧٣-٧٤] ويقال: ﴿لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هل نفعوكم، أو دفعوا عنكم بعض العذاب؟. ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾؛ أي: غابوا ولم يحضروا، ولو حضروا، لم ينفعوا، ثم إنهم أنكروا فقالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ يحتمل أن مرادهم بذلك الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم، ويحتمل -وهو الأظهر- أن مرادهم بذلك، الإقرار علىٰ بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون، بعبادة معدوم الإلهية، ويدل علىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾؛ أي: كذلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا، الضلال الواضح لكل أحد، حتىٰ إنهم بأنفسهم يقرون ببطلانه يوم القيامة، ويتبين لهم معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾[يونس:٦٦]، ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ

ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥] الآيات.

[٧٥] ويقال لأهل النار ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب الذي نوّع عليكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾؛ أي: تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه، وبالعلوم الذي خالفتم بها علوم الرسل وتمرحون علىٰ عباد الله بغيًا وعدوانًا، وظلمًا، وعصيانًا، كما قال تعالىٰ في آخر هذه السورة: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣]؛ وكما قال قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ [القصص]، وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب، بخلاف الفرح الممدوح الذي قال الله فيه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨] وهو الفرح بالعلم النافع، والعمل الصالح.

[٧٦] ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كل بطبقة من طبقاتها، علىٰ قدر عمله، ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ﴾ لا يخرجون منها أبدًا ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ مثوىٰ يخزون فيه، ويهانون، ويحبسون، ويعذبون، ويترددون بين حرها وزمهريرها.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٧٧﴾ [غافر]

[٧٧] أي ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا أيها الرسول، علىٰ دعوة قومك، وما ينالك منهم، من أذىٰ، واستعن علىٰ صبرك بإيمانك، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ﴾ سينصر دينه، ويُعْلِي كلمته، وينصر رسله في الدنيا والآخرة، واستعن علىٰ ذلك أيضًا، بتوقع العقوبة بأعدائك في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ في الدنيا فذاك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل عقوبتهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فنجازيهم بأعمالهم، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ﴾ [إبراهيم:٤٢] ثم سلاه وصبَّره، بذكر إخوانه المرسلين فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٧٨﴾ [غافر]

[٧٨] أي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ كثيرين إلىٰ قومهم، يدعونهم ويصبرون علىٰ أذاهم.

﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ خبرهم ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وكل الرسل مدبرون، ليس بيدهم شيء من الأمر.

وما كان لأحد منهم ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ من الآيات السمعية والعقلية ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ أي: بمشيئته وأمره، فاقتراح المقترح علىٰ الرسل الإتيان بالآيات، ظلم منهم، وتعنت، وتكذيب، بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة علىٰ صدقهم وصحة ما جاءوا به. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بالفصل بين الرسل وأعدائهم، والفتح. ﴿قُضِيَ﴾ بينهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي يقع الموقع، ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين، ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾؛ أي: وقت القضاء المذكور ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ الذين وصفهم الباطل، وما جاءوا به من العلم والعمل، باطل، وغايتهم المقصودة لهم، باطلة، فَلْيَحْذَر هؤلاء المخاطبون، أن يستمروا علىٰ باطلهم، فيخسروا، كما خسر أولئك، فإن هؤلاء لا خير منهم، ولا لهم براءة في الكتب بالنجاة.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [غافر]

[٧٩-٨٠] يمتن تعالىٰ علىٰ عباده، بما جعل لهم من الأنعام، التي بها، جملة من الإنعام:

منها: منافع الركوب عليها، والحمل.

ومنها: منافع الأكل من لحومها، والشرب من ألبانها.

ومنها: منافع الدفء، واتخاذ الآلات والأمتعة، من أصوافها، وأوبارها وأشعارها.

إلىٰ غير ذلك من المنافع.

﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ من الوصول إلىٰ الأوطان البعيدة، وحصول السرور بها، والفرح عند أهلها. ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾؛ أي: علىٰ الرواحل البرية، والفلك البحرية، يحملكم الله الذي سخرها، وهيأ لها ما هيأ، من الأسباب، التي لا تتم إلا بها.

[٨١] ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالة علىٰ وحدانيته، وأسمائه، وصفاته، وهذا من أكبر نعمه، حيث أشهد عباده، آياته النفسية، وآياته الأفقية، ونعمه الباهرة، وعدَّدها عليهم، ليعرفوه، ويشكروه، ويذكروه ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾؛ أي: أي آية من آياته لا تعترفون بها؟ فإنكم، قد تقرر عندكم، أن جميع الآيات

والنعم، منه تعالىٰ، فلم يبق للإنكار محل، ولا للإعراض عنها موضع، بل أوجبت لذوي الألباب، بذل الجهد، واستفراغ الوسع، للاجتهاد في طاعته، والتبتل في خدمته، والانقطاع إليه.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر]

[٨٢] يحث تعالىٰ، المكذبين لرسولهم، علىٰ السير في الأرض، بأبدانهم، وقلوبهم: وسؤال العالمين.

﴿فَيَنظُرُوا۟﴾ نظر فكر واستدلال، لا نظر غفلة وإهمال.

﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ من الأمم السالفة، كعاد، وثمود وغيرهم، ممن كانوا أعظم منهم قوة وأكثر أموالا وأشد آثارًا في الأرض من الأبنية الحصينة، والغراس الأنيقة، والزروع الكثيرة ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ حين جاءهم أمر الله، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا افتدوا بأموالهم، ولا تحصّنوا بحصونهم.

[٨٣] ثم ذكر جرمهم الكبير فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ من الكتب الإلهية، والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبين، للهدي من الضلال، والحق من الباطل ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ المناقض لدين الرسل.

ومن المعلوم، أن فرحهم به، يدل علىٰ شدة رضاهم به، وتمسكهم، ومعاداة الحق، الذي جاءت به الرسل، وجعل باطلهم حقًّا، وهذا عام لجميع العلوم، التي نوقض بها، ما جاءت به الرسل، ومن أحقها بالدخول في هذا، علوم الفلسفة، والمنطق اليوناني، الذي رُدَّت به كثير من آيات القرآن، ونقصت قدره في القلوب، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة، أدلة لفظية، لا تفيد شيئًا من اليقين، ويقدم عليها عقول أهل السفه والباطل، وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله، والمعارضة لها، والمناقضة، فالله المستعان.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ أي: نزل ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من العذاب.

[٨٤] ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾؛ أي: عذابنا، أقروا حيث لا ينفعهم الإقرار ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ من الأصنام والأوثان، وتبرأنا من كل ما خالف الرسل، من علم أو عمل.

[٨٥] ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾؛ أي: في تلك الحال، وهذه ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ وعادته ﴿ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ أن المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا، كان إيمانهم غير صحيح، ولا منجيًا لهم من العذاب، وذلك لأنه إيمان ضرورة، قد اضطروا إليه، وإيمان مشاهدة، وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه، هو الإيمان الاختياري، الذي يكون إيمانًا بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾؛ أي: وقت الإهلاك، وإذاقة البأس ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ دينهم ودنياهم وأخراهم، ولا يكفي مجرد الخسارة، في تلك الدار، بل لا بد من خسران يشقي في العذاب الشديد، والخلود فيه، دائما أبدًا.

تم تفسير سورة المؤمن بحمد الله ولطفه ومعونته،

لا بحولنا وقوتنا، فله الشكر والثناء.

٤١- تَفْسِيرُ سُورَةِ السَّجْدَةِ

وَهِي مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾ [فُصِّلَت]

[٢] يخبر تعالىٰ عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل ﴿تَنزِيلٞ﴾ صادر ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من أعظم رحمته وأجلها، إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من العلم والهدىٰ، والنور، والشفاء، والرحمة، والخير الكثير= ما هو من أجل نعمه علىٰ العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين.

[٣] ثم أثنىٰ علىٰ الكتاب بتمام البيان فقال: ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي: فصل كل شيء من أنواعه علىٰ حدته، وهذا يستلزم البيان التام، والتفريق بين كل شيء، وتمييز الحقائق، ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾؛ أي: باللغة الفصحىٰ أكمل اللغات، فصلت آياته وجعل عربيًا. ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: لأجل أن يتبين لهم معناه، كما تبين لفظه، ويتضح لهم الهدىٰ من الضلال، والْغَيُّ من الرشاد.

وأما الجاهلون الذين لا يزيدهم الهدىٰ إلا ضلالا ولا البيان إلا عَمًىٰ فهؤلاء لم يُسَقِ الكلام لأجلهم، و﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة].

[٤] ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾؛ أي: بشيرًا بالثواب العاجل والآجل، ونذيرًا بالعقاب العاجل والآجل، وذكر تفصيلهما، وذكر الأسباب والأوصاف التي تحصل بها البشارة والنذارة، وهذه الأوصاف للكتاب، مما يوجب أن يُتَلَقَّىٰ بالقبول، والإذعان، والإيمان، والعمل به؛ ولكن أعرض أكثر الخلق عنه إعراض

المستكبرين، ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعًا، تقوم عليهم به الحجة الشرعية.

[٥] ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: هؤلاء المعرضون عنه، مبينين عدم انتفاعهم به، بسد الأبواب الموصلة إليه: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾؛ أي: أغطية مغشاة ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾؛ أي: صمم فلا نسمع لك ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ فلا نراك.

القصد من ذلك: أنهم أظهروا الإعراض عنه، من كل وجه، وأظهروا بغضه، والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾؛ أي: كما رضيت بالعمل بدينك، فإننا راضون كل الرضا، بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضلال عن الهدىٰ، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا.

[٦-٧] ﴿قُلۡ﴾ لهم يا أيها النبي: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ أي: هذه صفتي ووظيفتي، أني بشر مثلكم، ليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به، وإنما فضلني الله عليكم، وميَّزني، وخصَّني، بالوحي الذي أوحاه إليَّ وأمرني باتباعه، ودعوتكم إليه.

﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾؛ أي: اسلكوا الصراط الموصل إلىٰ الله تعالىٰ، بتصديق الخبر الذي أخبر به، واتباع الأمر، واجتناب النهي، هذه حقيقة الاستقامة، ثم الدوام علىٰ ذلك، وفي قوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾ تنبيه علىٰ الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصوده وغايته، التي يعمل لأجلها: الوصول إلىٰ الله، وإلىٰ دار كرامته، فبذلك يكون عمله خالصًا صالحًا نافعًا، وبفواته يكون عمله باطلا.

ولما كان العبد، -ولو حرص علىٰ الاستقامة- لا بد أن يحصل منه خلل بتقصير بمأمور، أو ارتكاب منهي، أمره بدواء ذلك بالاستغفار المتضمن للتوبة؛ فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ ثم توَّعد من ترك الاستقامة فقال: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: الذين عبدوا من دونه من لا يملك نفعًا ،ولا ضرًّا، ولا موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا ودسّوا أنفسهم، فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يصلوا ولا زكوا، فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للخلق بالزكاة وغيرها، ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا بالجنة والنار، فلذلك لما زال الخوف من قلوبهم، أقدموا علىٰ ما أقدموا عليه، مما يضرهم في الآخرة.

[٨] ولما ذكر الكافرين، ذكر المؤمنين، ووصفهم وجزاءهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بهذا الكتاب،

وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص، والمتابعة، ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾؛ أي: عظيم ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: غير مقطوع ولا نافد؛ بل هو مستمر مدىٰ الأوقات، متزايد علىٰ الساعات، مشتمل علىٰ جميع اللذات والمشتهيات.

﴿۞قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فُصِّلَت]

[٩-١٠] ينكر تعالىٰ ويَعَجَّب، من كفر الكافرين به، الذين جعلوا معه أندادا يشركونهم معه، ويبذلون لهم ما يشاؤون من عباداتهم، ويسوونهم بالرب العظيم، الملك الكريم، الذي خلق الأرض الكثيفة العظيمة، في يومين، ثم دحاها في يومين، بأن جعل فيها رواسي من فوقها، ترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار.

فكمل خلقها، ودحاها، وأخرج أقواتها، وتوابع ذلك ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ عن ذلك، فلا ينبئك مثل خبير، فهذا الخبر الصادق الذي لا زيادة فيه ولا نقص.

[١١] ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن خلق الأرض ﴿اسْتَوَىٰ﴾؛ أي: قصد ﴿إِلَى﴾ خلق ﴿السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ قد ثار علىٰ وجه الماء، ﴿فَقَالَ لَهَا﴾ ولما كان هذا التخصيص يوهم الاختصاص، عطف عليه بقوله: ﴿وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾؛ أي: انقادا لأمري، طائعتين أو مكرهتين، فلا بد من نفوذه، ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾؛ أي: ليس لنا إرادة تخالف إرادتك.

[١٢] ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فَتَمَّ خلق السَّمٰوات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، مع أن قدرة الله ومشيئته صالحة لخلق الجميع في لحظة واحدة، ولكن مع أنه قدير، فهو حكيم رفيق، فمن حكمته ورفقه، أن جعل خلقها في هذه المدة المقدرة.

واعلم أن ظاهر هذه الآية، مع قوله تعالىٰ في النازعات، لما ذكر خلق السَّمٰوات قال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات] يظهر منهما التعارض، مع أن كتاب الله، لا تعارض فيه ولا اختلاف.

والجواب عن ذلك، ما قاله كثير من السلف: أن خلق الأرض وصورتها متقدم علىٰ خلق السَّمٰوات

كما هنا، ودحي الأرض بأن ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝﴾ [النازعات] متأخر علىٰ خلق السَّمٰوات كما في سورة النازعات، ولهذا قال فيها: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ [النازعات] إلىٰ آخره ولم يقل: "والأرض بعد ذلك خلقها".

وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾؛ أي: الأمر والتدبير اللائق بها، الذي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ هي: النجوم، يستنار، بها، ويهتدىٰ، وتكون زينة وجمالا للسماء ظاهرًا، وجمالا لها باطنًا؛ بجعلها رجومًا للشياطين، لئلا يسترق السمع فيها. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور، من الأرض وما فيها، والسماء وما فيها ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ الذي عزته، قهر بها الأشياء ودبرها، وخلق بها المخلوقات. ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ الذي أحاط علمه بالمخلوقات، الغائب والشاهد.

فَتَرْكُ المشركين الإخلاص لهذا الرب العظيم الواحد القهار، الذي انقادت المخلوقات لأمره ونفذ فيها قدره، من أعجب الأشياء، واتخاذهم له أندادًا يسوونهم به، وهم ناقصون في أوصافهم وأفعالهم، أعجب، وأعجب، ولا دواء لهؤلاء، إن استمر إعراضهم، إلا العقوبات الدنيوية والأخروية، فلهذا خوفهم بقوله.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝﴾ [فُصِّلَت]

[١٣-١٤] أي: فإن أعرض هؤلاء المكذبون بعد ما بين لهم من أوصاف القرآن الحميدة، ومن صفات الإله العظيم ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾؛ أي: عذابًا يستأصلكم ويجتاحكم، ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ القبيلتين المعروفتين، حيث اجتاحهم العذاب، وحل عليهم، وبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم، حيث ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: يتبع بعضهم بعضا متوالين، ودعوتهم جميعا واحدة، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ أي: يأمرونهم بالإخلاص لله، وينهونهم عن الشرك، فردوا رسالتهم وكذبوهم، و﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾؛ أي: وأما أنتم فبشر مثلنا ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وهذه الشبهة لم تزل متوارثة بين المكذبين [بالأمم] وهي من أوهىٰ الشُّبَهِ، فإنه ليس من شرط الإرسال، أن يكون المرسل مَلَكًا، وإنما شرط الرسالة، أن يأتي الرسول بما يدل علىٰ صدقه،

فَلْيَقْدَحُوا، إن استطاعوا بصدقهم، بقادح عقلي أو شرعي، ولن يستطيعوا إلىٰ ذلك سبيلا.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فُصِّلَت]

هذا تفصيل لقصة هاتين الأمتين: عاد، وثمود.

[١٥] ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ فكانوا -مع كفرهم بالله، وجحدهم بآيات الله، وكفرهم برسله- مستكبرين ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قاهرين لمن حولهم من العباد، ظالمين لهم، قد أعجبتهم قوتهم. ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال تعالىٰ ردًا عليهم، بما يعرفه كل أحد: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فلولا خلقه إياهم، لم يوجدوا فلو نظروا إلىٰ هذه الحال نظرًا صحيحًا لم يغتروا بقوتهم.

[١٦] فعاقبهم الله عقوبة، تناسب قوتهم، التي اغتروا بها ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾؛ أي: ريحًا عظيمة، من قوتها وشدتها، لها صوت مزعج، كالرعد القاصف. فسخرها الله ﴿عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة]، ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ فدمرتهم وأهلكتهم، ﴿ فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:25]، وقال هنا: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي اختزوا به وافتضحوا بين الخليقة، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا يمنعون من عذاب الله، ولا ينفعون أنفسهم.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فُصِّلَت]

[١٧] ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ وهم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحجر وحواليه، الذين أرسل الله إليهم صالحًا عليه السلام يدعوهم إلىٰ توحيد ربهم، وينهاهم عن الشرك وآتاهم الله الناقة آية عظيمة، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، يشربون لبنها يومًا ويشربون من الماء يومًا، وليسوا ينفقون عليها؛ بل تأكل من أرض الله، ولهذا قال هنا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: هداية بيان، وإنما نص عليهم، وإن كان جميع الأمم المهلكة، قد قامت عليهم الحجة، وحصل لهم البيان؛ لأن آية ثمود آية باهرة، قد رآها صغيرهم

وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وكانت آية مبصرة، فلهذا خصهم بزيادة البيان والهدىٰ.

ولكنهم -من ظلمهم وشرهم- استحبوا ﴿ٱلۡعَمَىٰ﴾ -الذي هو الكفر والضلال- ﴿عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ -الذي هو: العلم والإيمان- فأخذهم ﴿ ٱلۡعَذَابِ ﴾ ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ لا ظلمًا من الله لهم.

[١٨] ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي نجىٰ الله صالحًا ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك، والمعاصي.

﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾ [فُصِّلَت]

[١٩] يخبر تعالىٰ عن أعدائه، الذين بارزوه بالكفر به وبآياته، وتكذيب رسله ومعاداتهم ومحاربتهم، وحالهم الشنيعة حين يحشرون، أي: يجمعون. ﴿إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾؛ أي: يرد أولهم علىٰ آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقا عنيفًا، لا يستطيعون امتناعًا، ولا ينصرون أنفسهم، ولا هم ينصرون.

[٢٠] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾؛ أي: حتىٰ إذا وردوا علىٰ النار، وأرادوا الإنكار، أو أنكروا ما عملوه من المعاصي، ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾ عموم بعد خصوص. ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: شهد عليهم كل عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا، يوم كذا وكذا. وخص هذه الأعضاء الثلاثة، لأن أكثر الذنوب، إنما تقع بها، أو بسببها.

[٢١] فإذا شهدت عليهم عاتبوها، ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ﴾ هذا دليل علىٰ أن الشهادة تقع من كل عضو كما ذكرنا: ﴿لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ﴾ ونحن نداقع عنكن؟ ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الذي لا يستعصي أحد عن مشيئته.

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ فكما خلقكم بذواتكم، وأجسامكم، خلق أيضا صفاتكم، ومن ذلك، الإنطاق. ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ في الآخرة، فيجزيكم بما عملتم، ويحتمل أن المراد بذلك، الاستدلال علىٰ

البعث بالخلق الأول، كما هو طريقة القرآن.

[٢٢] ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾؛ أي: وما كنتم تختفون عن شهادة أعضائكم عليكم، ولا تحاذرون من ذلك. ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ﴾ بإقدامكم علىٰ المعاصي ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر.

[٢٣] وهذا الظن، صار سبب هلاكهم وشقائهم ولهذا قال: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ الظن السيئ، حيث ظننتم به، ما لا يليق بجلاله، ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾؛ أي: أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لأنفسهم وأهليهم وأديانهم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم، فحقت عليكم كلمة العقاب والشقاء، ووجب عليكم الخلود الدائم، في العذاب، الذي لا يُفَتَّر عنهم ساعة.

[٢٤] ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ فلا جَلَدَ عليها، ولا صبر، وكل حالة قُدِّر إمكان الصبر عليها، فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر علىٰ نار قد اشتد حرها، وزادت علىٰ نار الدنيا، بسبعين ضعفًا، وعظم غليان حميمها، وزاد نتن صديدها، وتضاعف برد زمهريرها وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكبرت مقامعها، وغلظ خُزَّانها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم، وختام ذلك سخط الجبار، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون].

﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾؛ أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتب، ويرجعوا إلىٰ الدنيا، ليستأنفوا العمل. ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ لأنه ذهب وقته، وعمروا، ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النذير وانقطعت حجتهم، مع أن استعتابهم، كذب منهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام].

﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فُصِّلَت]

[٢٥] أي: ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قُرَنَآءَ﴾ من الشياطين، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم] أي: تزعجهم إلىٰ المعاصي وتحثهم عليها، بسبب ما زينوا ﴿لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فالدنيا زخرفوها بأعينهم، ودعوهم إلىٰ لذاتها وشهواتها المحرمة حتىٰ افتتنوا، فأقدموا علىٰ معاصي الله، وسلكوا ما شاءوا من محاربة الله ورسوله والآخرة بَعّدُوها عليهم وأنسوهم ذكرها، وربما أوقعوا عليهم الشُّبه، بعدم وقوعها، فترحَّل خوفها من قلوبهم، فقادوهم إلىٰ الكفر، والبدع، والمعاصي.

وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذبين الشياطين، بسبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته، وجحودهم الحق؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزُّخرُف].

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: وجب عليهم، ونزل القضاء والقدر بعذابهم ﴿فِىٓ﴾ جملة ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ لأديانهم وآخرتهم، ومن خسر فلا بد أن يذل ويشقىٰ ويعذب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فُصِّلَت]

[٢٦] يخبر تعالىٰ عن إعراض الكفار عن القرآن، وتواصيهم بذلك، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا، أو تُصغوا إليه ولا إلىٰ من جاء به، فإن اتفق أنكم سمعتموه، أو سمعتم الدعوة إلىٰ أحكامه، فـ ﴿ٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾؛ أي: تكلموا بالكلام الذي لا فائدة فيه؛ بل فيه المضرة، ولا تمكنوا -مع قدرتكم- أحدًا يملك عليكم الكلام به، وتلاوة ألفاظه ومعانيه، هذا لسان حالهم، ولسان مقالهم في الإعراض عن هذا القرآن، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿تَغْلِبُونَ﴾ [وهذا] شهادة من الأعداء، وأوضح الحق، ما شهدت به الأعداء، فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلا في حال الإعراض عنه والتواصي بذلك، ومفهوم كلامهم، أنهم إن لم يلغوا فيه؛ بل استمعوا إليه، وألقوا أذهانهم أنهم لا يغلبون، فإن الحق، غالب غير مغلوب، يعرف هذا، أصحاب الحق وأعداؤه.

[٢٧] ولما كان هذا ظلمًا منهم وعنادًا، لم يبق فيهم مطمع للهداية، فلم يبق إلا عذابهم ونكالهم، ولهذا قال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهو الكفر والمعاصي، فإنها أسوأ ما كانوا يعملون، لكونهم يعملون المعاصي وغيرها، فالجزاء بالعقوبة إنما هو علىٰ عمل الشرك ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف].

[٢٨] ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ الذين حاربوه وحاربوا أولياءه بالكفر والتكذيب والمجادلة

والمجالدة، ﴿ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾؛ أي: الخلود الدائم، الذي لا يفتّر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينصرون، وذلك ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ فإنها آيات واضحة، وأدلة قاطعة مفيدة لليقين، فأعظم الظلم وأكبر العناد، جحدها، والكفر بها.

[٢٩] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: الأتباع منهم، بدليل ما بعده، علىٰ وجه الحنق، علىٰ من أضلهم: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾؛ أي: الصنفين اللذين قادانا إلىٰ الضلال والعذاب، من شياطين الجن، وشياطين الإنس، الدعاة إلىٰ جهنم.

﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾؛ أي: الأذلين المهانين كما أضلونا، وفتنونا، وصاروا سببًا لنزولنا؛ ففي هذا، بيان حنق بعضهم علىٰ بعض، وتبرِّي بعضهم من بعض.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢﴾ [فُصِّلَت]

[٣٠] يخبر تعالىٰ عن أوليائه، وفي ضمن ذلك، تنشيطهم والحث علىٰ الاقتداء بهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾؛ أي: اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالىٰ، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا علىٰ الصراط المستقيم علمًا وعملا فلهم البشرىٰ في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الكرام، أي: يتكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار، ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ علىٰ ما يستقبل من أمركم، ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ علىٰ ما مضىٰ، فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل، ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولا.

[٣١] ويقولون لهم أيضا - مثبتين لهم ومبشرين: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ يحثونهم في الدنيا علىٰ الخير، ويزينونه لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصًا عند الموت وشدته، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها، وعلىٰ الصراط، وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم، ويدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد]؛ ويقولون لهم أيضا: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾ قد أعد وهيئ. ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾؛ أي: تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ

قلب بشر.

[٣٢] ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾؛ أي: هذا الثواب الجزيل، والنعيم المقيم، نزلٌ وضيافة ﴿مِّنْ غَفُورٍ﴾ غفر لكم السيئات، ﴿رَّحِيمٍ﴾ حيث وفقكم لفعل الحسنات، ثم قبلها منكم؛ فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته، أنالكم المطلوب.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فُصِّلَت]

[٣٣] هذا استفهام بمعنىٰ النفي المتقرر؛ أي: لا أحد ﴿أَحْسَنُ قَوْلًا﴾؛ أي: كلامًا وطريقة وحالة ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين، بالأمر بعبادة الله، بجميع أنواعها، والحث عليها، وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهىٰ الله عنه، وتقبيحه بكل طريق يوجب تركه، خصوصًا من هذه الدعوة إلىٰ أصل دين الإسلام وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

ومن الدعوة إلىٰ الله تحبيبه إلىٰ عباده: بذكر تفاصيل نعمه وسعة جوده وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله ونعوت جلاله.

ومن الدعوة إلىٰ الله: الترغيب في اقتباس العلم والهدىٰ من كتاب الله وسنة رسوله، والحث علىٰ ذلك بكل طريق موصل إليه، ومن ذلك، الحث علىٰ مكارم الأخلاق، والإحسان إلىٰ عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر الوالدين.

ومن ذلك: الوعظ لعموم الناس، في أوقات المواسم، والعوارض، والمصائب، بما يناسب ذلك الحال، إلىٰ غير ذلك، مما لا تنحصر أفراده، بما تشمله الدعوة إلىٰ الخير كله، والترهيب من جميع الشر.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ أي: مع دعوته الخلق إلىٰ الله، بادر هو بنفسه، إلىٰ امتثال أمر الله، بالعمل الصالح، الذي يُرْضِي ربه، ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: المنقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهذه المرتبة، تمامها للصديقين، الذين عملوا علىٰ تكميل أنفسهم وتكميل غيرهم، وحصلت لهم الوراثة التامة من الرسل، كما أن من أشر الناس، قولا من كان من دعاة الضلال السالكين لسبله وبين هاتين المرتبتين المتباينتين، اللتين ارتفعت إحداهما إلىٰ أعلىٰ عليين، ونزلت الأخرىٰ، إلىٰ أسفل سافلين، مراتب لا يعلمها إلا الله، وكلها معمورة بالخلق ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ

عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ [الأنعام].

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فُصِّلَت]

[٣٤] يقول تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾؛ أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالىٰ، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلىٰ الخلق، ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن].

ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلىٰ من أساء إليك، فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصًا من له حق كبير عليك؛ كالأقارب، والأصحاب، ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فَصِلْهُ، وإن ظلمك، فاعف عنه، وإن تكلم فيك، غائبًا أو حاضرًا، فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين. وإن هجرك، وترك خطابك، فَطَيِّبْ له الكلام، وابذل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة.

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾؛ أي: كأنه قريب شفيق.

[٣٥] ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾؛ أي: وما يوفّق لهذه الخصلة الحميدة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾ صَبَّرُوا نفوسهم علىٰ ما تكره، وأجبروها علىٰ ما يحبه الله، فإن النفوس مجبولة علىٰ مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه، فكيف بالإحسان؟

فإذا صبر الإنسان نفسه، وامتثل أمر ربه، وعرف جزيل الثواب، وعلم أن مقابلته للمسيء بجنس عمله، لا يفيده شيئًا، ولا يزيد العداوة إلا شدة، وأن إحسانه إليه، ليس بواضع قدره؛ بل من تواضع لله رفعه، هان عليه الأمر، وفعل ذلك، متلذذًا مستحليًا له.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ لكونها من خصال خواص الخلق، التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾

وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [فُصِّلَت]

[٣٦] لما ذكر تعالىٰ ما يقابل به العدو من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان، ذكر ما يدفع به العدو الجني، وهو الاستعاذة بالله، والاحتماء من شره فقال:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾؛ أي: أي وقت من الأوقات، أحسست بشيء من نزغات الشيطان، أي: من وساوسه وتزيينه للشر، وتكسيله عن الخير، وإصابة ببعض الذنوب، وإطاعة له ببعض ما يأمر به ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾؛ أي: اسأله، مفتقرًا إليه، أن يعيذك ويعصمك منه، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ فإنه يسمع قولك وتضرعك، ويعلم حالك واضطرارك إلىٰ عصمته وحمايته.

[٣٧] ثم ذكر تعالىٰ أن ﴿مِنۡ ءَايَٰتِهِ﴾ الدالة علىٰ كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده، وأنه الله وحده لا شريك له ﴿ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ هذا بمنفعة ضيائه، وتصرف العباد فيه، وهذا بمنفعة ظُلَمِه، وسكون الخلق فيه. ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ﴾ اللذان لا تستقيم معايش العباد، ولا أبدانهم، ولا أبدان حيواناتهم، إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصىٰ عدده.

﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾ فإنهما مدبران مسخران مخلوقان، ﴿وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾؛ أي: اعبدوه وحده، لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه، من المخلوقات، وإن كبر، جرمه وكثرت مصالحه، فإن ذلك ليس منه، وإنما هو من خالقه تبارك وتعالىٰ. ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له.

[٣٨] ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن عبادة الله تعالىٰ، ولم ينقادوا لها، فإنهم لن يضروا الله شيئًا، والله غني عنهم، وله عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا قال: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة المقربين ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾؛ أي: لا يملون من عبادته، لقوتهم، وشدة الداعي القوي منهم إلىٰ ذلك.

[٣٩] ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالة علىٰ كمال قدرته، وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية، ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾؛ أي: لا نبات فيها ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ﴾؛ أي: المطر ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾؛ أي: تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتۡۚ﴾ ثم: أنبتت من كل زوج بهيج، فحيي به العباد والبلاد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا﴾ بعد موتها وهمودها، ﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾ من قبورهم إلىٰ يوم بعثهم، ونشورهم

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فكما لم تعجز قدرته عن إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتىٰ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فُصِّلَت]

[٤٠] الإلحاد في آيات الله: الميل بها عن الصواب، بأي وجه كان: إما بإنكارها وجحودها، وتكذيب من جاء بها، وإما بتحريفها وتصريفها عن معناها الحقيقي، وإثبات معان ما أرادها الله منها.

فتوعَّد تعالىٰ من ألحد فيها بأنه لا يخفىٰ عليه؛ بل هو مطلع علىٰ ظاهره وباطنه، وسيجازيه علىٰ إلحاده بما كان يعمل، ولهذا قال: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ مثل الملحد بآيات الله ﴿خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ من عذاب الله مستحقًّا لثوابه؟ من المعلوم أن هذا خير.

لما تبين الحق من الباطل، والطريق المنجي من عذابه من الطريق المهلك قال: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ إن شئتم فاسلكوا طريق الرشد الموصلة إلىٰ رضا ربكم وجنته، وإن شئتم فاسلكوا طريق الغيِّ المسخطة لربكم، الموصلة إلىٰ دار الشقاء.

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف:٢٩].

[٤١-٤٢] ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾؛ أي: يجحدون القرآن الكريم المذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدنيوية والأخروية، المُعلي لقدر من اتبعه، ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾ نعمة من ربهم علىٰ يد أفضل الخلق وأكملهم؛ ﴿وَ﴾ الحال ﴿إِنَّهُۥ﴾: كتاب جامع لأوصاف الكمال، ﴿عَزِيزٞ﴾؛ أي: منيع من كل من أراده بتحريف أو سوء، ولهذا قال: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾؛ أي: لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن، لا بسرقة، ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة ولا نقص، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفل من أنزله بحفظه كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾[الحِجر] ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ﴾ في خلقه وأمره، يضع كل شيء موضعه، وينزله منزله، ﴿حَمِيدٖ﴾ علىٰ ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وعلىٰ ما له من العدل

والإفضال، فلهذا كان كتابه مشتملا علىٰ تمام الحكمة، وعلىٰ تحصيل المصالح والمنافع، ودفع المفاسد والمضار، التي يحمد عليها.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فُصِّلَت]

[٤٣] أي: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾؛ أيها الرسول من الأقوال الصادرة، ممن كذبك وعاندك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ﴾؛ أي: من جنسها؛ بل ربما إنهم تكلموا بكلام واحد، كتعجب جميع الأمم المكذبة للرسل، من دعوتهم إلىٰ الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، وردهم هذا بكل طريق يقدرون عليه، وقولهم: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [يس:١٥].

واقتراحهم علىٰ رسلهم الآيات، التي لا يلزمهم الإتيان بها، ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب، لما تشابهت قلوبهم في الكفر، تشابهت أقوالهم، وصبر الرسل عليهم السلام علىٰ أذاهم وتكذيبهم، فاصبر كما صبر من قبلك.

ثم دعاهم إلىٰ التوبة والإتيان بأسباب المغفرة، وحذرهم من الاستمرار علىٰ الغيّ فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾؛ أي: عظيمة، يمحو بها كل ذنب لمن أقلع وتاب ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لمن: أصر واستكبر.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فُصِّلَت]

[٤٤] ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يخبر تعالىٰ عن فضله وكرمه، حيث أنزل كتابا عربيًا، علىٰ الرسول العربي، بلسان قومه، ليبين لهم، وهذا مما يوجب لهم زيادة الاغتناء به، والتلقي له والتسليم، وأنه لو جعله قرآنا أعجميًا، بلغة غير العرب، لاعترض المكذبون وقالوا: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾؛ أي: هلا بينت آياته، ووضحت وفسرت. ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ﴾؛ أي: كيف يكون محمد عربيًا، والكتاب أعجمي؟ هذا لا يكون فنفىٰ الله تعالىٰ كل أمر، يكون فيه شبهة لأهل الباطل، عن كتابه، ووصفه بكل وصف، يوجب لهم الانقياد، ولكن المؤمنون الموفقون، انتفعوا به، وارتفعوا، وغيرهم بالعكس من أحوالهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۚ﴾؛ أي: يهديهم لطريق الرشد والصراط المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة ما به تحصل

الهداية التامة وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية؛ لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث علىٰ التوبة النصوح، التي تغسل الذنوب وتشفي القلب.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾؛ أي: صمم عن استماعه وإعراض، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ﴾؛ أي: لا يبصرون به رشدًا، ولا يهتدون به، ولا يزيدهم إلا ضلالا فإنهم إذا ردوا الحق، ازدادوا عمىٰ إلىٰ عماهم، وغيًّا إلىٰ غيِّهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾؛ أي: ينادون إلىٰ الإيمان، ويدعون إليه، فلا يستجيبون، بمنزلة الذي ينادىٰ وهو في مكان بعيد، لا يسمع داعيًا ولا يجيب مناديًا. والمقصود: أن الذين لا يؤمنون بالقرآن لا ينتفعون بهداه، ولا يبصرون بنوره ولا يستفيدون منه خيرًا؛ لأنهم سدوا علىٰ أنفسهم أبواب الهدىٰ، بإعراضهم وكفرهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكّٖ مِّنْهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصِّلَت]

[٤٥] يقول تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ كما آتيناك الكتاب، فصنع به الناس ما صنعوا معك، اختلفوا فيه: فمنهم من آمن به واهتدىٰ وانتفع، ومنهم من كذبه ولم ينتفع به، وإن الله تعالىٰ لولا حلمه وكلمته السابقة، بتأخير العذاب إلىٰ أجل مسمىٰ لا يتقدم عليه ولا يتأخر ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ﴾ بمجرد ما يتميز المؤمنون من الكافرين، بإهلاك الكافرين بالحال، لأن سبب الهلاك قد وجب وحق. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكّٖ مِّنْهُ مُرِيبٖ﴾؛ أي: قد بلغ بهم إلىٰ الريب الذي يقلقهم، فلذلك كذبوه وجحدوه.

[٤٦] ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ وهو العمل الذي أمر الله به ورسوله ﴿فَلِنَفْسِهِۦۖ﴾ نفعه وثوابه في الدنيا والآخرة، ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ﴾ ضرره وعقابه في الدنيا والآخرة، وفي هذا، حثٌّ علىٰ فعل الخير، وترك الشر، وانتفاع العاملين بأعمالهم الحسنة، وضررهم بأعمالهم السيئة، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرىٰ. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلْعَبِيدِ﴾ فَيُحمِّل أحدًا فوق سيئاتهم.

﴿۞إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾﴾ [فُصِّلَت]

[٤٧-٤٨] هذا إخبار عن سعة علمه تعالىٰ واختصاصه بالعلم الذي لا يطلع عليه سواه فقال: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾؛ أي: جميع الخلق يرد علمها إلىٰ الله تعالىٰ، ويقرون بالعجز عنه: الرسل، والملائكة، وغيرهم.

﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا﴾؛ أي: وعائها الذي تخرج منه، وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبراري، فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار إلا وهو يعلمها علما تفصيليًا.

﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ﴾ من بني آدم وغيرهم من أنواع الحيوانات، إلا بعلمه ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أنثىٰ حملها ﴿إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ فكيف سوَّىٰ المشركون به تعالىٰ، من لا علم عنده ولا سمع ولا بصر؟

﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾؛ أي: المشركين به يوم القيامة توبيخًا وإظهارًا لكذبهم، فيقول لهم: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾ الذين زعمتم أنهم شركائي، فعبدتموهم، وجادلتم علىٰ ذلك، وعاديتم الرسل لأجلهم؟ ﴿قَالُوٓاْ﴾ مقرين ببطلان إلهيتهم، وشركتهم مع الله: ﴿ءَاذَنَّٰكَ مَامِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾؛ أي: أعلمناك يا ربنا، واشهد علينا أنه ما منا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم، فكلنا الآن قد رجعنا إلىٰ بطلان عبادتها، وتبرأنا منها، ولهذا قال: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ﴾ من دون الله، أي: ذهبت عقائدهم وأعمالهم، التي أفنوا فيها أعمارهم علىٰ عبادة غير الله، وظنوا أنها تفيدهم، وتدفع عنهم العذاب، وتشفع لهم عند الله، فخاب سعيهم، وانتقض ظنهم، ولم تغن عنهم شركاؤهم شيئًا ﴿وَظَنُّواْ﴾؛ أي: أيقنوا في تلك الحال ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾؛ أي: منقذ ينقذهم، ولا مغيث، ولا ملجأ، فهذه عاقبة من أشرك بالله غيره، بينها الله لعباده، ليحذروا الشرك به.

﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴿٥١﴾﴾ [فُصِّلَت]

[٤٩] هذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وعدم صبره وجلده لا علىٰ الخير ولا علىٰ الشر، إلا من نقله الله من هذه الحال إلىٰ حال الكمال، فقال: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾؛ أي: لا يمل دائمًا من دعاء الله، في الغنىٰ والمال والولد، وغير ذلك من مطالب الدنيا، ولا يزال يعمل علىٰ ذلك، ولا يقتنع بقليل ولا بكثير منها، فلو حصل له من الدنيا ما حصل لم يزل طالبًا للزيادة.

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾؛ أي: المكروه، كالمرض، والفقر، وأنواع البلايا ﴿فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾؛ أي: ييأس من رحمة الله تعالىٰ، ويظن أن هذا البلاء هو القاضي عليه بالهلاك، ويتشوش من إتيان الأسباب، علىٰ غير ما يحب ويطلب.

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمة والمحاب= شكروا الله تعالىٰ، وخافوا أن تكون نعم الله عليهم استدراجًا وإمهالا وإن أصابتهم مصيبة، في أنفسهم وأموالهم، وأولادهم صبروا ورجوا فضل ربهم، فلم ييأسوا.

[٥٠] ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ﴾؛ أي: الإنسان الذي يسأم من دعاء الخير، وإن مسه الشر فيئوس قنوط ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾؛ أي: بعد ذلك الشر الذي أصابه بأن عافاه الله من مرضه أو أغناه من فقره؛ فإنه لا يشكر الله تعالىٰ؛ بل يبغي ويطغىٰ، ويقول: ﴿هَٰذَا لِي﴾؛ أي: أتاني لأني له أهل وأنا مستحق له ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ وهذا إنكار منه للبعث، وكفر للنعمة والرحمة التي أذاقها الله له، ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾؛ أي: علىٰ تقدير إتيان الساعة، وأني سأرجع إلىٰ ربي، إن لي عنده للحسنىٰ، فكما حصلت لي النعمة في الدنيا فإنها ستحصل لي في الآخرة، وهذا من أعظم الجرأة والقول علىٰ الله بلا علم، فلهذا توعده الله بقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾؛ أي: شديد جدًّا.

[٥١] ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ بصحة، أو رزق، أو غيرهما ﴿أَعۡرَضَ﴾ عن ربه وعن شكره، ﴿وَنَـَٔا﴾ ترفع ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ عجبا وتكبرًا، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾؛ أي: المرض، أو الفقر، أو غيرهما ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾؛ أي: كثير جدًّا، لعدم صبره، فلا صبر في الضراء، ولا شكر في الرخاء، إلا من هداه الله ومنَّ عليه.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۢ بَعِيدٖ ٥٢ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فُصِّلَت]

[٥٢] أي: ﴿قُلۡ﴾ لهؤلاء المكذبين بالقرآن المسارعين إلىٰ الكفران ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ من غير شك ولا ارتياب، ﴿ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۢ بَعِيدٖ﴾؛ أي: معاندة لله ولرسوله، لأنه تبيّن لكم الحق والصواب، ثم عدلتم عنه، لا إلىٰ حق؛ بل إلىٰ باطل وجهل،

فإذا تكونون أضل الناس وأظلمهم.

[٥٣] فإن قلتم أو شككتم بصحته وحقيقته، فسيقيم الله لكم، ويريكم من آياته في الآفاق كالآيات التي في السماء وفي الأرض، وما يحدثه الله تعالىٰ من الحوادث العظيمة الدالة للمستبصر علىٰ الحق.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ مما اشتملت عليه أبدانهم من بديع آيات الله وعجائب صنعته وباهر قدرته، وفي حلول العقوبات والمثلات في المكذبين ونصر المؤمنين، ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ﴾ من تلك الآيات بيانًا لا يقبل الشك ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ وما اشتمل عليه حق، وقد فعل تعالىٰ، فإنه أرىٰ عباده من الآيات، ما به تبين لهم أنه الحق؛ ولكن الله هو الموفق للإيمان من شاء والخاذل لمن يشاء.

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾؛ أي: أولم يكفهم -علىٰ أن القرآن حق، ومن جاء به صادق- شهادة الله تعالىٰ، فإنه قد شهد له بالتصديق، وهو أصدق الشاهدين، وأيده ونصره نصرًا متضمنًا لشهادته القولية، عند من شك فيها.

[٥٤] ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾؛ أي: في شك من البعث والقيامة، وليس عندهم دار سوىٰ الدار الدنيا، فلذلك لم يعملوا للآخرة، ولم يلتفتوا لها، ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ علما وقدرة وعزة.

تم تفسير سورة فصلت بمنه تعالىٰ

٤٢- تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّورَىٰ

مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣ لَهُۥ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ
مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا
لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧
وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ
وَلَا نَصِيرٍ ٨ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
قَدِيرٞ ٩﴾ [الشورى]

[١-٥] يخبر تعالىٰ أنه أوحىٰ هذا القرآن العظيم علىٰ النبي الكريم، كما أوحىٰ إلىٰ من قبله من الأنبياء والمرسلين، ففيه بيان فضله، بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، سابقا ولاحقا، وأن محمدا ﷺ ليس ببدع من الرسل، وأن طريقته طريقة من قبله، وأحواله تناسب أحوال من قبله من المرسلين. وما جاء به يشابه ما جاءوا به، لأن الجميع حق وصدق، وهو تنزيل من اتصف بالألوهية والعزة العظيمة والحكمة البالغة، وأن جميع العالم العلوي والسفلي ملكه وتحت تدبيره القدري والشرعي وأنه ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ بذاته وقدره وقهره، ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذي من عظمته.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾ علىٰ عظمها وكونها جمادا، ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الكرام المقربون خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته مذعنون بربوبيته، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ ويعظمونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال، ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ عما يصدر منهم مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه، مع أنه تعالىٰ هو ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي لولا مغفرته ورحمته، لعاجل الخلق بالعقوبة

المستأصلة وفي وصفه تعالىٰ بهذه الأوصاف، بعد أن ذكر أنه أوحىٰ إلىٰ الرسل كلهم عموما، وإلىٰ محمد -صلىٰ الله عليهم وسلم- خصوصا، إشارة إلىٰ أن هذا القرآن الكريم فيه من الأدلة والبراهين والآيات الدالة علىٰ كمال الباري تعالىٰ ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب من معرفته ومحبته وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالىٰ، وأن من أكبر الظلم وأفحش القول اتخاذ أنداد لله من دونه ليس بيدهم نفع ولا ضر؛ بل هم مخلوقون مفتقرون إلىٰ الله في جميع أحوالهم.

[٦] ولهذا عقبه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ يتولونهم بالعبادة والطاعة، كما يعبدون الله ويطيعونه، فإنما اتخذوا الباطل، وليسوا بأولياء علىٰ الحقيقة؛ ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ يحفظ عليهم أعمالهم، فيجازيهم بخيرها وشرها. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ فتسأل عن أعمالهم، وإنما أنت مبلغ أديت وظيفتك.

[٧] ثم ذكر منته علىٰ رسوله وعلىٰ الناس حيث أنزل الله ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ بيّن الألفاظ والمعاني ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ وهي مكة المكرمة ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ من قرىٰ العرب، ثم يسري هذا الإنذار إلىٰ سائر الخلق، ﴿وَتُنذِرَ﴾ الناس ﴿يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، وتخبرهم أنه ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين فريقًا ﴿فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ وهم الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وفريقًا ﴿فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ وهم أصناف الكفرة المكذبين.

[٨] ﴿وَ﴾ مع هذا ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لجعل الناس ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ علىٰ الهدىٰ؛ لأنه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء؛ ولكنه أراد أن يدخل في رحمته من شاء من خواص خلقه.

وأما الظالمون الذين لا يصلحون لصالح، فإنهم محرومون من الرحمة، فـ ﴿مَا لَهُم﴾ من دون الله ﴿مِّن وَلِيّٖ﴾ يتولاهم، فيحصل لهم المحبوب ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنهم المكروه.

[٩] والذين ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ﴾ يتولونهم بعبادتهم إياهم، فقد غلطوا أقبح غلط، ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾ الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته، والتقرب إليه بما أمكن من أنواع التقربات، ويتولىٰ عباده عموما بتدبيره، ونفوذ القدر فيهم، ويتولىٰ عباده المؤمنين خصوصا بإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، وتربيتهم بلطفه وإعانتهم في جميع أمورهم.

﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة، ونفوذ المشيئة

والقدرة، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الشورىٰ]

[١٠] يقول تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ من أصول دينكم وفروعه، مما لم تتفقوا عليه ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ يرد إلىٰ كتابه، وإلىٰ سنة رسوله، فما حكما به فهو الحق، وما خالف ذلك فباطل.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾؛ أي: فكما أنه تعالىٰ الرب الخالق الرازق المدبر؛ فهو تعالىٰ الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم.

ومفهوم الآية الكريمة أن اتفاق الأمة حجة قاطعة؛ لأن الله تعالىٰ لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه، فما اتفقنا عليه، يكفي اتفاق الأمة عليه؛ لأنها معصومة عن الخطأ، ولا بد أن يكون اتفاقها موافقا لما في كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: اعتمدت بقلبي عليه في جلب المنافع ودفع المضار، واثقا به تعالىٰ في الإسعاف بذلك؛ ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾؛ أي: أتوجه بقلبي وبدني إليه، وإلىٰ طاعته وعبادته.

وهذان الأصلان، كثيرا ما يذكرهما الله في كتابه، لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، ويفوته الكمال بفوتهما أو فوت أحدهما، كقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة] وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود:١٢٣].

[١١] ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾؛ أي: خالقهما بقدرته ومشيئته وحكمته، ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ لتسكنوا إليها، وتنتشر منكم الذرية، ويحصل لكم من النفع ما يحصل.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: ومن جميع أصنافها نوعين، ذكرا وأنثىٰ، لتبقىٰ وتنمو لمنافعكم الكثيرة، ولهذا عداها باللام الدالة علىٰ التعليل، أي: جعل ذلك لأجلكم، ولأجل النعمة عليكم، ولهذا قال: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ﴾؛ أي: يبثكم ويكثّركم ويكثر مواشيكم، بسبب أن جعل لكم من أنفسكم، وجعل لكم من الأنعام أزواجا.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ﴾؛ أي: ليس يشبهه تعالىٰ ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في

أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسماءه كلها حسنىٰ، وصفاته صفات كمال وعظمة، وأفعاله تعالىٰ أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء؛ لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، علىٰ تفنن الحاجات؛ ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ يرىٰ دبيب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، علىٰ الصخرة الصماء، ويرىٰ سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جدا، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة.

وهذه الآية ونحوها، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، من إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات، وفيها رد علىٰ المشبهة في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وعلىٰ المعطلة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

[١٢] وقوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: له ملك السَّمٰوات والأرض، وبيده مفاتيح الرحمة والأرزاق، والنّعم الظاهرة والباطنة. فكل الخلق مفتقرون إلىٰ الله، في جلب مصالحهم، ودفع المضار عنهم، في كل الأحوال، ليس بيد أحد من الأمر شيء.

والله تعالىٰ هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع الشر إلا هو، و﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [فاطر:٢].

ولهذا قال هنا: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يوسعه ويعطيه من أصناف الرزق ما شاء، ﴿وَيَقْدِرُ ۚ﴾؛ أي: يضيق علىٰ من يشاء، حتىٰ يكون بقدر حاجته، لا يزيد عنها، وكل هذا تابع لعلمه وحكمته، فلهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم أحوال عباده، فيعطي كلا ما يليق بحكمته وتقتضيه مشيئته.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورىٰ]

[١٣] هذه أكبر منة أنعم الله بها علىٰ عباده، أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها وأزكاها وأطهرها دين الإسلام؛ الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده؛ بل شرعه الله لخيار الخيار وصفوة الصفوة، وهم أولو العزم من المرسلين المذكورون في هذه الآية، أعلىٰ الخلق درجة وأكملهم من كل وجه، فالدين الذي شرعه الله لهم لا بد أن يكون مناسبا لأحوالهم موافقا لكمالهم؛ بل إنما

كملهم الله واصطفاهم بسبب قيامهم به، فلولا الدين الإسلامي ما ارتفع أحد من الخلق، فهو روح السعادة وقطب رحىٰ الكمال، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم، ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب.

ولهذا قال: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته علىٰ غيركم، وتعاونون علىٰ البر والتقوىٰ ولا تعاونون علىٰ الإثم والعدوان، ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾؛ أي: ليحصل منكم الاتفاق علىٰ أصول الدين وفروعه، واحرصوا علىٰ ألَّا تفرقكم المسائل وتحزّبكم أحزابا، وتكونون شيعا يعادي بعضكم بعضا مع اتفاقكم علىٰ أصل دينكم.

ومن أنواع الاجتماع علىٰ الدين وعدم التفرق فيه، ما أمر به الشّارع من الاجتماعات العامة، كاجتماع الحج والأعياد، والجمع والصلوات الخمس والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق.

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ﴾؛ أي: شق عليهم غاية المشقة، حيث دعوتهم إلىٰ الإخلاص لله وحده، كما قال عنهم: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ٤٥﴾ [الزُّمَر] وقولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ٥﴾ [ص].

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يختار من خليقته من يعلم أنه يصلح للاجتباء لرسالته وولايته ومنه أن اجتبىٰ هذه الأمة وفضلها علىٰ سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها.

﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ هذا السبب الذي من العبد يتوصل به إلىٰ هداية الله تعالىٰ، وهو إنابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصدا وجهه، فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها كما قال تعالىٰ: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦].

وفي هذه الآية، أن الله ﴿يَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ مع قوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ [لقمان:١٥] مع العلم بأحوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وشدة إنابتهم، دليل علىٰ أن قولهم حجة، خصوصا الخلفاء الراشدين، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ١٤ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ١٥﴾ [الشورى]

[١٤] لما أمر تعالىٰ باجتماع المسلمين علىٰ دينهم ونهاهم عن التفرق= أخبرهم أنهم لا يغتروا بما أنزل الله عليهم من الكتاب، فإن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتىٰ أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغيا وعدوانا منهم، فإنهم تباغضوا وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف، فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: بتأخير العذاب القاضي ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ﴾ ولكن حكمته وحلمه، اقتضىٰ تأخير ذلك عنهم، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: الذين ورثوهم وصاروا خلَفا لهم ممن ينتسب إلىٰ العلم منهم ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾؛ أي: لفي اشتباه كثير يوقع في الاختلاف حيث اختلف سلفهم بغيا وعنادا، فإن خلفهم اختلفوا شكا وارتيابا، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم.

[١٥] ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ﴾؛ أي: فللدين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل الله به كتبه وأرسل رسله، فادع إليه أمتك وحضهم عليه، وجاهد عليه، من لم يقبله، ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ بنفسك ﴿كَمَآ أُمِرْتَۖ﴾؛ أي: استقامة موافقة لأمر الله، لا تفريط ولا إفراط؛ بل امتثالا لأوامر الله واجتنابا لنواهيه، علىٰ وجه الاستمرار علىٰ ذلك، فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وبتكميل غيره بالدعوة إلىٰ ذلك.

ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمر لأمته إذا لم يرد تخصيص له.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ﴾؛ أي: أهواء المنحرفين عن الدين، من الكفرة والمنافقين إما باتباعهم علىٰ بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلىٰ الله، أو بترك الاستقامة، فإنك إن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين، ولم يقل: "ولا تتبع دينهم" لأن حقيقة دينهم الذي شرعه الله لهم، هو دين الرسل كلهم، ولكنهم لم يتبعوه، بل اتبعوا أهواءهم، واتخذوا دينهم لهوا ولعبا.

﴿وَقُلْ﴾ لهم عند جدالهم ومناظرتهم: ﴿ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ﴾؛ أي: لتكن مناظرتك لهم مبنية علىٰ هذا الأصل العظيم، الدال علىٰ شرف الإسلام وجلالته وهيمنته علىٰ سائر الأديان، وأن الدين

الذي يزعم أهل الكتاب أنهم عليه جزء من الإسلام، وفي هذا إرشاد إلىٰ أن أهل الكتاب إن ناظروا مناظرة مبنية علىٰ الإيمان ببعض الكتب، أو ببعض الرسل دون غيره، فلا يسلم لهم ذلك، لأن الكتاب الذي يدعون إليه، والرسول الذي ينتسبون إليه، من شرطه أن يكون مصدقا بهذا القرآن وبمن جاء به، فكتابنا ورسولنا لم يأمرنا إلا بالإيمان بموسىٰ وعيسىٰ والتوراة والإنجيل، التي أخبر بها وصدق بها، وأخبر أنها مصدقة له ومقرة بصحته.

وأما مجرد التوراة والإنجيل، وموسىٰ وعيسىٰ، الذين لم يوصفوا لنا، ولم يوافقوا لكتابنا، فلم يأمرنا بالإيمان بهم.

وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ﴾؛ أي: في الحكم فيما اختلفتم فيه، فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم، يا أهل الكتاب من العدل بينكم، ومن العدل في الحكم بين أهل الأقوال المختلفة، من أهل الكتاب وغيرهم، أن يقبل ما معهم من الحق، ويرد ما معهم من الباطل، ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ﴾؛ أي: هو رب الجميع، لستم بأحق به منا. ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾ من خير وشر ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾؛ أي: بعد ما تبينت الحقائق، واتضح الحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال= لم يبق للجدال والمنازعة محل، لأن المقصود من الجدال، إنما هو بيان الحق من الباطل، ليهتدي الراشد، ولتقوم الحجة علىٰ الغاوي، وليس المراد بهذا أن أهل الكتاب لا يجادلون، كيف والله يقول: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦] وإنما المراد ما ذكرنا ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ يوم القيامة، فيجزي كلا بعمله، ويتبين حينئذ الصادق من الكاذب.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾ [الشورىٰ]

[١٦] وهذا تقرير لقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ [الشورىٰ:١٥]، فأخبر هنا أن ﴿ٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ بالحجج الباطلة، والشبه المتناقضة ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ﴾؛ أي: من بعد ما استجاب لله أولو الألباب والعقول لما بين لهم من الآيات القاطعة، والبراهين الساطعة، فهؤلاء المجادلون للحق من بعد ما تبين ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾؛ أي: باطلة مدفوعة ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ لأنها مشتملة علىٰ رد الحق وكل ما خالف الحق، فهو باطل.

﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ بعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله وبيناته وتكذيبها، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ هو

أثر غضب الله عليهم، فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى]

[١٧] لما ذكر تعالىٰ أن حججه واضحة بينة، بحيث استجاب لها كل من فيه خير، ذكر أصلها وقاعدتها؛ بل جميع الحجج التي أوصلها إلىٰ العباد، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ﴾ فالكتاب هو هذا القرآن العظيم الذي نزل بالحق، واشتمل علىٰ الحق والصدق واليقين، وكله آيات بينات وأدلة واضحات علىٰ جميع المطالب الإلهية والعقائد الدينية، فجاء بأحسن المسائل وأوضح الدلائل.

وأما الميزان؛ فهو: العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيح، فكل الدلائل العقلية، من الآيات الأفقية والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات والعلل، والأحكام والحكم، داخلة في الميزان الذي أنزله الله تعالىٰ ووضعه بين عباده، ليزنوا به ما أثبته وما نفاه من الأمور، ويعرفوا به صدق ما أخبر به وأخبرت رسله، مما خرج عن هذين الأمرين -عن الكتاب والميزان- مما قيل: إنه حجة أو برهان أو دليل أو نحو ذلك من العبارات، فإنه باطل متناقض، قد فسدت أصوله، وانهدمت مبانيه وفروعه، يعرف ذلك من خبر المسائل ومآخذها، وعرف التمييز بين راجح الأدلة من مرجوحها، والفرق بين الحجج والشبه، وأما من اغتر بالعبارات المزخرفة، والألفاظ المموهة، ولم تنفذ بصيرته إلىٰ المعنىٰ المراد، فإنه ليس من أهل هذا الشأن، ولا من فرسان هذا الميدان، فوفاقه وخلافه سيان.

ثم قال تعالىٰ مخوفا للمستعجلين لقيام الساعة المنكرين لها، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾؛ أي: ليس بمعلوم بعدها، ولا متىٰ تقوم، فهي في كل وقت متوقع وقوعها، مخوف وجبتها.

[١٨] ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ﴾ عنادا وتكذيبا، وتعجيزا لربهم، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾؛ أي: خائفون؛ لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال، وخوفهم، لمعرفتهم بربهم، أن لا تكون أعمالهم منجية لهم ولا مسعدة، ولهذا قال: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: بعد ما امتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها فهم في شقاق ﴿بَعِيدٍ﴾ أي: معاندة ومخاصمة غير قريبة من الصواب؛ بل في غاية البعد عن

الحق، وأيُّ بعد أبعد ممن كذب بالدار التي هي الدار علىٰ الحقيقة، وهي الدار التي خلقت للبقاء الدائم والخلود السرمد، وهي دار الجزاء التي يظهر الله فيها عدله وفضله وإنما هذه الدار بالنسبة إليها، كراكب قال في ظل شجرة ثم رحل وتركها، وهي دار عبور وممر، لا محل استقرار.

فصدقوا في الدار المضمحلة الفانية، حيث رأوها وشاهدوها، وكذبوا بالدار الآخرة، التي تواترت بالأخبار عنها الكتب الإلهية، والرسل الكرام وأتباعهم الذين هم أكمل الخلق عقولا وأغزرهم علما، وأعظمهم فطنة وفهما.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾ [الشورىٰ]

[١٩] يخبر تعالىٰ بلطفه بعباده ليعرفوه ويحبوه، ويتعرضوا للطفه وكرمه، واللطف من أوصافه تعالىٰ معناه: الذي يدرك الضمائر والسرائر، الذي يوصل عباده –وخصوصا المؤمنين– إلىٰ ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون.

فمن لطفه بعبده المؤمن أن هداه إلىٰ الخير هداية لا تخطر بباله، بما يسر له من الأسباب الداعية إلىٰ ذلك، من فطرته علىٰ محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالىٰ لملائكته الكرام، أن يثبتوا عباده المؤمنين، ويحثوهم علىٰ الخير، ويلقوا في قلوبهم من تزيين الحق ما يكون داعيا لاتباعه.

ومن لطفه أن أمر المؤمنين، بالعبادات الاجتماعية، التي بها تقوىٰ عزائمهم وتنبعث هممهم، ويحصل منهم التنافس علىٰ الخير والرغبة فيه، واقتداء بعضهم ببعض.

ومن لطفه، أن قيض كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي، حتىٰ إنه تعالىٰ إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهل الدنيا، تقطع عبده عن طاعته، أو تحمله علىٰ الغفلة عنه، أو علىٰ معصية صرفها عنه، وقدر عليه رزقه، ولهذا قال هنا: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ بحسب اقتضاء حكمته ولطفه ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي له القوة كلها، فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، الذي دانت له جميع الأشياء.

[٢٠] ثم قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ أي: أجرها وثوابها، فآمن بها وصدق، وسعىٰ لها سعيها ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ بأن نضاعف عمله وجزاءه أضعافا كثيرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾ [الإسراء] ومع ذلك، فنصيبه من

الدنيا لا بد أن يأتيه.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ بأن: كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يخش عقابها. ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ نصيبه الذي قسم له، ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها.

وهذه الآية، شبيهة بقوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هود] إلىٰ آخر الآيات.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الشورىٰ]

[٢١] يخبر تعالىٰ أن المشركين اتخذوا شركاء يوالونهم ويشتركون هم وإياهم في الكفر وأعماله، من شياطين الإنس الدعاة إلىٰ الكفر، ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ من الشرك والبدع، وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم، مع أن الدين لا يكون إلا ما شرعه الله تعالىٰ، ليدين به العباد ويتقربوا به إليه، فالأصل الحجر علىٰ كل أحد أن يشرع شيئا ما جاء عن الله وعن رسوله، فكيف بهؤلاء الفسقة المشتركين هم وآباؤهم وهم علىٰ الكفر.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: لولا الأجل المسمىٰ الذي ضربه الله فاصلا بين الطوائف المختلفة، وأنه سيؤخرهم إليه، لقضي بينهم في الوقت الحاضر بسعادة المحق وإهلاك المبطل، لأن المقتضي للإهلاك موجود، ولكن أمامهم العذاب الأليم في الآخرة، هؤلاء وكل ظالم.

[٢٢] وفي ذلك اليوم ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿مُشْفِقِينَ﴾؛ أي: خائفين وجلين ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ أن يعاقبوا عليه.

ولما كان الخائف قد يقع به ما أشفق منه وخافه، وقد لا يقع= أخبر أنه ﴿وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ العقاب الذي خافوه؛ لأنهم أتوا بالسبب التام الموجب للعقاب من غير معارض من توبة ولا غيرها، ووصلوا موضعا فات فيه الإنظار والإمهال.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم بالله وبكتبه ورسله وما جاءوا به، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يشمل كل عمل صالح من أعمال القلوب وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات؛ فهؤلاء ﴿فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾؛ أي: الروضات المضافة إلىٰ الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه، فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة، وما فيها من الأنهار المتدفقة، والفياض المعشبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، والاجتماع بكل حبيب، والأخذ من المعاشرة والمنادمة بأكمل نصيب، رياض لا تزداد علىٰ طول المدىٰ إلا حسنا وبهاء، ولا يزداد أهلها إلا اشتياقا إلىٰ لذاتها وودادا، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ فيها، أي: في الجنات، فمهما أرادوا فهو حاصل، ومهما طلبوا حصل، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، ﴿ذَٰلِكَ [هُوَ] ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ وهل فوز أكبر من الفوز برضا الله تعالىٰ، والتنعم بقربه في دار كرامته؟

[٢٣] ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ﴾؛ أي: هذه البشارة العظيمة، التي هي أكبر البشائر علىٰ الإطلاق، بشر بها الرحيم الرحمن، علىٰ يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح، فهي أجل الغايات، والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل.

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: علىٰ تبليغي إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلىٰ أحكامه، ﴿أَجۡرًا﴾ فلست أريد أخذ أموالكم، ولا التولي عليكم والترأس، ولا غير ذلك من الأغراض ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾.

يحتمل أن المراد: لا أسألكم عليه أجرا إلا أجرا واحدا هو لكم، وعائد نفعه إليكم، وهو أن تودوني وتحبوني في القرابة، أي: لأجل القرابة. ويكون علىٰ هذا المودة الزائدة علىٰ مودة الإيمان، فإن مودة الإيمان بالرسول، وتقديم محبته علىٰ جميع المحاب بعد محبة الله، فرض علىٰ كل مسلم، وهؤلاء طلب منهم زيادة علىٰ ذلك أن يحبوه لأجل القرابة، لأنه ﷺ، قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه، حتىٰ إنه قيل: إنه ليس في بطون قريش أحد، إلا ولرسول الله ﷺ، فيه قرابة.

ويحتمل أن المراد إلا مودة الله تعالىٰ الصادقة، وهي التي يصحبها التقرب إلىٰ الله، والتوسل بطاعته الدالة علىٰ صحتها وصدقها، ولهذا قال: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾؛ أي: في التقرب إلىٰ الله، وعلىٰ كلا القولين، فهذا الاستثناء دليل علىٰ أنه لا يسألهم عليه أجرا بالكلية، إلا أن يكون شيئا يعود نفعه إليهم، فهذا ليس من الأجر في شيء، بل هو من الأجر منه لهم ﷺ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨﴾[البروج] وقولهم: "ما لفلان ذنب عندك، إلا أنه محسن إليك".

﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ﴾ من صلاة، أو صوم، أو حج، أو إحسان إلىٰ الخلق ﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾ بأن يشرح الله صدره، وييسر أمره، وتكون سببا للتوفيق لعمل آخر، ويزداد بها عمل المؤمن، ويرتفع عند الله وعند خلقه، ويحصل له الثواب العاجل والآجل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾ يغفر الذنوب العظيمة ولو بلغت ما بلغت عند التوبة منها، ويشكر علىٰ العمل القليل بالأجر الكثير، فبمغفرته يغفر الذنوب ويستر العيوب، وبشكره يتقبل الحسنات ويضاعفها أضعافا كثيرة.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾ [الشورىٰ]

[٢٤] يعني أم يقول المكذبون للرسول ﷺ جرأة منهم وكذبا: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ﴾ فرموك بأشنع الأمور وأقبحها؛ وهو الافتراء علىٰ الله بادعاء النبوة والنسبة إلىٰ الله ما هو بريء منه، وهم يعلمون صدقك وأمانتك، فكيف يتجرؤون علىٰ هذا الكذب الصراح؟

بل تجرأوا بذلك علىٰ الله تعالىٰ، فإنه قدح في الله، حيث مكنك من هذه الدعوة العظيمة، المتضمنة - علىٰ موجب زعمهم- أكبر الفساد في الأرض، حيث مكنه الله من التصريح بالدعوة، ثم بنسبتها إليه، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات، والأدلة القاهرات، والنصر المبين، والاستيلاء علىٰ من خالفه، وهو تعالىٰ قادر علىٰ حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يختم علىٰ قلب الرسول ﷺ فلا يعي شيئا ولا يدخل إليه خير، وإذا ختم علىٰ قلبه انحسم الأمر كله وانقطع.

فهذا دليل قاطع علىٰ صحة ما جاء به الرسول، وأقوىٰ شهادة من الله له علىٰ ما قال، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر، ولهذا من حكمته ورحمته، وسنته الجارية، أنه يمحو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في بعض الأوقات، فإن عاقبته الاضمحلال.

﴿وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ﴾ الكونية، التي لا تبدل ولا تغير، ووعده الصادق، وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من الحق، وتثبته في القلوب، وتبصر أولي الألباب، حتىٰ إن من جملة إحقاقه تعالىٰ الحق، أن يُقَيِّضَ له الباطل ليقاومه، فإذا قاومه، صال عليه الحق ببراهينه وبيناته، فظهر من نوره وهداه ما به يضمحل الباطل وينقمع، ويتبين بطلانه لكل أحد، ويظهر الحق كل الظهور لكل أحد.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بما فيها وما اتصفت به من خير وشر، وما أكنته ولم تبده.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى]

[٢٥] هذا بيان لكمال كرم الله تعالىٰ وسعة جوده وتمام لطفه، بقبول التوبة الصادرة ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ حين يقلعون عن ذنوبهم ويندمون عليها، ويعزمون علىٰ أن لا يعاودوها، إذا قصدوا بذلك وجه ربهم، فإن الله يقبلها بعد ما انعقدت سببا للهلاك، ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية.

فـ﴿يَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ويمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات، ويعود التائب عنده كريما؛ كأنه ما عمل سوءا قط، ويحبه ويوفقه لما يقر به إليه.

ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة، التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله، ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

[٢٦] فالله تعالىٰ، دعا جميع العباد إلىٰ الإنابة إليه والتوبة من التقصير، فانقسموا -بحسب الاستجابة له- إلىٰ قسمين:

مستجيبين وصفهم بقوله ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: يستجيبون لربهم لما دعاهم إليه وينقادون له ويلبون دعوته، لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملهم علىٰ ذلك، فإذا استجابوا له، شكر الله لهم، وهو الغفور الشكور، وزادهم ﴿مِّن فَضْلِهِۦۚ﴾ توفيقا ونشاطا علىٰ العمل، وزادهم مضاعفة في الأجر زيادة عما تستحقه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم.

وأما غير المستجيبين لله وهم المعاندون الذين كفروا به وبرسله، فـ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

[٢٧] ثم ذكر أن من لطفه بعباده، أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة تضر بأديانهم؛ فقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لغفلوا عن طاعة الله، وأقبلوا علىٰ التمتع بشهوات الدنيا، فأوجبت لهم الإكباب علىٰ ما تشتهيه نفوسهم، ولو كان معصية وظلما.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ﴾ بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ كما في

بعض الآثار أن الله تعالىٰ يقول: "إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنىٰ، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أمرضته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا المرض ولو عافيته لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني خبير بصير ".

[٢٨] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾؛ أي: المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ وانقطع عنهم مدة ظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسوا وعملوا لذلك الجدب أعمالا فينزل الله الغيث ﴿وَيَنشُرُ﴾ به ﴿رَحْمَتَهُۥ﴾ من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعا عظيما، ويستبشرون بذلك ويفرحون. ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولىٰ عباده بأنواع التدبير، ويتولىٰ القيام بمصالح دينهم ودنياهم. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في ولايته وتدبيره، الحميد علىٰ ما له من الكمال، وما أوصله إلىٰ خلقه من أنواع الأفضال.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ٢٩﴾ [الشورىٰ]

[٢٩] أي: ومن أدلة قدرته العظيمة، وأنه سيحيي الموتىٰ بعد موتهم، ﴿خَلْقُ﴾ هذه ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ علىٰ عظمهما وسعتهما، الدال علىٰ قدرته وسعة سلطانه، وما فيهما من الإتقان والإحكام دال علىٰ حكمته وما فيهما من المنافع والمصالح دال علىٰ رحمته، وذلك يدل علىٰ أنه المستحق لأنواع العبادة كلها، وأن إلهية ما سواه باطلة.

﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾؛ أي: نشر في السَّمٰوات والأرض من أصناف الدواب التي جعلها الله مصالح ومنافع لعباده، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾؛ أي: جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ فقدرته ومشيئته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه علىٰ وجود الخبر الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ٣٠ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٣١﴾ [الشورىٰ]

[٣٠] يخبر تعالىٰ، أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أبدانهم وأموالهم وأولادهم وفيما يحبون ويكون

عزيزا عليهم، إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، وأن ما يعفو الله عنه أكثر، فإن الله لا يظلم العباد؛ ولكن أنفسهم يظلمون ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥].

[٣١] وليس إهمالا منه تعالىٰ تأخير العقوبات ولا عجزا فما ﴿أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: معجزين قدرة الله عليكم؛ بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يتولاكم، فيحصل لكم المنافع ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنكم المضار.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ [الشورىٰ]

[٣٢] أي: ومن أدلة رحمته وعنايته بعباده ﴿ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ من السفن، والمراكب النارية والشراعية، التي من عظمها ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ وهي الجبال الكبار، التي سخر لها البحر العجاج، وحفظها من التطام الأمواج، وجعلها تحملكم وتحمل أمتعتكم الكثيرة إلىٰ البلدان والأقطار البعيدة، وسخر لها من الأسباب ما كان معونة علىٰ ذلك.

[٣٣-٣٤] ثم نبه علىٰ هذه الأسباب بقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي جعلها الله سببا لمشيها، ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾؛ أي: الجوار ﴿رَوَاكِدَ﴾ علىٰ ظهر البحر، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا ينتقض هذا بالمراكب النارية، فإن من شرط مشيها وجود الريح.

وإن شاء الله تعالىٰ أوبق الجوار بما كسب أهلها، أي: أغرقها في البحر وأتلفها، ولكنه يحلم ويعفو عن كثير.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ أي: كثير الصبر علىٰ ما تكرهه نفسه ويشق عليها، فيكرهها عليه، من مشقة طاعة، أو ردع داع إلىٰ معصية، أو ردع نفسه عند المصائب عن التسخط، ﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء وعند النعم، يعترف بنعمة ربه ويخضع له، ويصرفها في مرضاته، فهذا الذي ينتفع بآيات الله.

وأما الذي لا صبر عنده، ولا شكر له عند نعم الله، فإنه معرض أو معاند لا ينتفع بالآيات.

[٣٥] ثم قال تعالىٰ: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ ليبطلوها بباطلهم، ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: لا ينقذهم منقذ مما حل بهم من العقوبة.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

﴿يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾ [الشورىٰ]

[٣٦] هذا تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة، وذكر الأعمال الموصلة إليها فقال: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ من ملك ورياسة، وأموال وبنين، وصحة وعافية بدنية. ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ لذة منغصة منقطعة. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب الجزيل، والأجر الجليل، والنعيم المقيم ﴿خَيۡرٞ﴾ من لذات الدنيا، خيرية لا نسبة بينهما ﴿وَأَبۡقَىٰ﴾ لأنه نعيم لا منغص فيه ولا كدر، ولا انتقال ثم ذكر لمن هذا الثواب فقال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان الصحيح المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة، وبين التوكل الذي هو الآلة لكل عمل، فكل عمل لا يصحبه التوكل فغير تام، وهو الاعتماد بالقلب علىٰ الله في جلب ما يحبه العبد، ودفع ما يكرهه مع الثقة به تعالىٰ.

[٣٧] ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ والفرق بين الكبائر والفواحش -مع أن جميعهما كبائر- أن الفواحش هي الذنوب الكبار التي في النفوس داع إليها، كالزنىٰ ونحوه، والكبائر ما ليس كذلك، هذا عند الاقتران، وأما مع إفراد كل منهما عن الآخر فإن الآخر يدخل فيه.

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾؛ أي: قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية، وحسن الخلق لهم طبيعة حتىٰ إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله، كظموا ذلك الغضب فلم ينفذوه؛ بل غفروه، ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح، فترتب علىٰ هذا العفو والصفح، من المصالح ودفع المفاسد في أنفسهم وغيرهم شيء كثير، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ [فُصِّلَت]

[٣٨] ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾؛ أي: انقادوا لطاعته، ولبَّوْا دعوته، وصار قصدهم رضوانه، وغايتهم الفوز بقربه.

ومن الاستجابة لله، إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فلذلك عطفهما علىٰ ذلك، من باب عطف العام علىٰ الخاص، الدال علىٰ شرفه وفضله فقال: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: ظاهرها وباطنها، فرضها ونفلها. ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ من النفقات الواجبة، كالزكاة والنفقة علىٰ الأقارب ونحوهم، والمستحبة،

كالصدقات علىٰ عموم الخلق.

﴿وَأَمْرُهُمْ﴾ الديني والدنيوي ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعا عن اجتماعهم وتوالفهم وتوادهم وتحاببهم وكمال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمرا من الأمور التي تحتاج إلىٰ إعمال الفكر والرأي فيها، اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها، حتىٰ إذا تبينت لهم المصلحة، انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي في الغزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء، أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عموما، فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية.

[٣٩] ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ﴾؛ أي: وصل إليهم من أعدائهم ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ لقوتهم وعزتهم، ولم يكونوا أذلاء عاجزين عن الانتصار.

فوصفهم بالإيمان، والتوكل علىٰ الله، واجتناب الكبائر والفواحش الذي تكفر به الصغائر، والانقياد التام، والاستجابة لربهم، وإقامة الصلاة، والإنفاق في وجوه الإحسان، والمشاورة في أمورهم، والقوة والانتصار علىٰ أعدائهم، فهذه خصال الكمال قد جمعوها، ويلزم من قيامها فيهم، فعل ما هو دونها، وانتفاء ضدها.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورىٰ]

[٤٠] ذكر الله في هذه الآية: مراتب العقوبات، وأنها علىٰ ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم.

فمرتبة العدل، جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ يجزيه أجرا عظيما، وثوابا كثيرا، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدل ذلك علىٰ أنه إذا كان الجاني لا يليق بالعفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورا به.

وفي جعل أجر العافي علىٰ الله مما يهيّج علىٰ العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به،

فكما يحب أن يعفو الله عنه، فَلْيَعْفُ عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يجنون علىٰ غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم.

[٤١] ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾؛ أي: انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾؛ أي: لا حرج عليهم في ذلك، ودل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ﴾[الشورىٰ:٣٩] وقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أنه لا بد من إصابة البغي والظلم ووقوعه.

وأما إرادة البغي علىٰ الغير، وإرادة ظلمه من غير أن يقع منه شيء، فهذا لا يجازىٰ بمثله، وإنما يؤدب تأديبا يردعه عن قول أو فعل صدر منه.

[٤٢] ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾؛ أي: إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهذا شامل للظلم والبغي علىٰ الناس، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: موجع للقلوب والأبدان، بحسب ظلمهم وبغيهم.

[٤٣] ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ علىٰ ما يناله من أذىٰ الخلق ﴿وَغَفَرَ﴾ لهم، بأن سمح لهم عما يصدر منهم، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾؛ أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر.

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر علىٰ الأذىٰ، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق؛ ولكنه يسير علىٰ من يسره الله عليه، وجاهد نفسه علىٰ الاتصاف به، واستعان الله علىٰ ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن

سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ [الشورىٰ]

[٤٤] يخبر تعالىٰ أنه المنفرد بالهداية والإضلال، وأنه ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بسبب ظلمه ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ يتولىٰ أمره ويهديه.

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ مرأىٰ ومنظرا فظيعا، صعبا شنيعا، يظهرون الندم العظيم، والحزن علىٰ ما سلف منهم، و﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾؛ أي: هل لنا طريق أو حيلة إلىٰ رجوعنا إلىٰ الدنيا، لنعمل غير الذي كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن.

[٤٥] ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: علىٰ النار ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾؛ أي: ترىٰ أجسامهم خاشعة للذل الذي في قلوبهم، ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾؛ أي: ينظرون إلىٰ النار مسارقة وشزرا، من هيبتها وخوفها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ حيث ظهرت عواقب الخلق، وتبين أهل الصدق من غيرهم: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ علىٰ الحقيقة ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حيث فوتوا أنفسهم جزيل الثواب، وحصلوا علىٰ أليم العقاب وفرق بينهم وبين أهليهم، فلم يجتمعوا بهم، آخر ما عليهم. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾؛ أي: في سوائه ووسطه، منغمرين لا يخرجون منه أبدا، و﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف].

[٤٦] ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كما كانوا في الدنيا يمنون أنفسهم بذلك، ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسبابهم التي أمّلوها تقطعت، وأنه حين جاءهم عذاب الله لم يدفع عنهم. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ تحصل به هدايته، فهؤلاء ضلوا حين زعموا في شركائهم النفع ودفع الضر، فتبين حينئذ ضلالهم.

﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورىٰ]

[٤٧] يأمر تعالىٰ عباده بالاستجابة له، بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهىٰ عنه، وبالمبادرة بذلك وعدم التسويف، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ﴾ يَوْم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده واستدراك الفائت، وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه، فيفوّت ربه ويهرب منه؛ بل قد أحاطت الملائكة بالخليقة من خلفهم، ونودوا

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾ [الرحمن] وليس للعبد في ذلك اليوم نكير لما اقترفه وأجرمه، بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه.

وهذه الآية ونحوها، فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد، فإن للتأخير آفات.

[٤٨] ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ عما [جئتم] به بعد البيان التام ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾ تحفظ أعمالهم وتسأل عنها، ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ فإذا أديت ما عليك، فقد وجب أجرك على الله، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحسابهم على الله الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها، وظاهرها وباطنها.

ثم ذكر تعالىٰ حالة الإنسان، وأنه إذا أذاقه الله رحمة، من صحة بدن، ورزق رغد، وجاه ونحوه ﴿فَرِحَ بِهَاۖ﴾؛ أي: فرح فرحا مقصورا عليها، لا يتعداها، ويلزم من ذلك طمأنينته بها، وإعراضه عن المنعم.

﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾؛ أي: مرض أو فقر، أو نحوهما ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾؛ أي: طبيعته كفران النعمة السابقة، والتسخط لما أصابه من السيئة.

﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٥٠﴾ [الشورىٰ]

[٤٩-٥٠] هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالىٰ، ونفوذ تصرفه في الملك في الخلق لما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، حتىٰ إن تدبيره تعالىٰ، من عمومه، أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب التي يباشرها العباد، فإن النكاح من الأسباب لولادة الأولاد، فالله تعالىٰ هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاء.

فمن الخلق من يهب له إناثا، ومنهم من يهب له ذكورا، ومنهم من يزوجه، أي: يجمع له ذكورا وإناثا، ومنهم من يجعله عقيما لا يولد له.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٞ﴾ بكل شيء ﴿قَدِيرٞ﴾ علىٰ كل شيء، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، وبقدرته في مخلوقاته.

﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا

ﭐلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورىٰ]

[٥١] لما قال المكذبون لرسل الله، الكافرون بالله: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ [البقرة:١١٨] من كبرهم وتجبرهم، رد الله عليهم بهذه الآية الكريمة، وأن تكليمه تعالىٰ لا يكون إلا لخواص خلقه، للأنبياء والمرسلين، وصفوته من العالمين، وأنه يكون علىٰ أحد هذه الأوجه.

إما أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ وَحْيًا بأن يلقي الوحي في قلب الرسول، من غير إرسال ملك، ولا مخاطبة منه شفاها.

﴿أَوْ﴾ يكلمه منه شفاها، لكنه ﴿مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ كما حصل لموسىٰ بن عمران كليم الرحمن.

﴿أَوْ﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي، فـ ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ كجبريل أو غيره من الملائكة.

﴿فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ﴾؛ أي: بإذن ربه، لا بمجرد هواه، ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالىٰ عليّ الذات، عليّ الأوصاف، عظيمها، عليّ الأفعال، قد قهر كل شيء، ودانت له المخلوقات. حكيم في وضعه كل شيء في موضعه، من المخلوقات والشرائع.

[٥٢] ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ حين أوحينا إلىٰ الرسل قبلك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ وهو هذا القرآن الكريم، سماه روحا، لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير.

وهو محض منّة الله علىٰ رسوله وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم، ولهذا قال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾؛ أي: قبل نزوله عليك ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾؛ أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية؛ بل كنت أميا لا تخط ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب الذي ﴿جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلىٰ الصراط المستقيم ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: تبينه لهم وتوضحه، وتنيره وترغبهم فيه، وتنهاهم عن ضده، وترهبهم منه.

[٥٣] ثم فسر الصراط المستقيم فقال: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾؛ أي: الصراط الذي نصبه الله لعباده، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلىٰ دار كرامته، ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ أي: ترجع جميع أمور الخير والشر، فيجازي كُلا بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

تم تفسير سورة الشورىٰ،

والحمد لله أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا، علىٰ تيسيره وتسهيله.

٤٣- تفسير سورة الزخرف

مكية

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥﴾ [الزُّخرُف]

[١-٣] هذا قسم بالقرآن علىٰ القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلق، ليدل علىٰ أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة.

﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ هذا المقسم عليه، أنه جعل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه. وذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان.

[٤] ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: هذا الكتاب ﴿لَدَيۡنَا﴾ في الملأ الأعلىٰ في أعلىٰ الرتب وأفضلها ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾؛ أي: لعلي في قدره وشرفه ومحله، حكيم فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان.

[٥] ثم أخبر تعالىٰ أن حكمته وفضله يقتضي ألا يترك عباده هملا لا يرسل إليهم رسولا ولا ينزل عليهم كتابا، ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾؛ أي: أفنعرض عنكم، ونترك إنزال الذكر إليكم، ونضرب عنكم صفحا، لأجل إعراضكم، وعدم انقيادكم له؟ بل ننزل عليكم الكتاب، ونوضح لكم فيه كل شيء، فإن آمنتم به واهتديتم، فهو من توفيقكم، وإلا قامت عليكم الحجة، وكنتم علىٰ بينة من أمركم.

﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٧ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨﴾ [الزُّخرُف]

[٦-٨] يقول تعالىٰ: إن هذه سنتنا في الخلق، ألا نتركهم هملا فكم ﴿أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾

يأمرونهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ولم يزل التكذيب موجودا في الأمم.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ جحدا لما جاء به، وتكبرا على الحق.

﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ﴾ من هؤلاء ﴿بَطْشًا﴾؛ أي: قوة وأفعالا وآثارا في الأرض، ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: مضت أمثالهم وأخبارهم، وبينا لكم منها ما فيه عبرة ومزدجر عن التكذيب والإنكار.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزُّخرُف]

[٩] يخبر تعالىٰ عن المشركين، أنك لو ﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ﴾ الله وحده لا شريك له، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي دانت لعزته جميع المخلوقات، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بظواهر الأمور وبواطنها، وأوائلها وأواخرها، فإذا كانوا مقرين بذلك، فكيف يجعلون له الولد والصاحبة والشريك؟! وكيف يشركون به من لا يخلق ولا يرزق، ولا يميت ولا يحيي؟!

[١٠] ثم ذكر أيضا من الأدلة الدالة علىٰ كمال نعمته واقتداره، بما خلقه لعباده من الأرض التي مهدها وجعلها قرارا للعباد، يتمكنون فيها من كل ما يريدون.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ أي: جعل منافذ بين سلاسل الجبال المتصلة، تنفذون منها إلىٰ ما وراءها من الأقطار، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ في السير في الطرق ولا تضيعون، ولعلكم أيضا تهتدون في الاعتبار بذلك والادكار فيه.

[١١] ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ لا يزيد ولا ينقص، ويكون أيضا بمقدار الحاجة، لا ينقص بحيث لا يكون فيه نفع، ولا يزيد بحيث يضر العباد والبلاد؛ بل أغاث به العباد، وأنقذ به البلاد من الشدة، ولهذا قال: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ﴾؛ أي: أحييناها بعد موتها، ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾؛ أي: فكما أحيا الأرض الميتة الهامدة بالماء، كذلك يحييكم بعد ما تستكملون في البرزخ، ليجازيكم بأعمالكم.

[١٢] ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾؛ أي: الأصناف جميعها، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، من ليل ونهار، وحر وبرد، وذكر وأنثىٰ، وغير ذلك، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: السفن

البحرية، الشراعية والنارية، مَا تَرْكَبُونَ ﴿وَ﴾ من ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾.

[١٣] ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ وهذا شامل لظهور الفلك ولظهور الأنعام، أي: لتستقروا عليها، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ بالاعتراف بالنعمة لمن سخرها، والثناء عليه تعالىٰ بذلك، ولهذا قال: ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾؛ أي: لولا تسخيره لنا ما سخر من الفلك، والأنعام، ما كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه، ولكن من لطفه وكرمه تعالىٰ، سخرها وذللها ويسر أسبابها والمقصود من هذا، بيان أن الرب الموصوف بما ذكره، من إفاضة النعم علىٰ العباد، هو الذي يستحق أن يعبد، ويصلىٰ له ويسجد.

[١٤]................

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزُّخرُف]

[١٥] يخبر تعالىٰ عن شناعة قول المشركين، الذين جعلوا لله تعالىٰ ولدا، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولم يكن له كفوا أحد، وإن ذلك باطل من عدة أوجه:

منها: أن الخلق كلهم عباده، والعبودية تنافي الولادة.

ومنها: أن الولد جزء من والده، والله تعالىٰ بائن من خلقه، مباين لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزء من الوالد، فمحال أن يكون لله تعالىٰ ولد.

[١٦] **ومنها**: أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومن المعلوم أن البنات أدون الصنفين، فكيف يكون لله البنات، ويصطفيهم بالبنين، ويفضلهم بها؟! فإذا يكونون أفضل من الله، تعالىٰ الله عن ذلك علوا

كبيرا.

[١٧] **ومنها**: أن الصنف الذي نسبوه لله، وهو البنات، أدون الصنفين، وأكرههما لهم، حتىٰ إنهم من كراهتهم لذلك ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ من كراهته وشدة بغضه، فكيف يجعلون لله ما يكرهون؟

[١٨] **ومنها**: أن الأنثىٰ ناقصة في وصفها، وفي منطقها وبيانها، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَوَ مَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾؛ أي: يجمل فيها، لنقص جماله، فيجمل بأمر خارج منه، ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ﴾؛ أي: عند الخصام الموجب لإظهار ما عند الشخص من الكلام، ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾؛ أي: غير مبين لحجته، ولا مفصح عما احتوىٰ عليه ضميره، فكيف ينسبونهن لله تعالىٰ؟

[١٩] **ومنها**: أنهم ﴿جَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾، فتجرأوا علىٰ الملائكة، العباد المقربين، ورقوهم عن مرتبة العبادة والذل، إلىٰ مرتبة المشاركة لله في شيء من خواصه، ثم نزلوا بهم عن مرتبة الذكورية إلىٰ مرتبة الأنوثية، فسبحان من أظهر تناقض من كذب عليه وعاند رسله.

ومنها: أن الله رد عليهم بأنهم لم يشهدوا خلق الله لملائكته، فكيف يتكلمون بأمر من المعلوم عند كل أحد، أنه ليس لهم به علم؟! ولكن لا بد أن يسألوا عن هذه الشهادة، وستكتب عليهم، ويعاقبون عليها.

[٢٠] وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾ فاحتجوا علىٰ عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها، عقلا وشرعا، فكل عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر، ولو سلكه في حالة من أحواله لم يثبت عليها قدمه.

وأما شرعا، فإن الله تعالىٰ أبطل الاحتجاج به، ولم يذكره عن غير المشركين به المكذبين لرسله، فإن الله تعالىٰ قد أقام الحجة علىٰ العباد، فلم يبق لأحد عليه حجة أصلا ولهذا قال هنا: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ أي: يتخرّصون تخرصا لا دليل عليه، ويتخبطون خبط عشواء.

[٢١] ثم قال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ يخبرهم بصحة أفعالهم، وصدق أقوالهم؟ ليس الأمر كذلك، فإن الله أرسل محمدا نذيرا إليهم، وهم لم يأتهم نذير غيره، أي: فلا عقل ولا نقل، وإذا انتفىٰ الأمران، فلا ثَمَّ إلا الباطل.

[٢٢] نعم، لهم شبهة من أوهىٰ الشُّبَه، وهي تقليد آبائهم الضالين، الذين ما زال الكفرة يردون بتقليدهم دعوة الرسل، ولهذا قال هنا: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾؛ أي: علىٰ دين وملة ﴿وَإِنَّا

عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾؛ أي: فلا نتبع ما جاء به محمد ﷺ.

[٢٣] ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾؛ أي: منعّموها وملؤها الذين أطغتهم الدنيا، وغرتهم الأموال، واستكبروا علىٰ الحق. ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾؛ أي: فهؤلاء ليسوا ببدع منهم، وليسوا بأول من قال هذه المقالة.

وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين، بتقليدهم لآبائهم الضالين، ليس المقصود به اتباع الحق والهدىٰ، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصرة ما معهم من الباطل.

[٢٤] ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾؛ أي: أفتتبعوني لأجل الهدىٰ؟ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فعلم بهذا، أنهم ما أرادوا اتباع الحق والهدىٰ، وإنما قصدهم اتباع الباطل والهوىٰ.

[٢٥] ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ﴾ بتكذيبهم الحق، وردهم إياه بهذه الشبهة الباطلة، ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فليحذر هؤلاء أن يستمروا علىٰ تكذيبهم، فيصيبهم ما أصابهم.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٨ بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ٢٩ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٠ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢﴾ [الزُّخرُف]

[٢٦] يخبر تعالىٰ عن ملة إبراهيم الخليل ﷺ، الذي ينتسب إليه أهل الكتاب والمشركون، وكلهم يزعم أنه علىٰ طريقته، فأخبر عن دينه الذي ورثه في ذريته فقال: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ﴾ الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ويتقربون إليهم: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾؛ أي: مبغض له، مجتنب معاد لأهله.

[٢٧] ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ فإني أتولاه، وأرجو أن يهديني للعلم بالحق والعمل بالحق، فكما فطرني ودبرني بما يصلح بدني ودنياي، فـ ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ لما يصلح ديني وآخرتي.

[٢٨] ﴿وَجَعَلَهَا﴾؛ أي: هذه الخصلة الحميدة، التي هي أم الخصال وأساسها، وهي إخلاص العبادة

لله وحده، والتبرِّي من عبادة ما سواه.

﴿كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾؛ أي: ذريته ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إليها ﴿يَرْجِعُونَ﴾ لشهرتها عنه، وتوصيته لذريته، وتوصية بعض بنيه -كإسحاق ويعقوب- لبعض، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠] إلىٰ آخر الآيات.

[٢٩] فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته ﷷ حتىٰ دخلهم الترف والطغيان.

فقال تعالىٰ: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بأنواع الشهوات، حتىٰ صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم، فلم تزل يتربىٰ حبها في قلوبهم، حتىٰ صارت صفات راسخة، وعقائد متأصلة. ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه ولا مرية ولا اشتباه. ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: بين الرسالة، قامت أدلة رسالته قياما باهرا، بأخلاقه ومعجزاته، وبما جاء به، وبما صدق به المرسلين، وبنفس دعوته ﷺ.

[٣٠] ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي يوجب علىٰ من له أدنىٰ دين ومعقول أن يقبله وينقاد له. ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل ولا جحده، فلم يرضوا حتىٰ قدحوا به قدحا شنيعا، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل، الذي لا يأتي به إلا أخبث الخلق وأعظمهم افتراء، والذي حملهم علىٰ ذلك، طغيانهم بما متعهم الله به وآباءهم.

[٣١] ﴿وَقَالُواْ﴾ مقترحين علىٰ الله بعقولهم الفاسدة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾؛ أي: معظم عندهم، مبجل من أهل مكة، أو أهل الطائف، كالوليد بن المغيرة ونحوه، ممن هو عندهم عظيم.

[٣٢] قال الله ردا لاقتراحهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؛ أي: أهم الخُزان لرحمة الله، وبيدهم تدبيرها، فيعطون النبوة والرسالة من يشاءون، ويمنعونها ممن يشاءون؟

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾؛ أي: في الحياة الدنيا، ﴿وَ﴾ الحال أن رحمة ﴿رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الدنيا.

فإذا كانت معايش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالىٰ، هو الذي يقسمها بين عباده، فيبسط الرزق علىٰ من يشاء، ويضيقه علىٰ من يشاء، بحسب حكمته، فرحمته الدينية، التي أعلاها النبوة والرسالة، أولىٰ وأحرىٰ أن تكون بيد الله تعالىٰ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ، وأن التدبير للأمور كلها، دينها ودنيويها، بيد الله وحده. هذا إقناع لهم،

من جهة غلطهم في الاقتراح، الذي ليس في أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم منهم ورد للحق.

وقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ لو عرفوا حقائق الرجال، والصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه، لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، هو أعظم الرجال قدرا، وأعلاهم فخرا، وأكملهم عقلا وأغزرهم علما، وأجلهم رأيا وعزما وحزما، وأكملهم خلقا، وأوسعهم رحمة، وأشدهم شفقة، وأهداهم وأتقاهم.

وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهىٰ في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم علىٰ الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه، إلا من ضل وكابر؛ فكيف يفضل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله؟!، ومن حزمه ومنتهىٰ عقله أن جعل إلهه الذي يعبده ويدعوه ويتقرب إليه صنما، أو شجرا، أو حجرا، لا يضر، ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وهو كلٌّ علىٰ مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه، فهل هذا إلا من فعل السفهاء والمجانين؟

فكيف يجعل مثل هذا عظيما؟ أم كيف يفضل علىٰ خاتم الرسل وسيد ولد آدم ﷺ؟ ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

وفي هذه الآية تنبيه علىٰ حكمة الله تعالىٰ في تفضيل الله بعض العباد علىٰ بعض في الدنيا ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾؛ أي: ليسخّر بعضهم بعضا، في الأعمال والحرف والصنائع.

فلو تساوىٰ الناس في الغنىٰ، ولم يحتج بعضهم إلىٰ بعض، لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم.

وفيها دليل علىٰ أن نعمته الدينية خير من النعمة الدنيوية كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس].

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٣٥﴾ [الزُّخرُف]

[٣٣-٣٥] يخبر تعالىٰ بأن الدنيا لا تسوىٰ عنده شيئا، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده، التي لا يقدم عليها شيئا، لوسّع الدنيا علىٰ الذين كفروا توسيعا عظيما، ولجعل ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾؛ أي: درجا من فضة ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ علىٰ سطوحهم ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ من فضة، ولجعل لهم ﴿زُخْرُفًا﴾؛ أي: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وأعطاهم ما يشتهون، ولكن

منعه من ذلك رحمته بعباده خوفا عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي بسبب حب الدنيا، ففي هذا دليل علىٰ أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعا عاما أو خاصا لمصالحهم، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا، منغصة، مكدرة، فانية، وأن الآخرة عند الله تعالىٰ خير للمتقين لربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، لأن نعيمها تام كامل من كل وجه، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون، فما أشد الفرق بين الدارين.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزُّخرُف]

[٣٦] يخبر تعالىٰ عن عقوبته البليغة، بمن أعرض عن ذكره، فقال: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾؛ أي: يعرض ويصد ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي هو القرآن العظيم، الذي هو أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده، فمن قبلها، فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب والرغائب، ومن أعرض عنها وردها، فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبدا، وقيَّض له الرحمن شيطانا مريدا، يقارنه ويصاحبه، ويعده ويمنيه، ويؤزه إلىٰ المعاصي أزا.

[٣٧] ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: الصراط المستقيم، والدين القويم. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له، وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا.

فإن قيل: فهل لهذا من عذر، من حيث إنه ظن أنه مهتد، وليس كذلك؟

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله، الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله، مع تمكنهم علىٰ الاهتداء، فزهدوا في الهدىٰ مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل، فالذنب ذنبهم، والجرم جرمهم.

[٣٨] فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر الله في الدنيا، مع قرينه، وهو الضلال والغيّ، وانقلاب الحقائق. وأما حاله، إذا جاء ربه في الآخرة، فهو شر الأحوال، وهو: إظهار الندم والتحسر، والحزن الذي لا يجبر مصابه، والتبرِّي من قرينه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان].

[٣٩] وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾؛ أي: ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب، أنتم وقرناؤكم وأخلاؤكم، وذلك لأنكم اشتركتم في الظلم، فاشتركتم في عقابه وعذابه.

ولن ينفعكم أيضا: روح التسلي في المصيبة، فإن المصيبة إذا وقعت في الدنيا، واشترك فيها المعاقبون، هان عليهم بعض الهون، وتسلَّىٰ بعضهم ببعض، وأما مصيبة الآخرة، فإنها جمعت كل عقاب، ما فيه أدنىٰ راحة، حتىٰ ولا هذه الراحة. نسألك يا ربنا العافية، وأن تريحنا برحمتك.

﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٤٠ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ۝٤١ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ۝٤٢ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ۝٤٤ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ۝٤٥﴾ [الزُّخرُف]

[٤٠] يقول تعالىٰ لرسوله ﷺ مسليا له عن امتناع المكذبين عن الاستجابة له، وأنهم لا خير فيهم، ولا فيهم زكاء يدعوهم إلىٰ الهدىٰ: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾؛ أي: الذين لا يسمعون ﴿أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ الذين لا يبصرون، أو تهدي ﴿مَن﴾ هو ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾؛ أي: بَيِّنٌ واضح، لعلمه بضلاله، ورضاه به.

فكما أن الأصم لا يسمع الأصوات، والأعمىٰ لا يبصر، والضال ضلالا مبينا لا يهتدي، فهؤلاء قد فسدت فطرهم وعقولهم بإعراضهم عن الذكر، واستحدثوا عقائد فاسدة، وصفات خبيثة، تمنعهم وتحول بينهم وبين الهدىٰ، وتوجب لهم الازدياد من الردىٰ.

[٤١] فهؤلاء لم يبق إلا عذابهم ونكالهم، إما في الدنيا، أو في الآخرة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾؛ أي: فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من العذاب، فاعلم بخبرنا الصادق أنا منهم منتقمون.

[٤٢] ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾ من العذاب ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ ولكن ذلك متوقف علىٰ اقتضاء الحكمة لتعجيله أو تأخيره، فهذه حالك وحال هؤلاء المكذبين.

[٤٣] وأما أنت ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ﴾ فعلا واتصافًا، بما يأمر بالاتصاف به ودعوة إليه، وحرصا علىٰ تنفيذه في نفسك وفي غيرك، ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ موصل إلىٰ الله وإلىٰ دار كرامته، وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء إذا علمت أنه حق وعدل وصدق، تكون بانيا علىٰ

أصل أصيل، إذا بنىٰ غيرك علىٰ الشكوك والأوهام، والظلم والجور.

[٤٤] ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: هذا القرآن الكريم ذكر ﴿لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾؛ أي: فخر لكم، ومنقبة جليلة، ونعمة لا يقادر قدرها، ولا يعرف وصفها، ويذكركم أيضا ما فيه الخير الدنيوي والأخروي، ويحثكم عليه، ويذكركم الشر ويرهبكم عنه، ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ عنه، هل قمتم به فارتفعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به فيكون حجة عليكم، وكفرا منكم بهذه النعمة؟

[٤٥] ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ حتىٰ يكون للمشركين نوع حجة، يتبعون فيها أحدا من الرسل، فإنك لو سألتهم واستخبرت عن أحوالهم، لم تجد أحدا منهم يدعو إلىٰ اتخاذ إله آخر مع الله وأن كل الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم يدعون إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له. قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل:٣٦] وكل رسول بعثه الله، يقول لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، فدل هذا أن المشركين ليس لهم مستند في شركهم، لا من عقل صحيح، ولا نقل عن الرسل.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٦ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ٤٧ وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤٨ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ٤٩ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ٥٠ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٥١ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ٥٣ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٥ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ٥٦﴾ [الزُّخرُف]

[٤٦] لما قال تعالىٰ: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ٤٥﴾ [الزخرف] بين تعالىٰ حال موسىٰ ودعوته، التي هي أشهر ما يكون من دعوات الرسل، ولأن الله تعالىٰ أكثر من ذكرها في كتابه، فذكر حاله مع فرعون، فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التي دلت دلالة قاطعة علىٰ صحة ما جاء به، كالعصا، والحية، وإرسال الجراد، والقمل، إلىٰ آخر الآيات.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فدعاهم إلىٰ الإقرار بربهم، ونهاهم عن عبادة ما سواه.

[٤٧-٤٨] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾؛ أي: ردوها وأنكروها، واستهزؤوا بها، ظلما وعلوا، فلم يكن لقصور بالآيات، وعدم وضوح فيها، ولهذا قال ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَاۖ﴾؛ أي: الآية المتأخرة أعظم من السابقة، ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كالجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلىٰ الإسلام، ويذعنون له، ليزول شركهم وشرهم.

[٤٩] ﴿وَقَالُواْ﴾ عندما نزل عليهم العذاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ يعنون موسىٰ ﷺ، وهذا، إما من باب التهكم به، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم مدحا، فتضرعوا إليه بأن خاطبوه بما يخاطبون به من يزعمون أنهم علماؤهم، وهم السحرة، فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾؛ أي: بما خصك الله به، وفضلك به، من الفضائل والمناقب، أن يكشف عنا العذاب ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ إن كشف الله عنا ذلك.

[٥٠] ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾؛ أي: لم يفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمروا علىٰ كفرهم. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف].

[٥١] ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ﴾ مستعليا بباطله، قد غره ملكه، وأطغاه ماله وجنوده: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾؛ أي: ألست المالك لذلك، المتصرف فيه، ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۖ﴾؛ أي: الأنهار المنسحبة من النيل، في وسط القصور والبساتين. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا الملك الطويل العريض، وهذا من جهله البليغ، حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته، ولم يفخر بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة.

[٥٢] ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ يعني -قبحه الله- بالمهين، موسىٰ بن عمران، كليم الرحمن، الوجيه عند الله، أي: أنا العزيز، وهو الذليل المهان المحتقر، فأينا خير؟ ﴿وَ﴾ مع هذا فـ

﴿يَكَادُ يُبِينُ﴾ عما في ضميره بالكلام، لأنه ليس بفصيح اللسان، وهذا ليس من العيوب في شيء، إذا كان يبين ما في قلبه، ولو كان ثقيلا عليه الكلام.

[٥٣] ثم قال فرعون: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾؛ أي: فهلا كان موسىٰ بهذه الحالة، أن يكون مزينا مجملا بالحلي والأساور؟ ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يعاونونه علىٰ دعوته، ويؤيدونه علىٰ قوله.

[٥٤] ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾؛ أي: استخف عقولهم بما أبدىٰ لهم من هذه الشبه، التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلا علىٰ حق ولا علىٰ باطل، ولا تروج إلا علىٰ ضعفاء العقول.

فأي دليل يدل علىٰ أن فرعون محق، لكون ملك مصر له، وأنهاره تجري من تحته؟

وأي دليل يدل علىٰ بطلان ما جاء به موسىٰ لقلة أتباعه، وثقل لسانه، وعدم تحلية الله له، ولكنه لقي ملأ لا معقول عندهم، فمهما قال اتبعوه، من حق وباطل. ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ فبسبب فسقهم قيض لهم فرعون يزين لهم الشرك والشر.

[٥٥-٥٦] ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾؛ أي: أغضبونا بأفعالهم ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ ليعتبر بهم المعتبرون، ويتعظ بأحوالهم المتعظون.

﴿۞وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ [الزُّخرُف]

[٥٧] يقول تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾؛ أي: نهي عن عبادته، وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد. ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ المكذبون لك ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من أجل هذا المثل المضروب، ﴿يَصِدُّونَ﴾؛ أي: يستلجون في خصومتهم لك، ويصيحون، ويزعمون أنهم قد غلبوا في حجتهم،

وأفلجوا.

[٥٨] ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ يعني: عيسىٰ، حيث نهي عن عبادة الجميع، وشورك بينهم بالوعيد علىٰ من عبدهم، ونزل أيضا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء]، ووجه حجتهم الظالمة، أنهم قالوا: قد تقرر عندنا وعندك يا محمد، أن عيسىٰ من عباد الله المقربين، الذين لهم العاقبة الحسنة، فلم سويت بينه وبينها في النهي عن عبادة الجميع؟ فلولا أن حجتك باطلة لم تتناقض.

ولم قلت: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء] وهذا اللفظ بزعمهم يعم الأصنام، وعيسىٰ، فهل هذا إلا تناقض؟ وتناقض الحجة دليل علىٰ بطلانها، هذا أنهىٰ ما يقررون به هذه الشبهة الذين فرحوا بها واستبشروا، وجعلوا يصدون ويتباشرون.

وهي -ولله الحمد- من أضعف الشبه وأبطلها، فإن تسوية الله بين النهي عن عبادة المسيح، وبين النهي عن عبادة الأصنام، لأن العبادة حق لله تعالىٰ، لا يستحقها أحد من الخلق، لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا من سواهم من الخلق، فأي شبهة في تسوية النهي عن عبادة عيسىٰ وغيره؟

[٥٩] وليس تفضيل عيسىٰ عليه السلام، وكونه مقربا عند ربه ما يدل علىٰ الفرق بينه وبينها في هذا الموضع، وإنما هو كما قال تعالىٰ: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾.

بالنبوة والحكمة والعلم والعمل، ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ يعرفون به قدرة الله تعالىٰ علىٰ إيجاده من دون أب.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء] فالجواب عنها من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن قوله: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أن ﴿مَا﴾ اسم لما لا يعقل، لا يدخل فيه المسيح ونحوه.

الثاني: أن الخطاب للمشركين، الذين بمكة وما حولها، وهم إنما يعبدون أصناما وأوثانا ولا يعبدون المسيح.

الثالث: أن الله قال بعد هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۝١٠١﴾[الأنبياء] فلا شك أن عيسىٰ وغيره من الأنبياء والأولياء، داخلون في هذه الآية.

[٦٠] ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾؛ أي: لجعلنا بدلكم ملائكة يخلفونكم في الأرض، ويكونون في الأرض حتىٰ نرسل إليهم ملائكة من جنسهم، وأما أنتم يا معشر البشر، فلا تطيقون أن ترسل إليكم الملائكة، فمن رحمة الله بكم، أن أرسل إليكم رسلا من جنسكم، تتمكنون من الأخذ عنهم.

[٦١] ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾؛ أي: وإن عيسىٰ ﷺ، لدليل علىٰ الساعة، وأن القادر علىٰ إيجاده من أم بلا أب، قادر علىٰ بعث الموتىٰ من قبورهم، أو وإن عيسىٰ ﷺ، سينزل في آخر الزمان، ويكون نزوله علامة من علامات الساعة ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾؛ أي: لا تشكن في قيام الساعة، فإن الشك فيها كفر. ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾ بامتثال ما أمرتكم، واجتناب ما نهيتكم، ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ موصل إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

[٦٢] ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ﴾ عما أمركم الله به، فإن الشيطان ﴿لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ حريص علىٰ إغوائكم، باذل جهده في ذلك.

[٦٣] ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الدالة علىٰ صدق نبوته وصحة ما جاءهم به، من إحياء الموتىٰ، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات. ﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ النبوة والعلم، بما ينبغي علىٰ الوجه الذي ينبغي. ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾؛ أي: أبين لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم بذلك اللبس، فجاء ﷺ مكملا ومتمما لشريعة موسىٰ ﷺ، ولأحكام التوراة. وأتىٰ ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاءهم به. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وآمنوا بي وصدقوني ﴿وَأَطِيعُونِ﴾.

[٦٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية، بأن الله هو المربي جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، والإقرار بتوحيد العبودية، بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخبار عيسىٰ ﷺ أنه عبد من عباد الله، ليس كما قال النصارىٰ فيه: "إنه ابن الله أو ثالث ثلاثة" والإخبار بأن هذا المذكور صراط مستقيم، موصل إلىٰ الله وإلىٰ جنته.

[٦٥] فلما جاءهم عيسىٰ ﷺ بهذا ﴿ٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ المتحزبون علىٰ التكذيب ﴿مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ كل قال بعيسىٰ ﷺ مقالة باطلة، ورد ما جاء به، إلا من هدىٰ الله من المؤمنين، الذين شهدوا له بالرسالة، وصدقوا بكل ما جاء به، وقالوا: إنه عبد الله ورسوله.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: ما أشد حزن الظالمين وما أعظم خسارهم في ذلك اليوم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٦٦ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٦٩ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝٧١ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٣﴾ [الزُّخرُف]

[٦٦] يقول تعالىٰ: ما ينتظر المكذبون، وهل يتوقعون ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: فإذا جاءت، فلا تسأل عن أحوال من كذب بها، واستهزأ بمن جاء بها.

[٦٧] وإن الأخلاء يوم القيامة، المتخالين علىٰ الكفر والتكذيب ومعصية الله، ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأن خلتهم ومحبتهم في الدنيا لغير الله، فانقلبت يوم القيامة عداوة. ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ للشرك والمعاصي، فإن محبتهم تدوم وتتصل، بدوام من كانت المحبة لأجله.

[٦٨] ثم ذكر ثواب المتقين، وأن الله تعالىٰ يناديهم يوم القيامة بما يسر قلوبهم، ويذهب عنهم كل آفة وشر، فيقول: ﴿يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

أي: لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضىٰ منها، وإذا انتفىٰ المكروه من كل وجه، ثبت المحبوب المطلوب.

[٦٩] ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: وصفهم الإيمان بآيات الله، وذلك ليشمل [للتصديق] بها، وما لا يتم التصديق إلا به، من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها. ﴿وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ لله منقادين له في جميع أحوالهم، فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن.

[٧٠] ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي هي دار القرار ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾؛ أي: من كان علىٰ مثل عملكم، من كل مقارن لكم، من زوجة، وولد، وصاحب، وغيرهم. ﴿تُحْبَرُونَ﴾؛ أي: تنعمون وتكرمون، ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات والسرور والأفراح واللذات، ما لا تعبر الألسن عن وصفه.

[٧١] ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾؛ أي: تدور عليهم خدامهم، من الولدان المخلدين بطعامهم، بأحسن الأواني وأفخرها، وهي صحاف الذهب وشرابهم، بألطف الأواني، وهي

الأكواب التي لا عرىٰ لها، وهي من أصفىٰ الأواني، من فضة أعظم من صفاء القوارير.

﴿وَفِيهَا﴾؛ أي: الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُۖ﴾ وهذا لفظ جامع، يأتي علىٰ كل نعيم وفرح، وقرة عين، وسرور قلب، فكل ما اشتهته النفوس، من مطاعم، ومشارب، وملابس، ومناكح، ولذته العيون، من مناظر حسنة، وأشجار محدقة، ونعم مونقة، ومبان مزخرفة، فإنه حاصل فيها، معد لأهلها، علىٰ أكمل الوجوه وأفضلها، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧﴾ [يس] ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة، وهو الخلد الدائم فيها، الذي يتضمن دوام نعيمها وزيادته، وعدم انقطاعه.

[٧٢] ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ الموصوفة بأكمل الصفات، هي ﴿ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: أورثكم الله إياها بأعمالكم، وجعلها من فضله جزاء لها، وأودع فيها من رحمته ما أودع.

[٧٣] ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ كما في الآية الأخرىٰ: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ٥٢﴾ [الرحمن:٥٢] ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ أي: مما تتخيرون من تلك الفواكه الشهية، والثمار اللذيذة تأكلون ولما ذكر نعيم الجنة، عقبه بذكر عذاب جهنم، فقال:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ٧٥ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٨﴾ [الزُّخرُف]

[٧٤] ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: منغمرون فيه، محيط بهم العذاب من كل جانب، ﴿خَٰلِدُونَ﴾ فيه، لا يخرجون منه أبدا.

[٧٥] و ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ساعة، لا بإزالته، ولا بتهوين عذابه، ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾؛ أي: آيسون من كل خير، غير راجين للفرج، وذلك أنهم ينادون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون].

[٧٦] وهذا العذاب العظيم، بما قدمت أيديهم، وبما ظلموا به أنفسهم. والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم.

[٧٧] ﴿وَنَادَوْا۟﴾ وهم في النار، لعلهم يحصل لهم استراحة، ﴿ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ﴾؛ أي: ليمتنا فنستريح، فإننا في غم شديد، وعذاب غليظ، لا صبر لنا عليه ولا جلد. فـ ﴿قَالَ﴾ لهم مالك خازن

النار -حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضي عليهم-: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾؛ أي: مقيمون فيها، لا تخرجون عنها أبدا، فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غما إلىٰ غمهم.

[٧٨] ثم وبخهم بما فعلوا فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ الذي يوجب عليكم أن تتبعوه فلو تبعتموه، لفزتم وسعدتم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ فلذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزُّخرُف]

[٧٩] يقول تعالىٰ: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ﴾؛ أي: أبرم المكذبون بالحق المعاندون له ﴿أَمْرًا﴾؛ أي: كادوا كيدا، ومكروا للحق ولمن جاء بالحق، ليدحضوه، بما موهوا من الباطل المزخرف المزوق، ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾؛ أي: محكمون أمرا، ومدبرون تدبيرا يعلو تدبيرهم، وينقضه ويبطله، وهو ما قيضه الله من الأسباب والأدلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٨].

[٨٠] ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ بجهلهم وظلمهم ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ الذي لم يتكلموا به؛ بل هو سر في قلوبهم ﴿وَنَجْوَىٰهُم ۚ﴾؛ أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به، أي: فلذلك أقدموا علىٰ المعاصي، وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة علىٰ ما خفي منها.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾؛ أي: إنا نعلم سرهم ونجواهم، ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الملائكة الكرام، ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ كل ما عملوه، وسيحفظ ذلك عليهم، حتىٰ يردوا القيامة، فيجدوا ما عملوا حاضرا، ولا يظلم ربك أحدا.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [الزُّخرُف]

[٨١] أي: قل يا أيها الرسول الكريم، للذين جعلوا لله ولدا، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولم يكن له كفوا أحد. ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ لذلك الولد، لأنه جزء من والده، وأنا أول الخلق انقيادا للأمور المحبوبة لله، ولكني أول المنكرين لذلك، وأشدهم له نفيا، فعلم بذلك بطلانه، فهذا احتجاج عظيم عند من عرف أحوال الرسل، وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق، وأن كل خير فهم أول الناس سبقا إليه وتكميلا له، وكل شر فهم أول الناس تركا له

وإنكارا له وبعدا منه، فلو كان للرحمن ولد وهو الحق، لكان محمد بن عبد الله أفضل الرسل أول من عبده، ولم يسبقه إليه المشركون ويحتمل أن معنىٰ الآية: لو كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين لله، ومن عبادتي لله، إثبات ما أثبته، ونفي ما نفاه، فهذا من العبادة القولية الاعتقادية، ويلزم من هذا، لو كان حقا، لكنت أول مثبت له، فعلم بذلك بطلان دعوىٰ المشركين وفسادها، عقلا ونقلا.

[٨٢] ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الشريك والظهير، والعوين، والولد، وغير ذلك، مما نسبه إليه المشركون.

[٨٣] ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾؛ أي: يخوضوا بالباطل، ويلعبوا بالمحال، فعلومهم ضارة غير نافعة، وهي الخوض والبحث بالعلوم التي يعارضون بها الحق وما جاءت به الرسل، وأعمالهم لعب وسفاهة، لا تزكي النفوس، ولا تثمر المعارف.

ولهذا توعدهم بما أمامهم من يوم القيامة فقال: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ فسيعلمون فيه ماذا حصلوا، وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم، والعذاب المستمر.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٨٤ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٥ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٨٦ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٨٧ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾ [الزُّخرُف]

[٨٤] يخبر تعالىٰ أنه وحده المألوه المعبود في السَّمٰوات والأرض، فأهل السَّمٰوات كلهم، والمؤمنون من أهل الأرض، يعبدونه، ويعظمونه، ويخضعون لجلاله، ويفتقرون لكماله. ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[الإسراء:٤٤] ﴿وَلِلَّهِۦ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾[الرعد:١٥].

فهو تعالىٰ المألوه المعبود، الذي يألهه الخلائق كلهم، طائعين مختارين، وكارهين. وهذه كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[الأنعام:٣] أي: ألوهيته ومحبته فيهما. وأما هو فإنه فوق عرشه، بائن من خلقه، متوحد بجلاله، متمجد بكماله، ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه، فما خلق شيئا إلا لحكمة، ولا شرع شيئا إلا لحكمة، وحكمه القدري والشرعي والجزائي

مشتمل علىٰ الحكمة. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بكل شيء، يعلم السر وأخفىٰ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في العالم العلوي والسفلي، ولا أصغر منها ولا أكبر.

[٨٥] ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ تبارك بمعنىٰ تعالىٰ وتعاظم، وكثر خيره، واتسعت صفاته، وعظم ملكه. ولهذا ذكر سعة ملكه للسموات والأرض وما بينهما، وسعة علمه، وأنه بكل شيء عليم، حتىٰ إنه تعالىٰ، انفرد بعلم الغيوب، التي لم يطلع عليها أحد من الخلق، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولهذا قال: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ قدم الظرف، ليفيد الحصر، أي: لا يعلم متىٰ تجيء الساعة إلا هو، ومن تمام ملكه وسعته، أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ أي: في الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل.

[٨٦] ومن تمام ملكه، أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئا، ولا يقدم علىٰ الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه. ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾؛ أي: كل من دعي من دون الله، من الأنبياء والملائكة وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا يشفعون إلا لمن ارتضىٰ، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: نطق بلسانه، مقرا بقلبه، عالما بما شهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالىٰ بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاءوا به، من أصول الدين وفروعه، وحقائقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وهؤلاء الناجون من عذاب الله، الحائزون لثوابه.

[٨٧] ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾؛ أي: ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق، لأقروا أنه الله وحده لا شريك له.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾؛ أي: فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟!

فإقرارهم بتوحيد الربوبية، يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة علىٰ بطلان الشرك.

[٨٨] ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ هذا معطوف علىٰ قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: وعنده علم قيله، أي: الرسول ﷺ، شاكيا لربه تكذيب قومه، متحزنا علىٰ ذلك، متحسرا علىٰ عدم إيمانهم، فالله تعالىٰ عالم بهذه الحال، قادر علىٰ معاجلتهم بالعقوبة؛ ولكنه تعالىٰ حليم، يمهل العباد ويستأني بهم، لعلهم يتوبون ويرجعون.

[٨٩] ولهذا قال: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾؛ أي: اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذي يقابل به أولو الألباب والبصائر الجاهلين، كما قال تعالىٰ عن عباده الصالحين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾؛ أي: خطابا بمقتضىٰ جهلهم ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا ۝٦٣﴾ [الفرقان] فامتثل ﷺ، لأمر ربه، وتلقىٰ ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذىٰ، بالعفو والصفح، ولم يقابلهم عليه إلا بالإحسان إليهم والخطاب الجميل.

فصلوات الله وسلامه علىٰ من خصه الله بالخلق العظيم، الذي فضل به أهل الأرض والسماء، وارتفع به أعلىٰ من كواكب الجوزاء.

وقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: غِبَّ ذنوبهم، وعاقبة جرمهم.

تم تفسير سورة الزخرف ولله الحمد والمنة.

٤٤- تَفْسِيرُ سُورَةِ الدُّخَانِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ٩ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ١٥ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾ [الدخان]

[١-٣] هذا قسم بالقرآن علىٰ القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلىٰ بيانه أنه أنزله ﴿فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾؛ أي: كثيرة الخير والبركة وهي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام علىٰ أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام لينذر به قوما عمتهم الجهالة وغلبت عليهم الشقاوة فيستضيئوا بنوره ويقتبسوا من هداه ويسيروا وراءه فيحصل لهم الخير الدنيوي والخير الأخروي ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

[٤] ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الليل الفاضلة التي نزل فيها القرآن ﴿يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾؛ أي: يفصل ويميز ويكتب كل أمر قدري وشرعي حكم الله به، وهذه الكتابة والفرقان، الذي يكون في ليلة القدر إحدىٰ الكتابات التي تكتب وتميز فتطابق الكتاب الأول الذي كتب الله به مقادير الخلائق وآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم، ثم إن الله تعالىٰ قد وكل ملائكة تكتب ما سيجري علىٰ العبد وهو في بطن أمه، ثم وكلهم بعد خروجه إلىٰ الدنيا وكل به كراما كاتبين يكتبون ويحفظون عليه أعماله، ثم إنه تعالىٰ يقدر في ليلة القدر ما يكون في السنة، وكل هذا من تمام علمه وكمال حكمته وإتقان حفظه واعتنائه

تعالىٰ بخلقه.

[٥] ﴿أَمۡرًا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾؛ أي: هذا الأمر الحكيم أمر صادر من عندنا.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ للرسل ومنزلين للكتب والرسل تبلغ أوامر المرسل وتخبر بأقداره.

[٦] ﴿رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ أي: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة فإنه من أجل ذلك وبسببه، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ أي: يسمع جميع الأصوات ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة وقد علم تعالىٰ ضرورة العباد إلىٰ رسله وكتبه فرحمهم بذلك ومن عليهم فلله تعالىٰ الحمد والمنة والإحسان.

[٧-٨] ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾؛ أي: خالق ذلك ومدبره والمتصرف فيه بما يشاء. ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾؛ أي: عالمين بذلك علما مفيدا لليقين فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق ولهذا قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود إلا وجهه، ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾؛ أي: هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة وسيجمعكم بعد موتكم فيجزيكم بعملكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ أي: رب الأولين والآخرين مربيهم بالنعم الدافع عنهم النقم.

[٩] فلما قرر تعالىٰ ربوبيته وألوهيته بما يوجب العلم التام ويدفع الشك أخبر أن الكافرين مع هذا البيان ﴿فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾؛ أي: منغمرون في الشكوك والشبهات غافلون عما خلقوا له قد اشتغلوا باللعب الباطل، الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر.

[١٠-١٦] ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾؛ أي: انتظر فيهم العذاب فإنه قد قرب وآن أوانه، ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾؛ أي: يعمهم ذلك الدخان ويقال لهم: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

واختلف المفسرون في المراد بهذا الدخان، فقيل: إنه الدخان الذي يغشىٰ الناس ويعمهم حين تقرب النار من المجرمين في يوم القيامة وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم.

ويؤيد هذا المعنىٰ أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن في توعد الكفار والتأني بهم وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم.

ويؤيده أيضا أنه قال في هذه الآية: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ وهذا يقال يوم القيامة للكفار حين يطلبون الرجوع إلىٰ الدنيا فيقال: قد ذهب وقت الرجوع وقيل: إن المراد بذلك ما أصاب

كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان واستكبروا علىٰ الحق فدعا عليهم النبي ﷺ فقال: (((اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف))) فأرسل الله عليهم الجوع العظيم حتىٰ أكلوا الميتات والعظام وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان وليس به، وذلك من شدة الجوع.

فيكون -علىٰ هذا- قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ﴾ أن ذلك بالنسبة إلىٰ أبصارهم وما يشاهدون وليس بدخان حقيقة.

ولم يزالوا بهذه الحالة حتىٰ استرحموا رسول الله ﷺ وسألوه أن يدعو الله لهم أن يكشفه الله عنهم فدعا ربه فكشفه الله عنهم، وعلىٰ هذا فيكون قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ إخبار بأن الله سيصرفه عنهم وتوعد لهم أن يعودوا إلىٰ الاستكبار والتكذيب وإخبار بوقوعه فوقع وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرىٰ، قالوا: وهي وقعة بدر وفي هذا القول نظر ظاهر.

وقيل: إن المراد بذلك أن ذلك من أشراط الساعة وأنه يكون في آخر الزمان دخان يأخذ بأنفاس الناس ويصيب المؤمنين منهم كهيئة الدخان، والقول هو الأول، وفي الآية احتمال أن المراد بقوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤﴾ أن هذا كله يكون يوم القيامة.

وأن قوله تعالىٰ ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ أن هذا ما وقع لقريش كما تقدم وإذا أنزلت هذه الآيات علىٰ هذين المعنيين لم تجد في اللفظ ما يمنع من ذلك.

بل تجدها مطابقة لهما أتم المطابقة وهذا الذي يظهر عندي ويترجح والله أعلم.

﴿۞وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝١٧ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٩ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ۝٢١ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ۝٢٢ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ۝٢٩ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ

﴿٣٠ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٢ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ٣٣﴾ [الدخان]

[١٧] لما ذكر تعالىٰ تكذيب من كذب الرسول محمدا ﷺ ذكر أن لهم سلفا من المكذبين، فذكر قصتهم مع موسىٰ وما أحل الله بهم ليرتدع هؤلاء المكذبون عما هم عليه فقال: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ أي: ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا موسىٰ بن عمران إليهم الرسول الكريم الذي فيه من الكرم ومكارم الأخلاق ما ليس في غيره.

[١٨] ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: قال لفرعون وملئه: أدوا إلي عباد الله، يعني بهم: بني إسرائيل أي: أرسلوهم وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم سوء العذاب فإنهم عشيرتي وأفضل العالمين في زمانهم. وأنتم قد ظلمتموهم واستعبدتموهم بغير حق فأرسلوهم ليعبدوا ربهم، ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾؛ أي: رسول من رب العالمين أمين علىٰ ما أرسلني به لا أكتمكم منه شيئا ولا أزيد فيه ولا أنقص وهذا يوجب تمام الانقياد له.

[١٩] ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ بالاستكبار عن عبادته والعلو علىٰ عباد الله، ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾؛ أي: بحجة بينة ظاهرة وهو ما أتىٰ به من المعجزات الباهرات والأدلة القاهرات.

[٢٠] فكذبوه وهموا بقتله فلجأ إلىٰ الله من شرهم فقال: ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ﴾؛ أي: تقتلوني أشر القتلات بالرجم بالحجارة.

[٢١] ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ﴾؛ أي: لكم ثلاث مراتب: الإيمان بي وهو مقصودي منكم فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة ﴿فَٱعۡتَزِلُونِ﴾ لا علي ولا لي، فاكفوني شركم. فلم تحصل منهم المرتبة الأولىٰ ولا الثانية؛ بل لم يزالوا متمردين عاتين علىٰ الله محاربين لنبيه موسىٰ ﵇ غير ممكنين له من قومه بني إسرائيل.

[٢٢] ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾؛ أي: قد أجرموا جرما يوجب تعجيل العقوبة.

فأخبر ﵇ بحالهم وهذا دعاء بالحال التي هي أبلغ من المقال، كما قال عن نفسه ﵇ ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ [القصص].

[٢٣] فأمره الله أن يسري بعباده ليلا وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه.

[٢٤] ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾؛ أي: بحاله وذلك أنه لما سرىٰ موسىٰ ببني إسرائيل كما أمره الله ثم

تبعهم فرعون فأمر الله موسىٰ أن يضرب البحر فضربه فصار اثني عشر طريقا وصار الماء من بين تلك الطرق كالجبال العظيمة فسلكه موسىٰ وقومه، فلما خرجوا منه أمره الله أن يتركه ﴿رَهْوًا﴾؛ أي: بحاله ليسلكه فرعون وجنوده ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ فلما تكامل قوم موسىٰ خارجين منه وقوم فرعون داخلين فيه أمره الله تعالىٰ أن يلتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا وأورثه الله بني إسرائيل الذين كانوا مستعبدين لهم.

[٢٥-٢٨] ولهذا قال: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾؛ أي هذه النعمة المذكورة ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ وفي الآية الأخرىٰ ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء].

[٢٩] ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: لما أتلفهم الله وأهلكهم لم تبك عليهم السماء والأرض أي لم يحزن عليهم ولم يؤس علىٰ فراقهم؛ بل كل استبشر بهلاكهم وتلفهم حتىٰ السماء والأرض؛ لأنهم ما خلفوا من آثارهم إلا ما يسود وجوههم ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾؛ أي: ممهلين عن العقوبة؛ بل اصطلمتهم في الحال.

[٣٠-٣١] ثم امتن تعالىٰ علىٰ بني إسرائيل فقال: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ الذي كانوا فيه ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ إذ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾؛ أي: مستكبرا في الأرض بغير الحق ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين لحدود الله المتجرئين علىٰ محارمه.

[٣٢] ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾؛ أي: اصطفيناهم وانتقيناهم ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منا بهم وباستحقاقهم لذلك الفضل ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: عالمي زمانهم ومن قبلهم وبعدهم حتىٰ أتىٰ الله بأمة محمد ﷺ ففضلوا العالمين كلهم وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس وامتن عليهم بما لم يمتن به علىٰ غيرهم.

[٣٣] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾؛ أي: بني إسرائيل ﴿مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الباهرة والمعجزات الظاهرة ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾؛ أي: إحسان كثير ظاهر منا عليهم وحجة عليهم علىٰ صحة ما جاءهم به نبيهم موسىٰ ﷺ.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الدخان]

[٣٤-٣٥] يخبر تعالىٰ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المكذبين يقولون مستبعدين للبعث والنشور: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾؛ أي: ما هي إلا الحياة الدنيا فلا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار.

[٣٦] ثم قالوا - متجرئين علىٰ ربهم معجزين له-: ﴿فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ وهذا من اقتراح الجهلة المعاندين في مكان سحيق، فأي ملازمة بين صدق الرسول ﷺ وأنه متوقف علىٰ الإتيان بآبائهم؟ فإن الآيات قد قامت علىٰ صدق ما جاءهم به وتواترت تواترا عظيما من كل وجه.

[٣٧] قال تعالىٰ: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ﴾؛ أي: هؤلاء المخاطبون ﴿أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ فإنهم ليسوا خيرا منهم، وقد اشتركوا في الإجرام فليتوقعوا من الهلاك ما أصاب إخوانهم المجرمين.

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٩ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٠ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤١ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٤٢﴾ [الدخان]

[٣٨-٣٩] يخبر تعالىٰ عن كمال قدرته وتمام حكمته وأنه ما خلق السَّمٰوات والأرض لعبا ولا لهوا أو سدىٰ من غير فائدة وأنه ما خلقهما ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: نفس خلقهما بالحق وخلقهما مشتمل علىٰ الحق، وأنه أوجدهما ليعبدوه وحده لا شريك له، وليأمر العباد وينهاهم ويثيبهم ويعاقبهم؛ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فلذلك لم يتفكروا في خلق السَّمٰوات والأرض.

[٤٠] ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾ وهو: يوم القيامة الذي يفصل الله به بين الأولين والآخرين وبين كل مختلفين ﴿مِيقَٰتُهُمۡ﴾؛ أي: الخلائق ﴿أَجۡمَعِينَ﴾.

كلهم سيجمعهم الله فيه ويحضرهم ويحضر أعمالهم ويكون الجزاء عليها.

[٤١] ولا ينفع مولىٰ عن مولىٰ شيئا لا قريب عن قريبه ولا صديق عن صديقه، ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: يمنعون من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن أحدا من الخلق لا يملك من الأمر شيئا.

[٤٢] ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فإنه هو الذي ينتفع ويرتفع برحمة الله تعالىٰ التي تسبب إليها وسعىٰ لها سعيها في الدنيا. ثم قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ٤٤ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٦ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٤٧ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٨ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ٥٠﴾ [الدخان]

[٤٣-٥٠] لما ذكر يوم القيامة وأنه يفصل بين عباده فيه ذكر افتراقهم إلىٰ فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير؛ وهم: الآثمون بعمل الكفر والمعاصي وأن طعامهم ﴿شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ شر الأشجار وأفظعها وأن طعمها ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾؛ أي: كالصديد المنتن خبيث الريح والطعم شديد الحرارة ﴿يَغْلِي فِي﴾ بطونهم ﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ ويقال للمعذب: ﴿ذُقْ﴾ هذا العذاب الأليم والعقاب الوخيم ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾؛ أي: بزعمك أنك عزيز ستمتنع من عذاب الله وأنك كريم علىٰ الله لا يصيبك بعذاب، فاليوم تبين لك أنك أنت الذليل المهان الخسيس، ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ العذاب العظيم ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾؛ أي: تشكون فالآن صار عندكم حق اليقين.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الدخان]

[٥١-٥٣] هذا جزاء المتقين لله [الذين] اتقوا سخطه وعذابه بتركهم المعاصي وفعلهم الطاعات، فلما انتفىٰ السخط عنهم والعذاب ثبت لهم الرضا من الله والثواب العظيم في ظل ظليل من كثرة الأشجار والفواكه وعيون سارحة تجري من تحتهم الأنهار يفجرونها تفجيرا في جنات النعيم. فأضاف الجنات إلىٰ النعيم لأن كل ما اشتملت عليه كله نعيم وسرور، كامل من كل وجه ما فيه منغص ولا مكدر بوجه من الوجوه. ولباسهم من الحرير الأخضر من السندس والإستبرق؛ أي: غليظ الحرير ورقيقه مما تشتهيه أنفسهم. ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في قلوبهم ووجوههم في كمال الراحة والطمأنينة والمحبة والعشرة الحسنة والآداب المستحسنة.

[٥٤] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ النعيم التام والسرور الكامل ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ﴾؛ أي: نساء جميلات من جمالهن وحسنهن أنه يحار الطرف في حسنهن وينبهر العقل بجمالهن وينخلب اللب لكمالهن ﴿عِينٍ﴾؛ أي: ضخام الأعين حسانها.

[٥٥] ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾؛ أي: الجنة ﴿بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ مما له اسم في الدنيا ومما لا يوجد له اسم ولا نظير في الدنيا، فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها أُحضر لهم في الحال من غير تعب ولا كلفة، ﴿ءَامِنِينَ﴾ من انقطاع ذلك، وآمنين من مضرته، وآمنين من كل مكدر، وآمنين من الخروج منها

والموت.

[٥٦] ولهذا قال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: ليس فيها موت بالكلية، ولو كان فيها موت يستثنىٰ لم يستثن الموتة الأولىٰ التي هي الموتة في الدنيا فتم لهم كل محبوب مطلوب، ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

[٥٧] ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم من فضل الله عليهم وكرمه فإنه تعالىٰ هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة التي بها نالوا خير الآخرة وأعطاهم أيضا ما لم تبلغه أعمالهم، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وأي فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته والسلامة من عذابه وسخطه؟

[٥٨] ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾؛ أي: القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾؛ أي: سهلناه بلسانك الذي هو أفصح الألسنة علىٰ الإطلاق وأجلها فتيسر به لفظه وتيسر معناه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما فيه نفعهم فيفعلونه وما فيه ضررهم فيتركونه.

[٥٩] ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾؛ أي: انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ ما يحل بهم من العذاب وفرق بين الارتقابين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدينا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الدخان، ولله الحمد والمنة.

٤٥- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجَاثِيَةِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣
وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٥ تِلۡكَ
ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٦ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ
٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٨ وَإِذَا
عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم
مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠ هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ١١﴾ [الجاثية]

[١-٢] يخبر تعالىٰ خبرا يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به؛ أنه ﴿تَنزِيلُ﴾ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ المألوه المعبود لما اتصف به من صفات الكمال وانفرد به من النعم الذي له العزة الكاملة والحكمة التامة.

[٣-٥] ثم أيد ذلك بما ذكره من الآيات الأفقية والنفسية من خلق السّمٰوات والأرض وما بث فيهما من الدواب وما أودع فيهما من المنافع وما أنزل الله من الماء الذي يحيي به الله البلاد والعباد.

فهذه كلها آيات بينات وأدلة واضحات علىٰ صدق هذا القرآن العظيم وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام، ودالات أيضا علىٰ ما لله تعالىٰ من الكمال وعلىٰ البعث والنشور.

[٦-١٠] ثم قسم تعالىٰ الناس بالنسبة إلىٰ الانتفاع بآياته وعدمه إلىٰ قسمين:

قسم يستدلون بها ويتفكرون بها وينتفعون فيرتفعون وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إيمانا تامًّا وصل بهم إلىٰ درجة اليقين، فزكىٰ منهم العقول وازدادت به معارفهم وألبابهم وعلومهم.

وقسم يسمع آيات الله سماعا تقوم به الحجة عليه ثم يعرض عنها ويستكبر، كأنه ما سمعها لأنها لم تزك قلبه ولا طهرته؛ بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه.

وأنه إذا علم من آيات الله شيئا اتخذها هزوا فتوعده الله تعالىٰ بالويل فقال: ﴿وَيۡلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾؛ أي: كذاب في مقاله أثيم في فعاله، وأخبر أن له عذابا أليما وأن ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ تكفي في عقوبتهم البليغة، وأنه ﴿لَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ﴾ من الأموال ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ﴾ يستنصرون بهم فخذلوهم أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا.

[١١] فلما بين آياته القرآنية والعيانية وأن الناس فيها علىٰ قسمين أخبر أن القرآن المشتمل علىٰ هذه المطالب العالية أنه هدًىٰ فقال: ﴿هَٰذَا هُدًىۖ﴾ وهذا وصف عام لجميع القرآن فإنه يهدي إلىٰ معرفة الله تعالىٰ بصفاته المقدسة وأفعاله الحميدة، ويهدي إلىٰ معرفة رسله وأوليائهم وأعدائهم، وأوصافهم، ويهدي إلىٰ الأعمال الصالحة ويدعو إليها ويبين الأعمال السيئة وينهىٰ عنها، ويهدي إلىٰ بيان الجزاء علىٰ الأعمال ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي، فالمهتدون اهتدوا به فأفلحوا وسعِدوا، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ الواضحة القاطعة التي لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه وتضاعف طغيانه، ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ﴾.

﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ [الجاثية]

[١٢] يخبر تعالىٰ بفضله علىٰ عباده وإحسانه إليهم بتسخير البحر لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره، ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ بأنواع التجارات والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ الله تعالىٰ فإنكم إذا شكرتموه زادكم من نعمه وأثابكم علىٰ شكركم أجرا جزيلا.

[١٣] ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُۚ﴾؛ أي: من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السَّمٰوات والأرض ولما أودع الله فيهما من الشمس والقمر والكواكب والثوابت والسيارات وأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار والثمرات وأجناس المعادن وغير ذلك مما هو معد لمصالح بني آدم ومصالح ما هو من ضروراته، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته وأن تتغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وجملة

ذلك أن خلقها وتدبيرها وتسخيرها دال علىٰ نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنعة وحسن الخلقة دال علىٰ كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة دال علىٰ سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات دليل علىٰ أنه الفعال لما يريد، وما فيها من المنافع والمصالح الدينية والدنيوية دليل علىٰ سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه وبديع لطفه وبره، وكل ذلك دال علىٰ أنه وحده المألوه المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له وأن رسله صادقون فيما جاءوا به.

فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريبا ولا شكا.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الجاثية]

[١٤-١٥] يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين بحسن الخلق والصبر علىٰ أذية المشركين به، الذين ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا يرجون ثوابه ولا يخافون وقائعه في العاصين فإنه تعالىٰ سيجزي كل قوم ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ فأنتم يا معشر المؤمنين يجزيكم علىٰ إيمانكم وصفحكم وصبركم، ثوابا جزيلا. وهم إن استمروا علىٰ تكذيبهم فلا يحل بكم ما حل بهم من العذاب الشديد والخزي ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾. ثم قال تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية]

[١٦] أي: ولقد أنعمنا علىٰ بني إسرائيل نعما لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة والإنجيل ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ بين الناس ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ التي امتازوا بها وصارت النبوة في ذرية إبراهيم ﷺ، أكثرهم من بني إسرائيل، ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المآكل والمشارب والملابس وإنزال المن والسلوىٰ عليهم ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: علىٰ الخلق بهذه النعم ويخرج من هذا العموم اللفظي هذه الأمة فإنهم خير أمة أخرجت للناس.

والسياق يدل علىٰ أن المراد غير هذه الأمة؛ فإن الله يقص علينا ما امتن به علىٰ بني إسرائيل وميزهم عن غيرهم، وأيضا فإن الفضائل التي فاق بها بنو إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة وغيرها من

النعوت قد حصلت كلها لهذه الأمة، وزادت عليهم هذه الأمة فضائل كثيرة فهذه الشريعة شريعة بني إسرائيل جزء منها، فإن هذا الكتاب مهيمن علىٰ سائر الكتب السابقة، ومحمد ﷺ مصدق لجميع المرسلين.

[١٧] ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم﴾؛ أي: آتينا بني إسرائيل ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾؛ أي: دلالات تبيّن الحق من الباطل ﴿مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ القدري الذي أوصله الله إليهم.

وتلك الآيات هي المعجزات التي رأوها علىٰ يد موسىٰ عليه السلام، فهذه النعم التي أنعم الله بها علىٰ بني إسرائيل تقتضي الحال أن يقوموا بها علىٰ أكمل الوجوه وأن يجتمعوا علىٰ الحق الذي بينه الله لهم، ولكن انعكس الأمر فعاملوها بعكس ما يجب، وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به ولهذا قال: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾؛ أي: الموجب لعدم الاختلاف، وإنما حملهم علىٰ الاختلاف البغي من بعضهم علىٰ بعض والظلم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ فيميز المحق من المبطل والذي حمله علىٰ الاختلاف الهوىٰ أو غيره.

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩﴾ [الجاثية]

[١٨] أي: ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلىٰ كل خير وتنهىٰ عن كل شر من أمرنا الشرعي ﴿فَٱتَّبِعۡهَا﴾ فإن في اتباعها السعادة الأبدية والصلاح والفلاح، ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم ولا ماشية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواه وإرادته فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

[١٩] ﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ﴾؛ أي: لا ينفعونك عند الله فيحصلوا لك الخير ويدفعوا عنك الشر إن اتبعتهم علىٰ أهوائهم، ولا تصلح أن توافقهم وتواليهم فإنك وإياهم متباينون، وبعضهم ولي لبعض، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ يخرجهم من الظلمات إلىٰ النور بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾ [الجاثية]

[٢٠] أي: ﴿هَٰذَا﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: يحصل به التبصرة في جميع

الأمور للناس فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، ﴿وَ﴾ الهدىٰ والرحمة ﴿لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ فيهتدون به إلىٰ الصراط المستقيم في أصول الدين وفروعه ويحصل به الخير والسرور والسعادة في الدنيا والآخرة وهي الرحمة، فتزكو به نفوسهم وتزداد به عقولهم ويزيد به إيمانهم ويقينهم، وتقوم به الحجة علىٰ من أصر وعاند.

﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٢١﴾ [الجاثية]

[٢١] أي: أم حسب المسيئون المكثرون من الذنوب المقصرون في حقوق ربهم، ﴿أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه ولم يزالوا مؤثرين رضاه علىٰ هوىٰ أنفسهم؟ أي: أحسبوا أن يكونوا ﴿سَوَآءٗ﴾ في الدنيا والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا وساء ما حكموا به، فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين وخير العادلين ويناقض العقول السليمة والفطر المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب وأخبرت به الرسل؛ بل الحكم الواقع القطعي أن المؤمنين العاملين الصالحات لهم النصر والفلاح والسعادة والثواب في العاجل والآجل كل علىٰ قدر إحسانه، وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة والعذاب والشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٢﴾ [الجاثية]

[٢٢] أي: خلق الله السَّمٰوات والأرض بالحكمة وليُعبد وحده لا شريك له، ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته وأنعم عليم بالنعم الظاهرة والباطنة هل شكروا الله تعالىٰ وقاموا بالمأمور؟ أم كفروا فاستحقوا جزاء الكفور؟

﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٥ قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾ [الجاثية]

[٢٣] يقول تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ الرجل الضال الذي ﴿ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ فما هويه سلكه سواء كان يرضي الله أم يسخطه ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ من الله تعالىٰ أنه لا تليق به الهداية ولا يزكو عليها. ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ فلا يسمع ما ينفعه، ﴿وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا يعي الخير ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً﴾ تمنعه من نظر الحق، ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ﴾؛ أي: لا أحد يهديه وقد سد الله عليه أبواب الهداية وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله؛ ولكن هو الذي ظلم نفسه وتسبب لمنع رحمة الله عليه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما ينفعكم فتسلكونه وما يضركم فتجتنبونه.

[٢٤] ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: منكرو البعث ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾؛ إن هي إلا عادات وجري علىٰ رسوم الليل والنهار يموت أناس ويحيا أناس وما مات فليس براجع إلىٰ الله ولا مجازيه بعمله. وقولهم هذا صادر عن غير علم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فأنكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين من غير دليل دلهم علىٰ ذلك ولا برهان. إن هي إلا ظنون واستبعادات خالية عن الحقيقة.

[٢٥] ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ وهذا جراءة منهم علىٰ الله، حيث اقترحوا هذا الاقتراح وزعموا أن صدق رسل الله متوقف علىٰ الإتيان بآبائهم، وإنهم لو جاءوهم بكل آية لم يؤمنوا إلا إن اتبعتهم الرسل علىٰ ما قالوا، وهم كذبة فيما قالوا وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل لا بيان الحق.

[٢٦] قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وإلا فلو وصل العلم باليوم الآخر إلىٰ قلوبهم، لعملوا له أعمالا وتهيؤوا له.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ
جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم
بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ
فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ
فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا
نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٤ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٣٥ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٣٧﴾ [الجاثية]

[٢٧] يخبر تعالىٰ عن سعة ملكه وانفراده بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات وأنه ﴿يَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ويجمع الخلائق لموقف القيامة يحصل الخسار علىٰ المبطلين الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة لأنها متعلقة بالباطل فبطلت في يوم القيامة، اليوم الذي تستبين به الحقائق، واضمحلت عنهم وفاتهم الثواب وحصلوا علىٰ أليم العقاب.

[٢٨] ثم وصف تعالىٰ شدة يوم القيامة وهوله ليحذره العباد ويستعد له العباد؛ فقال: ﴿وَتَرَىٰ﴾؛ أيها الرائي لذلك اليوم ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ﴾ علىٰ ركبها خوفا وذعرا وانتظارا لحكم الملك الرحمن.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾؛ أي: إلىٰ شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل لهم الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران؟ فأمة موسىٰ يدعون إلىٰ شريعة موسىٰ، وأمة عيسىٰ كذلك، وأمة محمد كذلك، وهكذا غيرهم كل أمة تدعىٰ إلىٰ شرعها الذي كلفت به، هذا أحد الاحتمالات في الآية وهو معنىٰ صحيح في نفسه غير مشكوك فيه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾؛ أي: إلىٰ كتاب أعمالها وما سطر عليها من خير وشر، وأن كل أحد يجازىٰ بما عمله بنفسه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فُصِّلَت:٤٦].

ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من الآية.

[٢٩] ويدل علىٰ هذا قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ﴾؛ أي: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم، يفصل بينكم بالحق الذي هو العدل، ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهذا كتاب الأعمال.

[٣٠] ولهذا فصل ما يفعل الله بالفريقين فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ إيمانا صحيحا وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة من واجبات ومستحبات ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ التي محلُّها الجنة وما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: المفاز والنجاة والربح والفلاح الواضح البين الذي إذا حصل للعبد حصل له كل خير واندفع عنه كلُّ شر.

[٣١] ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بالله فيقال لهم توبيخا وتقريعا: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وقد دلتكم علىٰ ما فيه صلاحكم ونهتكم عما فيه ضرركم وهي أكبر نعمة وصلت إليكم لو وفقتم لها،

ولكن استكبرتم عنها وأعرضتم وكفرتم بها فجنيتم أكبر جناية وأجرمتم أشد الجرم فاليوم تجزون ما كنتم تعملون.

[٣٢] ويوبخون أيضا بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم﴾ منكرين لذلك: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

فهذه حالهم في الدنيا وحال البعث الإنكار له ورد قول من جاء به.

[٣٣] قال تعالىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾؛ أي: وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ أي: نزل ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: نزل بهم العذاب الذي كانوا في الدنيا يستهزئون به وبوقوعه وبمن جاء به.

[٣٤] ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾؛ أي: نترككم في العذاب ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾ فإن الجزاء من جنس العمل ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي: هي مقركم ومصيركم، ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ ينصرونكم من عذاب الله ويدفعون عنكم عقابه.

[٣٥] ﴿ذَٰلِكُم﴾ الذي حصل لكم من العذاب ﴿بِـ﴾ سبب ﴿أَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ مع أنها موجبة للجد والاجتهاد وتلقيها بالسرور والاستبشار والفرح.

﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها فاطمأننتم إليها، وعملتم لها وتركتم العمل للدار الباقية.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: ولا يمهلون ولا يردون إلىٰ الدنيا ليعملوا صالحا.

[٣٦] ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ﴿رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾؛ أي: له الحمد علىٰ ربوبيته لسائر الخلق حيث خلقهم ورباهم وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

[٣٧] ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: له الجلال والعظمة والمجد.

فالحمد فيه الثناء علىٰ الله بصفات الكمال ومحبته تعالىٰ وإكرامه، والكبرياء فيها عظمته وجلاله والعبادة مبنية علىٰ ركنين، محبة الله والذل له، وهما ناشئان عن العلم بمحامد الله وجلاله وكبريائه.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يشرع ما يشرعه إلا

لحكمة ومصلحة ولا يخلق ما يخلقه إلا لفائدة ومنفعة.

تم تفسير سورة الجاثية، ولله الحمد والمنة والفضل.

٤٦- تَفْسِيرُ سُورَةِ الأَحْقَافِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾ [الأحقاف]

[٢] هذا ثناء منه تعالىٰ علىٰ كتابه العزيز وتعظيم له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلىٰ الاهتداء بنوره والإقبال علىٰ تدبر آياته واستخراج كنوزه.

[٣] ولما بين إنزال كتابه المتضمّن للأمر والنهي ذكر خلقه السَّمٰوات والأرض؛ فجمع بين الخلق والأمر ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾[الأعراف]، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾[الطلاق:١٢]، وكما قال تعالىٰ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [النحل]، فالله تعالىٰ هو الذي خلق المكلفين وخلق مساكنهم وسخر لهم ما في السَّمٰوات وما في الأرض، ثم أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم ونهاهم وأخبرهم أن هذه الدار دار أعمال وممر للعمال لا دار إقامة لا يرحل عنها أهلها، وهم سينتقلون منها إلىٰ دار الإقامة و[القرار] وموطن الخلود والدوام، وإنما أعمالهم التي عملوها في هذه الدار سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملا موفرا.

وأقام تعالىٰ الأدلة الدالة علىٰ تلك الدار وأذاق العباد نموذجًا من الثواب والعقاب العاجل ليكون أدعىٰ لهم إلىٰ طلب المحبوب والهرب من المرهوب، ولهذا قال هنا: ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: لا عبثا ولا سدىٰ بل ليعرف العباد عظمة خالقهما ويستدلوا علىٰ كماله ويعلموا أن الذي خلقهما علىٰ عظمهما قادر علىٰ أن يعيد العباد بعد موتهم للجزاء وأن خلقهما وبقاءهما مقدر إلىٰ ﴿أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾.

فلما أخبر بذلك -وهو أصدق القائلين وأقام الدليل وأنار السبيل أخبر -مع ذلك- أن طائفة من

الخلق قد أبوا إلا إعراضًا عن الحق، وصدوفا عن دعوة الرسل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾، وأما الذين آمنوا فلما علموا حقيقة الحال قبلوا وصايا ربهم، وتلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالانقياد والتعظيم ففازوا بكلِّ خير، واندفع عنهم كل شر.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ٦﴾ [الأحقاف]

[٤] أي: ﴿قُلۡ﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله أوثانا وأندادا لا تملك: نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، قل لهم -مبينا عجز أوثانهم وأنها لا تستحق شيئا من العبادة-: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ﴾ هل خلقوا من أجرام السَّمٰوات والأرض شيئا؟ هل خلقوا جبالا؟ هل أجروا أنهارا؟ هل نشروا حيوانا؟ هل أنبتوا أشجارا؟ هل كان منهم معاونة علىٰ خلق شيء من ذلك؟ لا شيء من ذلك بإقرارهم علىٰ أنفسهم فضلا عن غيرهم، فهذا دليل عقلي قاطع علىٰ أن كل من سوىٰ الله فعبادته باطلة.

ثم ذكر انتفاء الدليل النقلي؛ فقال: ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ الكتاب يدعو إلىٰ الشرك ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ موروث عن الرسل يأمر بذلك، من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل بدليل يدل علىٰ ذلك؛ بل نجزم ونتيقن أن جميع الرسل دعوا إلىٰ توحيد ربهم ونهوا عن الشرك به، وهي أعظم ما يؤثر عنهم من العلم قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل:٣٦] وكل رسول قال لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩] فعُلم أن جدال المشركين في شركهم غير مستندين علىٰ برهان ولا دليل وإنما اعتمدوا علىٰ ظنون كاذبة وآراء كاسدة وعقول فاسدة، يدلُّك علىٰ فسادها استقراء أحوالهم وتتبع علومهم وأعمالهم والنظر في حال من أفنوا أعمارهم بعبادته هل أفادهم شيئا في الدنيا أو في الآخرة؟

[٥-٦] ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: مدة مقامه في الدنيا لا ينتفع به بمثقال ذرة ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ لا يسمعون منهم دعاء ولا يجيبون لهم نداء هذا حالهم في الدنيا، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ

﴿لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ يلعن بعضهم بعضا ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ۝٧ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾ [الأحقاف]

[٧] أي: وإذا تتلىٰ علىٰ المكذِّبين ﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ بحيث تكون علىٰ وجه لا يُمترىٰ بها ولا يشك في وقوعها وحقِّها لم تفدهم خيرا؛ بل قامت عليهم بذلك الحجة، ويقولون من إفكهم وافترائهم ﴿لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهر لا شك فيه وهذا من باب قلب الحقائق الذي لا يروج إلا علىٰ ضعفاء العقول، وإلا فبين الحق الذي جاء به الرسول ﷺ وبين السِّحر من المنافاة والمخالفة أعظم مما بين السماء والأرض، وكيف يقاس الحق -الذي علا وارتفع ارتفاعا علىٰ الأفلاك وفاق بضوئه ونوره نور الشمس وقامت الأدلة الأفقية والنفسية عليه، وأقرت به وأذعنت أولو البصائر والعقول الرزينة- بالباطل الذي هو السحر الذي لا يصدر إلا من ضال ظالم خبيث النفس خبيث العمل؟! فهو مناسب له وموافق لحاله وهل هذا إلا من البهرجة؟

[٨] ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾؛ أي: افترىٰ محمد هذا القرآن من عند نفسه فليس هو من عند الله.

﴿قُلۡ﴾ لهم: ﴿إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾ فالله علي قادر وبما تفيضون فيه عالم، فكيف لم يعاقبني علىٰ افترائي الذي زعمتم؟

فهل ﴿تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾ إن أرادني الله بضر أو أرادني برحمة ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾ فلو كنت متقوِّلا عليه لأخذ مني باليمين ولعاقبني عقابا يراه كل أحد؛ لأن هذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقوِّلا ثم دعاهم إلىٰ التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته؛ فقال: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: فتوبوا إليه وأقلعوا عما أنتم فيه يغفر لكم ذنوبكم ويرحمكم فيوفِّقكم للخير ويثيبكم جزيل الأجر.

[٩] ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾؛ أي: لستُ بأوّل رسول جاءكم حتىٰ تستغربوا رسالتي

وتستنكروا دعوتي، فقد تقدم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم فلأي شيء تُنكرون رسالتي؟ ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْۖ﴾؛ أي: لست إلا بشرا ليس بيدي من الأمر شيء والله تعالىٰ هو المتصرف بي وبكم الحاكم علي وعليكم، ولست آتي بالشيء من عندي، ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فإن قبلتم رسالتي وأجبتم دعوتي فهو حظُّكم ونصيبكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتم ذلك عليّ فحسابكم علىٰ الله وقد أنذرتكم ومن أنذر فقد أعذر.

[١٠] ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْۖ﴾؛ أي: أخبروني لو كان هذا القرآن من عند الله وشهد علىٰ صحته الموفقون من أهل الكتاب الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق فآمنوا به واهتدوا فتطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء واستكبرتم أيها الجهلاء الأغبياء، فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ومن الظلم الاستكبار عن الحق بعد التمكُّن منه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةًۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف]

[١١-١٢] أي: قال الكفار بالحق معاندين له ورادين لدعوته: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ﴾؛ أي: ما سبقنا إليه المؤمنون أي: لكنا أول مبادر به وسابق إليه، وهذا من البهرجة في مكان، فأي دليل يدل علىٰ أن علامة الحق سبق المكذبين به للمؤمنين؟ هل هم أزكىٰ نفوسا؟ أم أكمل عقولا؟ أم الهدىٰ بأيديهم؟ ولكن هذا الكلام الذي صدر منهم يعزون به أنفسهم بمنزلة من لم يقدر علىٰ الشيء ثم طفق يذمّه ولهذا قال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾؛ أي: هذا السبب الذي دعاهم إليه أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن وفاتهم أعظم المواهب وأجل الرغائب قدحوا فيه بأنه كذب وهو الحق الذي لا شك فيه ولا امتراء يعتريه. الذي قد وافق الكتب السماوية خصوصا أكملها وأفضلها بعد القرآن وهي التوراة التي أنزلها الله علىٰ ﴿مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةًۚ﴾؛ أي: يقتدي بها بنو إسرائيل ويهتدون بها ويحصل لهم خير الدنيا والآخرة.

﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ للكتب السابقة شهد بصدقها وصدَّقها بموافقته لها وجعله الله ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ ليسهل تناوله ويتيسر تذكره، ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالكفر والفسوق

والعصيان إن استمروا علىٰ ظلمهم بالعذاب الوبيل ويبشر المحسنين في عبادة الخالق وفي نفع المخلوقين بالثواب الجزيل في الدنيا والآخرة ويذكر الأعمال التي ينذر عنها والأعمال التي يبشّر بها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ [الأحقاف]

[١٣] أي: إن الذين أقروا بربهم وشهدوا له بالوحدانية والتزموا طاعته وداموا علىٰ ذلك، و﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ مدة حياتهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من كل شر أمامهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ ما خلفوا وراءهم.

[١٤] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: أهلها الملازمون لها الذين لا يبغون عنها حولا ولا يريدون بها بدلا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان بالله المقتضي للأعمال الصالحة التي استقاموا عليها.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝١٦﴾ [الأحقاف]

[١٥] هذا من لطفه تعالىٰ بعباده وشكره للوالدين أن وصىٰ الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلىٰ والديهم بالقول اللطيف والكلام اللين وبذل المال والنفقة وغير ذلك من وجوه الإحسان.

ثم نبه علىٰ ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحملته الأم من ولدها وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانة، وليست المذكورات مدة يسيرة ساعة أو ساعتين. وإنما ذلك مدة طويلة قدرها ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ﴾ للحمل تسعة أشهر ونحوها والباقي للرضاع هذا هو الغالب.

ويستدل بهذه الآية مع قوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ﴾[البقرة:٢٣٣] أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأن مدة الرضاع -وهي سنتان- إذا سقطت منها السنتان بقي ستة أشهر مدة للحمل،

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾؛ أي: نهاية قوته وشبابه وكمال عقله، ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾؛ أي: ألهمني ووفقني ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾؛ أي: نعم الدِّين ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها ومويلها ومقابلته منته بالاعتراف والعجز عن الشكر والاجتهاد في الثناء بها علىٰ الله، والنعم علىٰ الوالدين نعم علىٰ أولادهم وذريتهم لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها، خصوصا نعم الدين فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم.

﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ بأن يكون جامعا لما يصلحه سالما مما يفسده، فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله ويثيب عليه. ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ لما دعا لنفسه بالصلاح دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه علىٰ والديهم لقوله: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي﴾

﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ من الذنوب والمعاصي ورجعت إلىٰ طاعتك ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

[١٦] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين ذُكرت أوصافهم ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ وهو الطّاعات لأنهم يعملون أيضا غيرها. ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ في جملة ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ فحصل لهم الخير والمحبوب وزال عنهم الشر والمكروه.

﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾؛ أي: هذا الوعد الذي وعدناهم هو وعد صادق من أصدق القائلين الذي لا يخلف الميعاد.

﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾ [الأحقاف]

[١٧] لما ذكر تعالىٰ حال الصالح البار لوالديه ذكر حالة العاق وأنها شر الحالات فقال: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ﴾ إذ [دعياه] إلىٰ الإيمان بالله واليوم الآخر وخوفاه الجزاء. وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما أن يدعواه إلىٰ ما فيه سعادته الأبدية وفلاحه السرمدي فقابلهما بأقبح مقابلة؛ فقال: ﴿أُفّٖ لَّكُمَآ﴾؛ أي: تبًّا لكما ولما جئتما به.

ثم ذكر وجه استبعاده وإنكاره لذلك؛ فقال: ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ من قبري إلىٰ يوم القيامة ﴿وَقَدۡ

﴿خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ علىٰ التّكذيب وسلفوا علىٰ الكفر وهم الأئمة المقتدىٰ بهم لكل كفور وجهول ومعاند؟ ﴿وَهُمَا﴾؛ أي: والداه ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ عليه ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾؛ أي: يبذلان غاية جهدهما ويسعيان في هدايته أشد السعي حتىٰ إنهما -من حرصهما عليه- إنهما يستغيثان الله له استغاثة الغريق، ويسألانه سؤال الشريق، ويعذلان ولدهما ويتوجعان له، ويبينان له الحق فيقولان: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما، وولدهما لا يزداد إلا عتوّا ونفورا واستكبارا عن الحق وقدحا فيه، ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: إلا منقول من كتب المتقدمين ليس من عند الله ولا أوحاه الله إلىٰ رسوله، وكلُّ أحد يعلم أنَّ محمدا ﷺ أمي لا يكتب ولا يقرأ ولا يتعلم من أحد، فمن أين يتعلمه؟ وأنّىٰ للخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا؟

[١٨] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ بهذه الحالة الذميمة ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: حقَّت عليهم كلمة العذاب ﴿فِيٓ﴾ جملة ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ علىٰ الكفر والتكذيب فسيدخل هؤلاء في غمارهم ويغرقون في تيّارهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ والخسران فوات رأس مال الإنسان، وإذا فقد رأس ماله فالأرباح من باب أولىٰ وأحرىٰ، فهم قد فاتهم الإيمان ولم يحصِّلوا شيئا من النعيم ولا سلموا من عذاب الجحيم.

[١٩] ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من أهل الخير وأهل الشر ﴿دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾؛ أي: كلٌّ علىٰ حسب مرتبته من الخير والشر ومنازلهم في الدار الآخرة علىٰ قدر أعمالهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بأن لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠﴾ [الأحقاف]

[٢٠] يذكر تعالىٰ حال الكفّار عند عرضهم علىٰ النار حين يوبَّخون ويقرعون فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ حيث اطمأننتم إلىٰ الدنيا، واغتررتم بلذاتها ورضيتم بشهواتها وألهتكم طيباتها عن السعي لآخرتكم، وتمتعتم تمتع الأنعام السارحة؛ فهي حظكم من آخرتكم، ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛ أي: العذاب الشَّديد الذي يهينكم ويفضحكم بما كنتم تقولون علىٰ الله غير الحق، أي: تنسبون الطريق الضالة التي أنتم عليها إلىٰ الله وإلىٰ حكمه وأنتم كذبة في ذلك، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾؛

أي: تتكبرون عن طاعته، فجمعوا بين قول الباطل والعمل بالباطل والكذب علىٰ الله بنسبته إلىٰ رضاه والقدح في الحق والاستكبار عنه فعُوقبوا أشد العقوبة.

﴿۞وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾[الأحقاف]

[٢١] أي: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ بالثناء الجميل ﴿أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود ﷺ، حيث كان من الرسل الكرام الذين فضلهم الله تعالىٰ بالدعوة إلىٰ دينه وإرشاد الخلق إليه.

﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ وهم عاد ﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾؛ أي: في منازلهم المعروفة بالأحقاف وهي: الرمال الكثيرة في أرض اليمن.

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ فلم يكن بدعا منهم ولا مخالفا لهم، قائلا لهم: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

فأمرهم بعبادة الله الجامعة لكل قول سديد وعمل حميد، ونهاهم عن الشرك والتنديد وخوفهم -إن لم يطيعوه- العذاب الشديد فلم تفد فيهم تلك الدعوة.

[٢٢] ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾؛ أي: ليس لك من القصد ولا معك من الحق إلا أنك حِدْتنا علىٰ آلهتنا فأردت أن تصرفنا عنها. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهذا غاية الجهل والعناد.

[٢٣] ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهو الذي بيده أزِمّة الأمور ومقاليدها وهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء، ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾؛ أي: ليس علي إلا البلاغ المبين، ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر من هذه الجُرأة الشديدة.

[٢٤-٢٥] فأرسل الله عليهم العذاب العظيم؛ وهو: الريح التي دمرتهم وأهلكتهم.

ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾؛ أي: العذاب ﴿عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾؛ أي: معترضًا كالسحاب قد أقبل علىٰ أوديتهم التي تسيل فتسقي نوابتهم ويشربون من آبارها وغُدرانها.

﴿قَالُواْ﴾ مستبشرين: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ﴾؛ أي: هذا السحاب سيُمطرنا.

قال تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ﴾؛ أي: هذا الذي جنيتم به علىٰ أنفسكم حيث قلتم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ﴾ تمر عليه من شدتها ونحسها، فسلطها الله عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًاۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾[الحاقة:٧]، ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾؛ أي: بإذنه ومشيئته، ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ﴾ قد تلفت مواشيهم وأموالهم وأنفسهم، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بسبب جرمهم وظلمهم.

[٢٦] هذا مع أن الله تعالىٰ قد أدر عليهم النعم العظيمة فلم يشكروه ولا ذكروه ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾؛ أي: مكناهم في الأرض يتناولون طيباتها ويتمتعون بشهواتها.

وعمرناهم عمرا يتذكر فيه من تذكر، ويتعظ فيه المهتدي، أي: ولقد مكنا عادا كما مكناكم يا هؤلاء المخاطبون أي: فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه مختص بكم وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئا؛ بل غيركم أعظم منكم تمكينا فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من الله شيئا.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾؛ أي: لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم حتىٰ يقال: إنهم تركوا الحق جهلا منهم، وعدم تمكن من العلم به ولا خلل في عقولهم؛ ولكن التوفيق بيد الله.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير، وذلك بسبب أنهم يجحدون آيات الله الدالة علىٰ توحيده وإفراده بالعبادة، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: نزل بهم العذاب الذي يكذبون بوقوعه ويستهزئون بالرسل الذين حذروهم منه.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٧ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢۖ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٢٨﴾ [الأحقاف]

[٢٧-٢٨] يحذِّر تعالىٰ مشركي العرب وغيرهم بإهلاك الأمم المكذبين الذين هم حول ديارهم؛ بل كثير منهم في جزيرة العرب كعاد وثمود ونحوهم، وأن الله تعالىٰ صرَّف لهم ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نوعها من

كل وجه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عمّاهم عليه من الكفر والتكذيب.

فلما لم يؤمنوا أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ولم تنفعهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء؛ ولهذا قال هنا: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾؛ أي: يتقربون إليهم ويتألهونهم لرجاء نفعهم. ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ﴾ فلم يجيبوهم ولا دفعوا عنهم، ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب الذي يمنون به أنفسهم حيث يزعمون أنهم على الحق وأن أعمالهم ستنفعهم فضلت وبطلت.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف]

[٢٩] كان الله تعالىٰ قد أرسل رسوله محمدا ﷺ إلىٰ الخلق إنسهم وجنهم وكان لا بد من إبلاغ الجميع لدعوة النبوة والرسالة.

فالإنس يمكنه عليه الصلاة والسلام دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن فصرفهم الله إليه بقدرته وأرسل إليه ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾؛ أي: وصىٰ بعضهم بعضا بذلك، ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ وقد وعوه وأثر ذلك فيهم ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ نصحًا منهم لهم وإقامة لحجة الله عليهم وقيضهم الله معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن.

[٣٠] ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ لأن كتاب موسىٰ أصل للإنجيل وعمدة لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنما الإنجيل متمِّم ومكمِّل ومغير لبعض الأحكام.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ﴾ هذا الكتاب الذي سمعناه ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ وهو الصواب في كل مطلوب وخبر ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلىٰ الله وإلىٰ جنته من العلم بالله وبأحكامه الدينية وأحكام الجزاء.

[٣١] فلما مدحوا القرآن وبينوا محله ومرتبته دعوهم إلىٰ الإيمان به، فقالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الذي لا يدعو إلا إلىٰ ربه لا يدعوكم إلىٰ غرض من أغراضه ولا هوىٰ، وإنما يدعوكم إلىٰ

ربكم ليثيبكم ويزيل عنكم كل شرٍّ ومكروه، ولهذا قالوا: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وإذا أجارهم من العذاب الأليم فما ثم بعد ذلك إلا النعيم، فهذا جزاء من أجاب داعي الله.

[٣٢] ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فإن الله علىٰ كل شيء قدير فلا يفوته هارب ولا يغالبه مغالب، ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وأيُّ ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل ووصلت إليه النذر بالآيات البينات، والحجج المتواترات فأعرض واستكبر؟

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف]

[٣٣] هذا استدلالٌ منه تعالىٰ علىٰ الإعادة بعد الموت بما هو أبلغ منها، وهو أنه ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ علىٰ عظمهما وسعتهما وإتقان خلقهما من دون أن يكترث بذلك ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ فكيف تعجزه إعادتكم بعد موتكم وهو ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؟

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف]

[٣٤] يخبر تعالىٰ عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم علىٰ النار التي كانوا يكذبون بها وأنهم يوبخون ويقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ فقد حضرتموه وشاهدتموه عيانا؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فاعترفوا بذنوبهم وتبيَّن كذبهم ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ أي: عذابا لازما دائما كما كان كفركم صفة لازمة.

[٣٥] ثم أمر تعالىٰ رسوله أن يصبر علىٰ أذية المكذبين المعادين له وأن لا يزال داعيا لهم إلىٰ الله وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين سادات الخلق أولي العزائم والهمم العالية الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم والقفو لآثارهم والاهتداء بمنارهم.

فامتثل ﷺ لأمر ربه فصبر صبرا لم يصبره نبي قبله حتىٰ رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعا بصده عن الدعوة إلىٰ الله وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعا بأمر

الله مقيما علىٰ جهاد أعداء الله صابرا علىٰ ما يناله من الأذىٰ، حتىٰ مكن الله له في الأرض وأظهر دينه علىٰ سائر الأديان وأمته علىٰ الأمم، فصلىٰ الله عليه وسلم تسليما.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾؛ أي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب فإن هذا من جهلهم وحمقهم؛ فلا يستخفنك بجهلهم ولا يحملك ما ترىٰ من استعجالهم علىٰ أن تدعو الله عليهم بذلك فإن كل ما هو آت قريب، و﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ﴾ فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صائرون إلىٰ العذاب الوبيل.

﴿بَلَٰغٌۚ﴾؛ أي: هذه الدنيا متاعها وشهوتها ولذاتها بلغة منغصة ودفع وقت حاضر قليل.

أو هذا القرآن العظيم الذي بيّنّا لكم فيه البيان التام بلاغ لكم، وزاد إلىٰ الدار الآخرة، ونعم الزاد والبلغة زادٌ يوصل إلىٰ دار النعيم ويعصم من العذاب الأليم، فهو أفضل زاد يتزوده الخلائق وأجل نعمة أنعم الله بها عليهم.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ بالعقوبات ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: الذين لا خير فيهم وقد خرجوا عن طاعة ربهم ولم يقبلوا الحق الذي جاءتهم به الرسل.

وأعذر الله لهم وأنذرهم، فبعد ذلك إذ يستمرون علىٰ تكذيبهم وكفرهم نسأل الله العصمة.

آخر تفسير سورة الأحقاف

والحمد لله رب العالمين.

٤٧- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقِتَالِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ۝٣﴾ [محمد]

[١] هذه الآيات مشتملات علىٰ ذكر ثواب المؤمنين وعقاب العاصين، والسبب في ذلك، ودعوة الخلق إلىٰ الاعتبار بذلك، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهؤلاء رؤساء الكفر وأئمة الضلال، الذين جمعوا بين الكفر بالله وآياته، والصد لأنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، التي هي الإيمان بما دعت إليه الرسل واتباعه. فهؤلاء ﴿أَضَلَّ﴾ الله ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾؛ أي: أبطلها وأشقاهم بسببها، وهذا يشمل أعمالهم التي عملوها ليكيدوا بها الحق وأولياء الله، إن الله جعل كيدهم في نحورهم، فلم يدركوا مما قصدوا شيئا، وأعمالهم التي يرجون أن يثابوا عليها، إنّ الله سيحبطها عليهم، والسبب في ذلك أنهم اتبعوا الباطل، وهو كل غاية لا يراد بها وجه الله من عبادة الأصنام والأوثان، والأعمال التي في نصر الباطل لمّا كانت باطلة، كانت الأعمال لأجلها باطلة.

[٢] وأما ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما أنزل الله علىٰ رسله عموما، وعلىٰ محمد ﷺ خصوصا، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله، وحقوق العباد الواجبة والمستحبة.

﴿كَفَّرَ﴾ الله ﴿عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ صغارها وكبارها، وإذا كفرت سيئاتهم، نجوا من عذاب الدنيا والآخرة. ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾؛ أي: أصلح دينهم ودنياهم، وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم، بتنميته وتزكيته، وأصلح جميع أحوالهم.

[٣] والسبب في ذلك أنهم: ﴿ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ الذي هو الصدق واليقين، وما اشتمل عليه هذا القرآن

العظيم، الصادر ﴿مِن رَّبِّهِمۡۚ﴾ الذي رباهم بنعمته، ودبرهم بلطفه فرباهم تعالىٰ بالحق فاتبعوه، فصلحت أمورهم، فلما كانت الغاية المقصودة لهم متعلقة بالحق المنسوب إلىٰ الله الباقي الحق المبين، كانت الوسيلة صالحة باقية، باقيا ثوابها ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ حيث بين لهم تعالىٰ أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ [الأنفال:٤٢].

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ۝٦﴾ [محمد]

[٤] يقول تعالىٰ -مرشدا عباده إلىٰ ما فيه صلاحهم، ونصرهم علىٰ أعدائهم-: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في الحرب والقتال، فاصدقوهم القتال، واضربوا منهم الأعناق، حَتَّىٰ تثخنوهم وتكسروا شوكتهم وتبطلوا شرتهم، فإذا فعلتم ذلك، ورأيتم الأسر أولىٰ وأصلح، ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾؛ أي: الرباط، وهذا احتياط لأسْرِهم لئلا يهربوا، فإذا شد منهم الوثاق اطمأن المسلمون من حربهم ومن شرهم، فإذا كانوا تحت أسركم، فأنتم بالخيار بين المنّ عليهم، وإطلاقهم بلا مال ولا فداء، وإما أن تفدوهم بأن لا تطلقوهم حتىٰ يشتروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال، أو بأسيرٍ مسلم عندهم.

وهذا الأمر مستمرٌّ ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾؛ أي: حتىٰ لا يبقىٰ حرب، وتبقون في المسألة والمهادنة، فإن لكل مقام مقالا ولكل حال حكما، فالحال المتقدِّمة، إنما هي إذا كان قتال وحرب.

فإذا كان في بعض الأوقات، لا حرب فيه لسبب من الأسباب، فلا قتل ولا أسر.

﴿ذَٰلِكَۖ﴾ الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، ومداولة الأيام بينهم، وانتصار بعضهم علىٰ بعض ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ فإنه تعالىٰ علىٰ كل شيء قدير، وقادر علىٰ ألا ينتصر الكفار في موضع واحد أبدا، حتىٰ يبيد المسلمون خضراءهم. ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ ليقوم سوق الجهاد، ويتبين بذلك أحوال العباد، الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيمانا صحيحا عن تبصرة، لا إيمانا مبنيا علىٰ متابعة أهل الغلبة، فإنه إيمان ضعيف جدا، لا يكاد يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا.

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لهم ثواب جزيل، وأجر جميل، وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم،

لتكون كلمة الله هي العُليا. فهؤلاء لن يضل الله أعمالهم، أي: لن يحبطها ويبطلها؛ بل يتقبلها وينميها لهم، ويظهر من أعمالهم نتائجها، في الدُّنيا والآخرة.

[٥] ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ﴾ إلىٰ سلوك الطريق الموصلة إلىٰ الجنة، ﴿وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾؛ أي: حالهم وأمورهم، وثوابهم يكون صالحا كاملا لا نكد فيه، ولا تنغيص بوجه من الوجوه.

[٦] ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾؛ أي: عرفها أولا بأن شوقهم إليها، ونعتها لهم، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها، التي من جملتها القتل في سبيل الله، ووفقهم للقيام بما أمرهم به ورغبهم فيه، ثم إذا دخلوا الجنة، عرفهم منازلهم، وما احتوت عليه من النعيم المقيم، والعيش السليم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾ [محمد]

[٧] هذا أمرٌ منه تعالىٰ للمؤمنين، أن ينصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، فإنّهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبت أقدامهم، أي: يربط علىٰ قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبّر أجسامهم علىٰ ذلك، ويعينهم علىٰ أعدائهم، فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، وييسِّر له أسباب النصر، من الثبات وغيره.

[٨] وأما الذين كفروا بربهم، ونصروا الباطل، فإنهم في تعس، أي: انتكاس من أمرهم وخذلان.

﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾؛ أي: أبطل أعمالهم التي يكيدون بها الحق، فرجع كيدهم في نحورهم، وبطلت أعمالهم التي يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله.

[٩] ذلك الإضلال والتعس للذين كفروا، بسبب أنهم ﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن الذي أنزله الله، صلاحا للعباد، وفلاحا لهم، فلم يقبلوه؛ بل أبغضوه وكرهوه، ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

﴿۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝١١﴾ [محمد]

[١٠] أي: أفلا يسير هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ، ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب، فإنهم لا يلتفتون يمنة ولا يسرة إلا وجدوا ما حولهم، قد بادوا وهلكوا، واستأصلهم التكذيب والكفر، فخمدوا، ودمر الله عليهم أموالهم وديارهم؛ بل دمر أعمالهم

ومكرهم، وللكافرين في كل زمان ومكان، أمثال هذه العواقب الوخيمة، والعقوبات الذميمة.

وأما المؤمنون، فإن الله تعالىٰ ينجيهم من العذاب، ويجزل لهم كثير الثواب.

[١١] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فتولّاهم برحمته، فأخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، وتولّىٰ جزاءهم ونصرهم، ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالله تعالىٰ، حيث قطعوا عنهم ولاية الله، وسدُّوا علىٰ أنفسهم رحمته ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ يهديهم إلىٰ سُبل السلام، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه؛ بل أولياؤهم الطاغوت، يخرجونهم من النور إلىٰ الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد]

[١٢] لما ذكر تعالىٰ أنه ولي المؤمنين، ذكر ما يفعل بهم في الآخرة، من دخول الجنات، التي تجري من تحتها الأنهار، التي تَسقي تلك البساتين الزاهرة، والأشجار الناظرة المثمرة، لكل زوج بهيج، وكل فاكهة لذيذة.

ولما ذكر أن الكافرين لا مولىٰ لهم، ذكر أنهم وُكِلُوا إلىٰ أنفسهم، فلم يتّصفوا بصفات المروءة، ولا الصفات الإنسانية؛ بل نزلوا عنها دركات، وصاروا كالأنعام، التي لا عقل لها ولا فضل، بل جل همهم ومقصدهم التمتُّع بلذات الدنيا وشهواتها، فترىٰ حركاتهم الظاهرة والباطنة دائرة حولها، غير متعدية لها إلىٰ ما فيه الخير والسعادة، ولهذا كانت النار مثوًىٰ لهم، أي: منزلا معدا، لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم من عذابها.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [محمد]

[١٣] أي: وكم من قرية من قرىٰ المكذبين، هي أشد قوة من قريتك، في الأموال والأولاد والأعوان، والأبنية والآلات ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ حين كذبوا رسلنا، ولم تفد فيهم المواعظ، فلم نجد لهم ناصرا، ولم تغن عنهم قوتهم من عذاب الله شيئا.

فكيف حال هؤلاء الضُّعفاء، أهل قريتك، إذ أخرجوك عن وطنك وكذبوك، وعادوك، وأنت أفضل المرسلين، وخير الأولين والآخرين؟!

أليسوا بأحقَّ من غيرهم بالإهلاك والعقوبة، لولا أن الله تعالىٰ بعث رسوله بالرَّحمة والتأني بكل كافر وجاحد؟

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ [محمد]

[١٤] أي: لا يستوي من هو على بصيرة من أمر دينه علما وعملا قد علم الحق واتبعه، ورجا ما وعده الله لأهل الحق، كمن هو أعمى القلب؛ قد رفض الحق وأضله، واتبع هواه بغير هدى من الله، ومع ذلك يرى أن ما هو عليه من الحق، فما أبعد الفرق بين الفريقين! وما أعظم التفاوت بين الطائفتين، أهل الحق وأهل الغي!

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد]

[١٥] أي: مثل الجنة التي أعدّها الله لعباده، الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه، أي: نعْتها وصفتها الجميلة. ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾؛ أي: غير متغير، لا بوخم ولا بريح منتنة، ولا بمرارة، ولا بكدورة؛ بل هو أعذب المياه وأصفاها، وأطيبها ريحًا، وألذها شربا.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ بحموضة ولا غيرها، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾؛ أي: يلتذ بها شاربه لذة عظيمة، لا كخمر الدنيا الذي يكره مذاقه ويصدع الرأس، ويغول العقل.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ من شمعه، وسائر أوساخه.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من نخيل، وعنب، وتفاح، ورمان، وأترج، وتين، وغير ذلك مما لا نظير له في الدنيا، فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم.

ثم قال: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ﴾ يزول بها عنهم المرهوب، فأي هؤلاء خير أم من ﴿هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾ التي اشتد حرها، وتضاعف عذابها، ﴿وَسُقُواْ﴾ فيها ﴿مَآءً حَمِيمًا﴾؛ أي: حارا جدا، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ فسبحان من فاوت بين الدارين والجزاءين، والعاملين والعملين.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد]

[١٦] يقول تعالى: ومن المنافقين ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ما تقول استماعا، لا عن قبول وانقياد؛ بل

معرضة قلوبهم عنه، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ مستفهمين عما قلت، وما سمعوا، مما لم يكن لهم فيه رغبة ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾؛ أي: قريبا، وهذا في غاية الذم لهم، فإنهم لو كانوا حريصين علىٰ الخير لألقوا إليه أسماعهم، ووعته قلوبهم، وانقادت له جوارحهم، ولكنهم بعكس هذه الحال، ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ أي: ختم عليها، وسدَّ أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتِّباعهم أهواءهم، التي لا يهوون فيها إلا الباطل.

[١٧] ثم بين حال المهتدين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ﴾ بالإيمان والانقياد، واتباع ما يرضي الله ﴿زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ شكرا منه تعالىٰ لهم علىٰ ذلك، ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾؛ أي: وفّقهم للخير، وحفظهم من الشر، فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ١٨﴾ [محمد]

[١٨] أي: فهل ينظر هؤلاء المكذبون أو ينتظرون ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ﴾؛ أي: فجأة، وهم لا يشعرون ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾؛ أي: علاماتها الدالة علىٰ قربها.

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾؛ أي: من أين لهم، إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم أن يتذكروا ويستعتبوا؟ قد فات ذلك، وذهب وقت التذكر، فقد عُمِّروا ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير.

ففي هذا الحث علىٰ الاستعداد قبل مفاجأة الموت، فإن موت الإنسان قيام ساعته.

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [محمد]

[١٩] العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته، بمعنىٰ ما طلب منه علمه، وتمامه أن يعمل بمقتضاه.

وهذا العلم الذي أمر الله به -وهو العلم بتوحيد الله- فرض عين علىٰ كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنا من كان؛ بل كل مضطر إلىٰ ذلك.

والطريق إلىٰ العلم بأنه (لا إله إلا الله) هو أمور:

أحدها بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته وأفعاله الدالة علىٰ كماله وعظمته وجلاله؛ فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالىٰ المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإنَّ ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته، والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داعٍ إلىٰ العلم بأنه تعالىٰ وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتُّخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونهم بمثقال ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا الله وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله علىٰ ذلك، وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقا وعقولا ورأيا وصوابا، وعلما -وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون- قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل علىٰ التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلىٰ أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت أدلة للتوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد -علىٰ تكرر الباطل والشبه- إلا نموًّا وكمالا.

هذا، وإن نظرت إلىٰ الدليل العظيم، والأمر الكبير -وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته- فإنه الباب الأعظم إلىٰ العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا تحصل في غيره.

وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾؛ أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة، والحسنات الماحية، وترك الذنوب والعفو عن الجرائم.

﴿وَ﴾ استغفر أيضا ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فإنهم -بسبب إيمانهم- كان لهم حق علىٰ كل مسلم

ومسلمة.

ومن جملة حقوقهم أن يدعىٰ لهم ويستغفر لذنوبهم، وإذا كان مأمورا بالاستغفار لهم المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم، فإن من لوازم ذلك النصح لهم، وأن يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير لهم، وينهاهم عما فيه ضررهم، ويعفو عن مساويهم ومعايبهم، ويحرص علىٰ اجتماعهم اجتماعا تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق، الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾؛ أي: تصرفاتكم وحركاتكم، وذهابكم ومجيئكم، ﴿وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ الذي به تستقرون، فهو يعلمكم في الحركات والسكنات، فيجازيكم علىٰ ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ۝٢١ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ۝٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ۝٢٣﴾ [محمد]

[٢٠-٢١] يقول تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ استعجالا ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ﴾؛ أي: فيها الأمر بالقتال.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ﴾؛ أي: ملزم العمل بها، ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ الذي هو أشق شيء علىٰ النفوس، لم يثبت ضعفاء الإيمان علىٰ امتثال هذه الأوامر، ولهذا قال: ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ من كراهتهم لذلك، وشدته عليهم؛ وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ﴾ [النساء:٧٧].

ثم ندبهم تعالىٰ إلىٰ ما هو الأليق بحالهم، فقال: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾؛ أي: فأولىٰ لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه هممهم، ولا يطلبوا أن يشرّع لهم ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله تعالىٰ وعفوه.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾؛ أي: جاءهم أمر جد، وأمر محتم، ففي هذه الحال لو ﴿صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ من حالهم الأولىٰ، وذلك من وجوه:

منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة علىٰ ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل، بوظيفة وقته الحاضر، وبوظيفة المستقبل، أما الحال، فلأن الهمة انتقلت عنه إلىٰ غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل، فإنه لا يجيء حتىٰ تفتر الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمل للآمال المستقبلة، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته، علىٰ ما يستقبل من أموره، فأحرىٰ به أن يخذل ولا يقوم بما هم به ووطّن نفسه عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه علىٰ وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعينا بربه في ذلك، فهذا حري بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

[٢٢] ثم ذكر تعالىٰ حال المتولي عن طاعة ربه، وأنه لا يتولىٰ إلىٰ خير؛ بل إلىٰ شر، فقال: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾؛ أي: فهما أمران، إما التزامٌ لطاعة الله، وامتثال لأوامره، فثم الخير والرشد والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتولٍّ عن طاعة الله، فما ثم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام.

[٢٣] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ أفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بأن أبعدهم عن رحمته، وقربوا من سخط الله.

﴿فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾؛ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرونه، فلهم آذان، ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعًا تقوم بها حُجّة الله عليها، ولهم أعين، ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلىٰ البراهين والبينات.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد]

[٢٤] أي: فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدلهم علىٰ كل خير، ولحذرهم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان، وأفئدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلىٰ المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبيَّن لهم الطريق الموصلة إلىٰ الله، وإلىٰ جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلىٰ العذاب، وبأي شيء يحذر، ولعرّفهم بربهم، وأسمائه وصفاته

وإحسانه، ولشوّقهم إلىٰ الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الوبيل.

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾؛ أي: قد أغلق علىٰ ما فيها من الشر وأقفلت، فلا يدخلها خير أبدا؟ هذا هو الواقع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد]

[٢٥] يخبر تعالىٰ عن حالة المرتدين عن الهدىٰ والإيمان علىٰ أعقابهم إلىٰ الضلال والكفران، ذلك لا عن دليل دلهم ولا برهان، وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان وتزيين لهم، وإملاء منه لهم: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء].

[٢٦] و﴿ذَٰلِكَ﴾ أنهم قد تبين لهم الهدىٰ، فزهدوا فيه ورفضوه، و﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ من المبارزين العداوة لله ولرسوله ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾؛ أي: الذي يوافق أهواءهم، فلذلك عاقبهم الله بالضلال، والإقامة علىٰ ما يوصلهم إلىٰ الشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين، لئلا يغتروا بها.

[٢٧] ﴿فَكَيْفَ﴾ ترىٰ حالهم الشنيعة، ورؤيتهم الفظيعة ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الموكلون بقبض أرواحهم، ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ بالمقامع الشديدة؟!

[٢٨] ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي استحقوه ونالوه ﴿بِـ﴾ سبب ﴿أَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من كل كفر وفسوق وعصيان.

﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه، ولا يدنيهم منه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضي الله وكره سخطه، فإنه سيكفر عنه سيئاته، ويضاعف له أجره وثوابه.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ

مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾﴾ [محمد]

[٢٩] يقول تعالىٰ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من شبهة أو شهوة، بحيث تخرج القلب عن حال صحته واعتداله، أن الله لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغان والعداوة للإسلام وأهله؟ هذا ظن لا يليق بحكمة الله، فإنه لا بد أن يميّز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمحن، التي من ثبت عليها، ودام إيمانه فيها، فهو المؤمن حقيقة، ومن ردّته علىٰ عقبيه فلم يصبر عليها، وحين أتاه الامتحان، جزع وضعف إيمانه، وخرج ما في قلبه من الضغن، وتبين نفاقه، هذا مقتضىٰ الحكمة الإلهية.

[٣٠] مع أنه تعالىٰ قال: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾؛ أي: بعلاماتهم التي هي كالرّسم في وجوههم، ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾؛ أي: لا بد أن يُظهر ما في قلوبهم، ويتبين بفلتات ألسنتهم، فإن الألسن مغارف القلوب، يظهر فيها ما في القلوب من الخير والشر ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ فيجازيكم عليها.

[٣١] ثم ذكر أعظم امتحان يُمتحن به عباده، وهو الجهاد في سبيل الله، فقال: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾؛ أي: نختبر إيمانكم وصبركم، ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ فمن امتثل أمر الله وجاهد في سبيل الله بنصر دينه وإعلاء كلمته فهو المؤمن حقًّا، ومن تكاسل عن ذلك، كان ذلك نقصًا في إيمانه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾﴾ [محمد]

[٣٢] هذا وعيدٌ شديد لمن جمع أنواع الشر كلِّها، من الكفر بالله، وصد الخلق عن سبيل الله الذي نصبه موصلا إليه.

﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾؛ أي: عاندوه وخالفوه عن عمد وعناد، لا عن جهل وغيٍّ وضلال، فإنهم ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـًٔا﴾ فلا ينقُصُ به ملكه.

﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾؛ أي: مساعيهم التي بذلوها في نصر الباطل، بأن لا تُثمر لهم إلا الخيبة والخسران، وأعمالهم التي يرجون بها الثّواب، لا تقبل لعدم وجود شرطها.

﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٣﴾ [محمد]

[٣٣] يأمر تعالىٰ المؤمنين بأمر به تتم أمورهم، وتحصل سعادتهم الدينية والدنيوية، وهو: طاعته وطاعة رسوله في أصول الدين وفروعه، والطاعة هي امتثال الأمر، واجتناب النهي على الوجه المأمور به بالإخلاص وتمام المتابعة.

وقوله: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ يشمل النهي عن إبطالها بعد عملها، بما يفسدها، مِن مَنٍّ بها وإعجاب، وفخر وسمعة، ومن عمل بالمعاصي التي تضمحلُّ معها الأعمال، ويحبط أجرها، ويشمل النهي عن إفسادها حال وقوعها بقطعها، أو الإتيان بمُفسد من مفسداتها.

فمبطلات الصلاة والصيام والحج ونحوها، كلُّها داخلة في هذا، ومنهي عنها، ويستدل الفقهاء بهذه الآية علىٰ تحريم قطع الفرض، وكراهة قطع النّفل، من غير موجب لذلك، وإذا كان الله قد نهىٰ عن إبطال الأعمال، فهو أمرٌ بإصلاحها، وإكمالها وإتمامها، والإتيان بها، علىٰ الوجه الذي تصلُح به علما وعملًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ٣٤ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٥﴾ [محمد]

[٣٤] هذه الآية والتي في البقرة قولُه: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [البقرة:٢١٧] مقيدتان، لكل نص مطلق، فيه إحباط العمل بالكفر، فإنه مقيد بالموت عليه، فقال هنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَصَدُّواْ﴾ الخلق ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بتزهيدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلىٰ الباطل، وتزيينه، ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾ لم يتوبوا منه، ﴿فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ لا بشفاعة ولا بغيرها، لأنه قد تحتم عليهم العقاب، وفاتهم الثواب، ووجب عليهم الخلود في النار، وسدت عليهم رحمة الرحيم الغفار.

ومفهوم الآية الكريمة أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم، فإن الله يغفر لهم ويرحمهم، ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مفنين أعمارهم في الكفر به والصد عن سبيله، والإقدام علىٰ معاصيه، فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة، ولم يغلقها عن أحد، ما دام حيًّا متمكّنًا من التوبة.

وسبحان الحليم، الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة؛ بل يعافيهم، ويرزقهم، كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم.

[٣٥] ثم قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾؛ أي: لا تضعفوا عن قتال عدوكم، ويستولي عليكم الخوف؛ بل اصبروا واثبتوا، ووطنوا أنفسكم علىٰ القتال والجلاد، طلبا لمرضاة ربكم، ونصحا للإسلام، وإغضابا للشيطان.

﴿وَ﴾لا ﴿تَدۡعُوٓاْ إِلَى﴾ المسالمة والمتاركة بينكم وبين أعدائكم طلبا للراحة، ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ﴾؛ أي: ينقصكم ﴿أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾.

فهذه الأمور الثلاثة؛ كلٌّ منها مقتض للصبر وعدم الوهن كونهم الأعلين؛ أي:

قد توفرت لهم أسباب النصر، ووُعدوا من الله بالوعد الصادق، فإن الإنسان لا يهن إلا إذا كان أذل من غيره وأضعف عددًا، أو عددا، وقوة داخلية، وخارجية.

الثاني: أن الله معهم، فإنهم مؤمنون، والله مع المؤمنين، بالعون، والنصر، والتأييد، وذلك موجب لقوة قلوبهم، وإقدامهم علىٰ عدوهم.

الثالث: أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئا؛ بل سيوفيهم أجورهم، ويزيدهم من فضله، خصوصا عبادة الجهاد، فإن النفقة تضاعف فيه، إلىٰ سبعمائة ضعف، إلىٰ أضعاف كثيرة، وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١﴾[التوبة].

فإذا عرف الإنسان أن الله تعالىٰ لا يضيع عمله وجهاده، أوجب له ذلك النشاط، وبذل الجهد فيما يترتّب عليه الأجر والثواب، فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة فإن ذلك يوجب النشاط التام، فهذا من ترغيب الله لعباده، وتنشيطهم، وتقوية أنفسهم علىٰ ما فيه صلاحُهم وفلاحهم.

﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ٣٦ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ٣٧ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمد]

[٣٦-٣٧] هذا تزهيدٌ منه لعباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنها لعبٌ ولهو، لعب في الأبدان ولهو في القلوب، فلا يزال العبد لاهيًا في ماله، وأولاده، وزينته، ولذاته من النساء، والمآكل

والمشارب، والمساكن والمجالس، والمناظر والرياسات، لاعبًا في كل عمل لا فائدة فيه، بل هو دائر بين البطالة والغفلة والمعاصي، حتىٰ يستكمل دنياه، ويحضره أجله، فإذا هذه الأمور قد ولت وفارقت، ولم يحصل العبد منها علىٰ طائل؛ بل قد تبين له خسرانه وحرمانه، وحضر عذابه، فهذا موجب للعاقل الزهد فيها، وعدم الرّغبة فيها، والاهتمام بشأنها، وإنما الذي ينبغي أن يهتم به ما ذكره بقوله: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ بأن تؤمنوا بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتقوموا بتقواه التي هي من لوازم الإيمان ومقتضياته، وهي العمل بمرضاته علىٰ الدوام، مع ترك معاصيه، فهذا الذي ينفع العبد، وهو الذي ينبغي أن يتنافس فيه، وتبذل الهمم والأعمال في طلبه، وهو مقصود الله من عباده رحمة بهم ولطفا، ليثيبهم الثواب الجزيل، ولهذا قال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾؛ أي: لا يريد تعالىٰ أن يكلّفكم ما يشق عليكم، ويُعنتكم من أخذ أموالكم، وبقائكم بلا مال، أو ينقصكم نقصا يضركم، ولهذا قال: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾؛ أي: ما في قلوبكم من الضغن، إذا طلب منكم ما تكرهون بذله.

[٣٨] والدليل علىٰ أن الله لو طلب منكم أموالكم وأحفاكم بسؤالها، أنكم تمتنعون منها، أنكم ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ علىٰ هذا الوجه، الذي فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية.

﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾؛ أي: فكيف لو سألكم، وطلب منكم أموالكم في غير أمر ترونه مصلحة عاجلة؟ أليس من باب أولىٰ وأحرىٰ امتناعكم من ذلك.

ثم قال: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لأنه حرَم نفسه ثواب الله تعالىٰ، وفاته خير كثير، ولن يضر الله بترك الإنفاق شيئا. فإن الله هو ﴿ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ تحتاجون إليه في جميع أوقاتكم، لجميع أموركم.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ عن الإيمان بالله، وامتثال ما يأمركم به ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ في التولي؛ بل يطيعون الله ورسوله، ويحبون الله ورسوله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤].

تم تفسير سورة القتال، والحمد لله ربِّ العالمين.

٤٨- تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَتْحِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ٣﴾ [الفتح]

[١] هذا الفتح المذكور هو صلح الحديبية، حين صدَّ المشركون رسول الله ﷺ لما جاء معتمرا في قصة طويلة، صار آخر أمرها أنْ صالَحهم رسول الله ﷺ علىٰ وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلىٰ أن يعتمر من العام المُقبل، وعلىٰ أن من أراد أن يدخل في عهد قريش وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده فعل.

وسبب ذلك لما أَمِن الناس بعضهم بعضًا، اتسعت دائرة الدعوة لدين الله ﷻ، وصار كل مؤمن بأي محل كان من تلك الأقطار، يتمكن من ذلك، وأمكن الحريص علىٰ الوقوف علىٰ حقيقة الإسلام، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجا، فلذلك سماه الله فتحا، ووصفه بأنه فتح مبين؛ أي: ظاهر جلي، وذلك لأن المقصود في فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله، وانتصارُ المسلمين، وهذا حصل بذلك الفتح.

[٢] ورتّب الله علىٰ هذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وذلك -والله أعلم- بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة، وبما تحمل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ، أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ بإعزاز دينك، ونصرك علىٰ أعدائك، واتساع كلمتك، ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ تنال به السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي.

[٣] ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾؛ أي: قويا لا يتضعضع فيه الإسلام، بل يحصل الانتصار التام،

وقمع الكافرين، وذلهم ونقصهم، مع توفر قوىٰ المسلمين ونموهم، ونمو أموالهم.

ثم ذكر آثار هذا الفتح علىٰ المؤمنين فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ [الفتح]

[٤] يخبر تعالىٰ عن منته علىٰ المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن المُقلقة، والأمور الصعبة، التي تشوش القلوب، وتزعج الألباب، وتُضعف النفوس، فمن نعمة الله علىٰ عبده في هذه الحال أن يثبِّته ويربط علىٰ قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقىٰ هذه المشقات بقلبٍ ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه، فالصحابة رضي الله عنهم لما جرىٰ ما جرىٰ بين رسول الله ﷺ والمشركين، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وحطٌّ من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيمانا مع إيمانهم. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾؛ أي: جميعها في ملكه، وتحت تدبيره وقهره، فلا يظنُّ المشركون أن الله لا ينصر دينه ونبيه؛ ولكنَّه تعالىٰ عليم حكيم، فتقتضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام، وتأخير نصر المؤمنين إلىٰ وقت آخر.

[٥] ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ﴾ فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين، أن يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الجزاء المذكور للمؤمنين ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين.

[٦] وأما المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات، فإنَّ الله يعذبهم بذلك، ويريهم ما يسوءهم؛ حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا بالله الظن السوء، أنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، وأن أهل الباطل، ستكون لهم الدائرة علىٰ أهل الحق، فأدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا، ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بما اقترفوه من المحادة لله ولرسوله، ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾؛ أي: أبعدهم

وأقصاهم عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾ [الفتح]

[٧] كرر الإخبار بأن له ملك السَّمٰوات والأرض وما فيهما من الجنود، ليعلم العباد أنه تعالىٰ هو المعز المُذل، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصافات]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾؛ أي: قويا غالبا، قاهرا لكل شيء، ومع عزته وقوته فهو حكيم في خلقه وتدبيره، يجري علىٰ ما تقتضيه حكمته وإتقانه.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح]

[٨] أي: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾؛ أيها الرسول الكريم ﴿شَٰهِدًا﴾ لأمتك بما فعلوه من خير وشر، وشاهدا علىٰ المقالات والمسائل، حقِّها وباطلها، وشاهدا لله تعالىٰ بالوحدانية والانفراد بالكمال من كل وجه، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ مَنْ أطاعك وأطاع الله بالثواب الدنيوي والدِّيني والأخروي، ومنذرا من عصىٰ الله بالعقاب العاجل والآجل، ومن تمام البشارة والنِّذارة، بيان الأعمال والأخلاق التي يبشِّر بها وينذر، فهو المبين للخير والشر، والسعادة والشقاوة، والحق من الباطل.

[٩] ولهذا رتب علىٰ ذلك قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: بسبب دعوة الرسول لكم، وتعليمه لكم ما ينفعكم، أرسلناه لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتهما في جميع الأمور.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾؛ أي: تعزروا الرسول ﷺ وتوقروه أي: تعظموه وتجلوه، وتقوموا بحقوقه، كما كانت له المنة العظيمة برقابكم، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾؛ أي: تسبحوا الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أول النهار وآخره.

فذكر الله في هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الإيمان بهما، والمختص بالرسول؛ وهو التعزير والتوقير، والمختص بالله؛ وهو التسبيح له والتقديس بصلاة أو غيرها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾ [الفتح]

[١٠] هذه المبايعة التي أشار الله إليها هي «بيعة الرضوان» التي بايع الصحابة رضي الله عنهم فيها رسول الله

ﷺ، علىٰ ألَّا يفروا عنه، فهي عقد خاص، من لوازمه أن لا يفروا، ولو لم يبق منهم إلَّا القليل، ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها، فأخبر تعالىٰ: أن الذين بايعوك حقيقة الأمر أنهم ﴿يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ ويعقدون العقد معه، حتىٰ إنه من شدة تأكُّده أنه قال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾؛ أي: كأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعة، وكلُّ هذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحمَلَهم علىٰ الوفاء بها، ولهذا قال: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ فلم يف بما عاهد الله عليه ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾؛ أي: لأنَّ وبال ذلك راجع إليه، وعقوبته واصلة له، ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ﴾؛ أي: أتىٰ به كاملًا موفرا، ﴿فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم عِظمه وقدره إلَّا الذي آتاه إياه.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ١١ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٢ وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ١٣﴾ [الفتح]

[١١-١٣] يذم تعالىٰ المتخلفين عن رسول الله في الجهاد في سبيله، من الأعراب الذين ضعف إيمانهم، وكان في قلوبهم مرض، وسوء ظن بالله تعالىٰ، وأنهم سيعتذرون بأن أموالهم وأهليهم شغلتهم عن الخروج في سبيله، وأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، قال الله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ فإن طلبهم الاستغفار من رسول الله ﷺ يدلّ علىٰ ندمهم وإقرارهم علىٰ أنفسهم بالذَّنب، وأنهم تخلفوا تخلفا يحتاج إلىٰ توبة واستغفار، فلو كان هذا الذي في قلوبهم، لكان استغفار الرّسول نافعًا لهم، لأنهم قد تابوا وأنابوا؛ ولكن الذي في قلوبهم، أنهم إنما تخلفوا لأنهم ظنوا بالله ظن السوء؛ فظنوا ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾؛ أي: أنهم سيقتلون ويستأصلون، ولم يزل هذا الظن يزين في قلوبهم، ويطمئنون إليه، حتىٰ استحكم، وسبب ذلك أمران:

أحدها: أنهم كانوا ﴿قَوۡمَۢا بُورٗا﴾؛ أي: هلكىٰ، لا خير فيهم، فلو كان فيهم خيرٌ لم يكن هذا في قلوبهم.

الثاني: ضعف إيمانهم ويقينهم بوعد الله، ونصر دينه، وإعلاء كلمته، ولهذا قال: ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: فإنه كافر مستحقٌّ للعقاب، ﴿فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا

﴿رَّحِيمًا ١٤﴾ [الفتح]

[١٤] أي: هو تعالىٰ المنفرد بملك السَّمٰوات والأرض، يتصرّف فيهما بما يشاء من الأحكام القدرية، والأحكام الشرعية، والأحكام الجزائية، ولهذا ذكر حكم الجزاء المرتَّب علىٰ الأحكام الشرعية، فقال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ وهو من قام بما أمره الله به ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ ممَّن تهاون بأمر الله، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أي: وصفه اللازم الذي لا ينفكُّ عنه المغفرة والرحمة، فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطّائين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره المدرار، آناء الليل والنهار.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٥﴾ [الفتح]

[١٥] لما ذكر تعالىٰ المخلَّفين وذمهم، ذكر أن من عقوبتهم الدُّنيوية، أن رسول الله ﷺ وأصحابه إذا انطلقوا إلىٰ غنائم لا قتال فيها ليأخذوها طلبوا منهم الصحبة والمشاركة، ويقولون: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ﴾ بذلك ﴿أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ حيث حكم بعقوبتهم، واختصاص الصحابة المؤمنين بتلك الغنائم شرعا وقدرا، ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ﴾ إنكم محرومون منها بما جنيتم علىٰ أنفسكم وبما تركتم القتال أول مرة، ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مجيبين لهذا الكلام، الذي منعوا به عن الخروج: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ﴾ علىٰ الغنائم، هذا منتهىٰ علمهم في هذا الموضع، ولو فهموا رُشدهم، لعلموا أن حرمانهم بسبب عصيانهم، وأنَّ المعاصي لها عقوبات دنيوية ودينية؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ١٧﴾ [الفتح]

[١٦] لما ذكر تعالىٰ أنَّ المخلفين من الأعراب يتخلفون عن الجهاد في سبيله، ويعتذرون بغير عذر، وأنهم يطلبون الخروج معهم إذا لم يكن شوكة ولا قتال؛ بل لمجرد الغنيمة، قال تعالىٰ ممتحنا لهم:

﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي: سيدعوكم الرسول ومن ناب منابه من الخلفاء الراشدين والأئمة، وهؤلاء القوم فارس والروم ومن نحا نحوهم وأشبههم.

﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾؛ أي: إما هذا وإما هذا، وهذا هو الأمر الواقع؛ فإنهم في حال قتالهم ومقاتلتهم لأولئك الأقوام، إذ كانت شدتهم وبأسهم معهم فإنهم في تلك الحال لا يقبلون أن يبذلوا الجزية؛ بل إما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يقاتلوا علىٰ ما هم عليه، فلما أثخنهم المسلمون، وضعفوا وذلوا، ذهب بأسهم، فصاروا إما أن يسلموا، وإما أن يبذلوا الجزية، ﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾ الداعي لكم إلىٰ قتال هؤلاء ﴿يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ﴾ وهو الأجر الذي رتَّبه الله ورسوله علىٰ الجهاد في سبيل الله، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ عن قتال من دعاكم الرسول إلىٰ قتاله، ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ ودلَّت هذه الآية علىٰ فضيلة الخلفاء الراشدين، الدَّاعين لجهاد أهل البأس من الناس، وأنه تجب طاعتهم في ذلك.

[١٧] ثم ذكر الأعذار التي يعذر بها العبد عن الخروج إلىٰ الجهاد؛ فقال: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ﴾؛ أي: في التخلُّف عن الجهاد لعذرهم المانع.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله ورسوله ﴿يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ فالسّعادة كلها في طاعة الله، والشقاوة في معصيته ومخالفته.

﴿۞لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٩ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢٠ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢١﴾ [الفتح]

[١٨-١٩] يخبر تعالىٰ بفضله ورحمته، برضاه عن المؤمنين إذ يبايعون الرسول ﷺ تلك المبايعة التي بيضت وجوههم، واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة، وكان سبب هذه البيعة -التي يقال لها «بيعة الرضوان» لرضا الله عن المؤمنين فيها، ويقال لها «بيعة أهل الشجرة» - أن رسول الله ﷺ لما دار الكلام بينه وبين المشركين يوم الحديبية في شأن مجيئه، وأنه لم يجئ لقتال أحد، وإنما جاء زائرا هذا البيت،

معظما له، فبعث رسول الله ﷺ عثمان بن عفان لمكة في ذلك، فجاء خبرٌ غير صادق، أن عثمان قتله المشركون، فجمع رسول الله ﷺ من معه من المؤمنين، وكانوا نحوًا من ألف وخمسمائة، فبايعوه تحت شجرة علىٰ قتال المشركين، وألَّا يفروا حتىٰ يموتوا، فأخبر تعالىٰ أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال، التي هي من أكبر الطاعات وأجل القربات، ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإيمان، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ شكرًا لهم علىٰ ما في قلوبهم، زادهم هدىٰ، وعلم ما في قلوبهم من الجزع من تلك الشروط التي شرطها المشركون علىٰ رسوله، فأنزل عليهم السكينة تثبِّتهم، وتطمئن بها قلوبهم، ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو: فتح خيبر، لم يحضُره سوىٰ أهل الحديبية، فاختصوا بخيبر وغنائمها، جزاءً لهم، وشكرا علىٰ ما فعلوه من طاعة الله تعالىٰ والقيام بمرضاته.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ أي: له العزّة والقدرة، التي قهر بها الأشياء، فلو شاء لانتصر من الكفار في كلِّ وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين، ولكنه حكيم، يبتلي بعضهم ببعض، ويمتحن المؤمن بالكافر.

[٢٠] ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهذا يشمل كل غنيمة غنّمها المسلمين إلىٰ يوم القيامة، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: غنيمة خيبر أي: فلا تحسبوها وحدها؛ بل ثَم شيء كثير من الغنائم سيتبعها، ﴿وَ﴾ احمدوا الله إذ ﴿كَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ﴾ القادرين علىٰ قتالكم الحريصين عليه ﴿عَنكُمْ﴾ فهي نعمة، وتخفيفٌ عنكم.

﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الغنيمة ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يستدلُّون بها علىٰ خبر الله الصادق، ووعده الحق، وثوابه للمؤمنين، وأن الذي قدَّرها سيقدر غيرها، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بما يقيض لكم من الأسباب ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ من العلم والإيمان والعمل.

[٢١] ﴿وَأُخْرَىٰ﴾؛ أي: وعدكم أيضًا غنيمة أخرىٰ ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ وقت هذا الخطاب، ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ﴾؛ أي: هو قادرٌ عليها، وتحت تدبيره وملكه، وقد وعدكموها، فلا بد من وقوع ما وعد به، لكمال اقتدار الله تعالىٰ، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح]

[٢٢] هذه بشارة من الله لعباده المؤمنين، بنصرهم علىٰ أعدائهم الكافرين، وأنهم لو قابلوهم

وقاتلوهم ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا﴾ يتولى أمرهم، ﴿وَلَا نَصِيرٗا﴾ ينصرهم ويعينهم على قتالكم؛ بل هم مخذولون مغلوبون.

[٢٣] وهذه سنة الله في الأمم السابقة، أنَّ جند الله هم الغالبون، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح]

[٢٤] يقول تعالى ممتنًّا على عباده بالعافية، من شر الكفار ومن قتالهم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ﴾؛ أي: أهل مكة ﴿عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ أي: من بعد ما قدرتم عليهم، وصاروا تحت ولايتكم بلا عقد ولا عهد، وهم نحو ثمانين رجلا انحدروا على المسلمين ليُصيبوا منهم غرة، فوجدوا المسلمين متنبهين فأمسكوهم، فتركوهم ولم يقتلوهم، رحمة من الله بالمؤمنين إذ لم يقتلوهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ فيجازي كل عاملٍ بعمله، ويدبركم أيها المؤمنون بتدبيره الحسن.

[٢٥] ثم ذكر تعالى الأمور المهيجة على قتال المشركين، وهي كفرهم بالله ورسوله، وصدُّهم رسول الله ومن معه من المؤمنين، أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظِّمين له بالحج والعمرة، وهم الذين أيضا صدوا ﴿ٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا﴾؛ أي: محبوسًا ﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ وهو محل ذبحه في مكة، حيث تذبح هدايا العمرة، فمنعوه من الوصول إليه ظلما وعدوانا، وكل هذه أمور موجبة وداعية إلى قتالهم؛ ولكن ثم مانع وهو: وجود رجال ونساء من أهل الإيمان بين أظهر المشركين، وليسوا بمتميزين بمَحلة أو مكان يمكن أن لا ينالهم أذى، فلولا هؤلاء الرجال المؤمنون، والنساء المؤمنات، الذين لا يعلمهم المسلمون ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾؛ أي: خشية أن تطؤوهم ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ والمعرة: ما يدخل تحت قتالهم؛ من نيلهم بالأذى والمكروه.

وفائدة أخروية، وهو: أنه ليدخل في رحمته من يشاء فيمن عليهم بالإيمان بعد الكفر، وبالهدى بعد الضلال، فيمنعكم من قتالهم لهذا السبب.

﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾؛ أي: لو زالوا من بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بأن نبيح لكم قتالهم، ونأذن فيه، وننصركم عليهم.

﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ٢٦﴾ [الفتح]

[٢٦] يقول تعالىٰ: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ حيث أنِفُوا من كتابة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾ [الفاتحة] وأنفوا من دخول رسول الله ﷺ والمؤمنين إليهم في تلك السنة، لئلا يقول الناس: «دخلوا مكة قاهرين لقريش»، وهذه الأمور ونحوها من أمور الجاهلية، لم تزل في قلوبهم حتىٰ أوجبت لهم ما أوجبت من كثير من المعاصي، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فلم يحملهم الغضب علىٰ مقابلة المشركين بما قابلوهم به؛ بل صبروا لحكم الله، والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمات الله ولو كانت ما كانت، ولم يبالوا بقول القائلين، ولا لوم اللائمين.

﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ وهي (لا إله إلا الله) وحقوقها، ألزمهم القيام بها، فالتزموها وقاموا بها، ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم ﴿وَ﴾ كانوا ﴿أَهۡلَهَاۚ﴾ الذين استأهلوها لما يعلم الله عندهم وفي قلوبهم من الخير، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحًا قَرِيبًا ٢٧ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ٢٨﴾ [الفتح]

[٢٧] يقول تعالىٰ: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ رأىٰ في المدينة رؤيا أخبر بها أصحابه، أنهم سيدخلون مكة ويطوفون بالبيت، فلما جرىٰ يوم الحديبية ما جرىٰ، ورجعوا من غير دخول لمكة، كثر في ذلك الكلام منهم، حتىٰ إنهم قالوا ذلك لرسول الله ﷺ: ألم تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ فقال: «أخبرتكم أنه العام؟» قالوا: لا؛ قال: «فإنكم ستأتونه وتطوفون به» قال الله هنا: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾؛ أي: لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدح في ذلك تأخُّر تأويلها، ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ﴾؛ أي: في هذه الحال المقتضية لتعظيم هذا البيت الحرام، وأدائكم للنسك، وتكميله بالحلق والتقصير، وعدم الخوف، ﴿فَعَلِمَ﴾ من المصلحة والمنافع ﴿مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الدخول بتلك الصفة ﴿فَتۡحًا

قَرِيبًا﴾.

[٢٨] ولما كانت هذه الواقعة ممَّا تشوشت بها قلوب بعض المؤمنين، وخفِيت عليهم حكمتها، فبين تعالىٰ حكمتها ومنفعتها، وهكذا سائر أحكامه الشَّرعية، فإنها كلها هدىٰ ورحمة. أخبر بحكم عام، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ الذي هو العلم النافع، الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق الخير والشر.

﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان والرحمة، وهو كل عمل صالح مزك للقلوب، مطهر للنفوس، مرب للأخلاق، معل للأقدار.

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ بما بعثه الله به ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾ بالحجة والبرهان، ويكون داعيا لإخضاعهم بالسيف والسنان.

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح]

[٢٩] يخبر تعالىٰ عن رسوله ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار، أنهم بأكمل الصفات، وأجل الأحوال، وأنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾؛ أي: جادين ومجتهدين في عداوتهم، وساعين في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدة، فلذلك ذل أعداؤهم لهم، وانكسروا، وقهرهم المسلمون، ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾؛ أي: متحابون متراحمون متعاطفون، كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، هذه معاملتهم مع الخلق، وأما معاملتهم مع الخالق فـ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾؛ أي: وصفهم كثرة الصلاة، التي أجل أركانها الركوع والسجود.

﴿يَبۡتَغُونَ﴾ بتلك العبادة ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾؛ أي: هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم، والوصول إلىٰ ثوابه.

﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾؛ أي: قد أثرت العبادة -من كثرتها وحسنها- في وجوههم، حتىٰ استنارت، لما استنارت بالصلاة بواطنهم استنارت ظواهرهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾؛ أي: هذا وصفهم الذي وصفهم الله به، مذكور بالتوراة

هكذا.

وأما ﴿مَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ﴾، فإنهم موصوفون بوصف آخر، وأنهم في كمالهم وتعاونهم ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ﴾؛ أي: أخرج فراخه، فوازرته فراخه في الشباب والاستواء.

﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ ذلك الزرع أي: قوي وغلظ ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ جمع ساق، ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ من كماله واستوائه، وحسنه واعتداله، كذلك الصحابة رضي الله عنهم، هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، فقوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه، قد لحق الكبير السابق ووازره وعاونه علىٰ ما هو عليه، من إقامة دين الله والدعوة إليه، كالزرع الذي أخرج شطأه، فآزره فاستغلظ، ولهذا قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ حين يرون اجتماعهم وشدتهم علىٰ دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك النِّزال، ومعامع القتال.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ فالصحابة رضي الله عنهم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة، التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدُّنيا والآخرة.

ولنسق قصة الحديبية بطولها، كما ساقها الإمام شمس الدين ابن القيم في «الهدي النبوي» فإن فيها إعانة علىٰ فهم هذه السورة، وتكلم علىٰ معانيها وأسرارها، قال رحمه الله تعالىٰ:

فصل في قصة الحديبية

قال نافع: كانت سنة ست في ذي القعدة، وهذا هو الصحيح، وهو قول الزهري، وقتادة، وموسىٰ بن عقبة، ومحمد بن إسحاق وغيرهم.

وقال هشام بن عروة، عن أبيه: خرج رسول الله ﷺ إلىٰ الحديبية في رمضان، وكانت في شوال، وهذا وهم، وإنما كانت غزاة الفتح في رمضان. قال أبو الأسود عن عروة: إنها كانت في ذي القعدة علىٰ الصواب.

وفي «الصحيحين» عن أنس، أن النبي ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة، فذكر منهن عمرة الحديبية، وكان معه ألف وخمسمائة، هكذا في «الصحيحين» عن جابر، وعنه فيهما: كانوا ألفا وأربعمائة، وفيهما، عن عبد الله بن أبي أوفى: كنا ألفا وثلاثمائة، قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الجماعة الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة، قال: قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع عشرة مائة، قال: يرحمه الله وهم، وهو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة، قلت: وقد صح

عن جابر القولان، وصح عنه أنهم نحروا عام الحديبية سبعين بدنة، البدنة عن سبعة، فقيل له: كم كنتم؟ قال: ألفا وأربعمائة، بخيلنا ورجلنا، يعني: فارسهم وراجلهم.

والقلب إلىٰ هذا أميل، وهو قول البراء بن عازب، ومعقل بن يسار، وسلمة بن الأكوع، في أصح الروايتين، وقول المسيب بن حزن، قال شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفا وأربعمائة، وغلط غلطا بينا من قال: كانوا سبعمائة، وعذره أنهم نحروا يومئذ سبعين بدنة، والبدنة قد جاء إجزاؤها عن سبعة وعن عشرة، وهذا لا يدل علىٰ ما قاله هذا القائل، فإنه قد صرح بأن البدنة كانت في هذه الغزوة عن سبعة، فلو كانت السبعون عن جميعهم، لكانوا أربعمائة وتسعين رجلا وقد قال بتمام الحديث بعينه، أنهم كانوا ألفا وأربعمائة.

فصل

فلما كانوا بذي الحليفة، قلّد رسول الله ﷺ الهدي وأشعره، وأحرم بالعمرة، وبعث عينا له بين يديه من خزاعة، يخبره عن قريش، حتىٰ إذا كان قريبا من عسفان، أتاه عينه، فقال: إني قد تركت كعب بن لؤي، قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعا، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك.

واستشار النبيُّ ﷺ أصحابَه، وقال: أترون أن نميل إلىٰ ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم، فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا تكن عنقا قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت؟ فمن صدنا عنه قاتلناه؟ قال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذا» فراحوا، حتىٰ إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش، فخذوا ذات اليمين»، فوالله ما شعر بهم خالد، حتىٰ إذا هو بغبرة الجيش، فانطلق يركض نذيرا لقريش.

وسار النبي ﷺ، حتىٰ إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتموها» ثم زجرها، فوثبت به، فعدل حتىٰ نزل بأقصىٰ الحديبية، علىٰ ثمد قليل الماء، إنما يتبرضه الناس تبرُّضا، فلم يلبث الناس أن نزحوه، فشكوا إلىٰ رسول الله ﷺ العطش.

فانتزع سهما من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، قال: فوالله ما زال يجيش لهم بالرّي حتىٰ صدروا عنها، وفزعت قريش لنزوله عليهم، فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلا من أصحابه، فدعا

عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم، فقال: يا رسول الله، ليس بمكة أحد من بني كعب يغضب لي، إن أوذيت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلِّغٌ ما أردت.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فأرسله إلىٰ قريش، وقال: «أخبرهم أنّا لم نأت لقتال، إنما جئنا عُمّارا، وادعهم إلىٰ الإسلام».

وأمره أن يأتي رجالا بمكة مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عَزَّوَجَلَّ مُظهر دينه بمكة، حتىٰ لا يستخفىٰ فيها بالإيمان، فانطلق عثمان، فمر علىٰ قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلىٰ الله وإلىٰ الإسلام، وأخبركم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عمارا، قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ لحاجتك.

وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به، وأسرج فرسه، فحمل عثمان علىٰ الفرس، فأجاره، وأردفه أبان حتىٰ جاء مكة، وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خلص عثمان قبلنا إلىٰ البيت وطاف به، فقال رسول الله ﷺ: «ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون» فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص؟ قال: «ذاك ظني به، أن لا يطوف بالكعبة حتىٰ نطوف معه»، واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح، فرمىٰ رجل من أحد الفريقين رجلا من الفريق الآخر، وكانت معركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا إلىٰ البيعة.

فثار المسلمون إلىٰ رسول الله ﷺ، وهو تحت الشجرة، فبايعوه علىٰ ألا يفروا، فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه، وقال: «هذه عن عثمان» ولما تمت البيعة، رجع عثمان، فقال له المسلمون: اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت، فقال: بئسما ظننتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنة، ورسول الله ﷺ، مقيمٌ بالحديبية، ما طفت بها حتىٰ يطوف بها رسول الله ﷺ، ولقد دعتني قريش إلىٰ الطواف بالبيت فأبيت، فقال المسلمون: رسول الله ﷺ، كان أعلمنا بالله، وأحسننا ظنًّا.

وكان عمر أخذ بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كلهم إلا الجد ابن قيس، وكان معقل بن يسار آخذا بغصنها يرفعه عن رسول الله ﷺ، وكان أول من بايعه أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات، في أول الناس، وأوسطهم، وآخرهم.

فبينما هم كذلك، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي، في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ، من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم

العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت.

قال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا أماددهم ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده، لأقاتلنهم علىٰ أمري هذا حتىٰ تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره» قال بديل: سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتىٰ أتىٰ قريشا، فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجل، وسمعته يقول قولا فإن شئتم عرضته عليكم، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي: منهم: هات ما سمعته، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ، فقال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد، فاقبلوها، ودعوني آته، فقالوا: ائته، فأتاه، فجعل يكلمه، فقال النبي ﷺ نحوا من قوله لبديل، فقال له عروة عند ذلك: أي: محمد، أرأيت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرىٰ، فوالله إني لأرىٰ وجوها، وأرىٰ أوباشا من الناس، خليقا أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها، لأجبتك.

وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبي ﷺ، ومعه السيف، وعليه المغفر فكلما أهوىٰ عروة إلىٰ لحية النبي ﷺ، ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، وقال: من ذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أي: غدر، أولست أسعىٰ في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوما فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ، فوالله إن تنخم النبي ﷺ نخامة، إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها جلده ووجهه.

وإذا أمرهم ابتدروا إلىٰ أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون علىٰ وضوئه، وإذا تكلم، خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر، تعظيما له.

فرجع عروة إلىٰ أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت علىٰ الملوك، علىٰ كسرىٰ، وقيصر، والنجاشي، والله ما رأيت ملكا يعظِّمه أصحابه، ما يعظم أصحاب محمد محمدا، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كفِّ رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا

يقتتلون علىٰ وضوئه، وإذا تكلم، خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيما له، وقد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: ائته.

فلما أشرف علىٰ النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البُدن فابعثوها له» فبعثوها فاستقبله القوم يلبون، فلما رأىٰ ذلك، قال: سبحان الله، لا ينبغي لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت.

فرجع إلىٰ أصحابه، فقال: رأيت البدن قد قلِّدت وأشعرت، وما أرىٰ أن يصدوا عن البيت، فقام مكرز بن حفص، وقال: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم، قال النبي ﷺ: «هذا مكرز بن حفص، وهو رجل فاجر» فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فبينما هو يكلمه، إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم» فقال: هات، اكتب بيننا وبينك كتابا، فدعا الكاتب، فقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما ندري ما هو، ولكن اكتب: "باسمك اللّٰهُمَّ" كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللّٰهُمَّ»

ثم قال: «اكتب: هذا ما قاضىٰ عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: فوالله لو نعلم أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «إني رسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله» فقال النبي ﷺ: «علىٰ أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به» فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب.

فقال سهيل: علىٰ ألا يأتيك منا رجل، وإن كان علىٰ دينك، إلا رددته علينا.

فقال المسلمون: سبحان الله، كيف يُرد إلىٰ المشركين وقد جاء مسلما؟

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتىٰ رمىٰ بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما [أقاضيك] عليه، أن ترده إلي، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد» فقال: فوالله إذن لا أصالحك علىٰ شيء أبدا، فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي» فقال: ما أنا بمجيزه، فقال: «بلىٰ فافعل» قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: قد أجزناه.

فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أرد إلىٰ المشركين وقد جئت مسلما، ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب في الله عذابا شديدا.

قال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذٍ، فأتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله

ألست نبي الله؟ قال: «بلىٰ» قلت: ألسنا علىٰ الحق، وعدونا علىٰ الباطل؟ قال: «بلىٰ» فقلت: علام نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: «إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه» قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلىٰ، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟» قلت: لا قال: «فإنك آتيه ومطوف به».

قال: فأتيت أبا بكر، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، ورد عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستمسك بغرزه حتىٰ تموت، فوالله إنه لعلىٰ الحق، قال عمر: فعملت لذلك أعمالا.

فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ: «قوموا وانحروا، ثم احلقوا» فوالله ما قام منهم رجل حتىٰ قال ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، قام فدخل علىٰ أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا رسول الله أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدا كلمة حتىٰ تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلق لك، فقام فخرج، فلم يكلم أحدا منهم حتىٰ فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأىٰ الناس ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتىٰ كاد بعضهم يقتل بعضا غمًّا، ثم جاءت نسوة مؤمنات، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ [الممتحنة:١٠] حتىٰ بلغ ﴿بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾[الممتحنة:١٠] فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية، والأخرىٰ صفوان بن أمية، ثم رجع إلىٰ المدينة.

وفي مرجعه أنزل الله عليه: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ٣﴾ [الفتح] إلىٰ آخرها، فقال عمر: أفتحٌ هو يا رسول الله؟ فقال: «نعم» فقال الصحابة: هنيئا لك يا رسول الله، فما لنا؟

فأنزل الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح:٤].

الآية. انتهىٰ.

وهذا آخر تفسير سورة الفتح ولله الحمد والمنة.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه، نقلته من خط المفسر رحمه الله وعفا عنه.

وكان الفراغ من كتابته في ١٣ ذي الحجة ١٣٤٥ وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين آمين.

بقلم الفقير إلىٰ ربه سليمان بن حمد العبد الله البسام. غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين.

وصلىٰ الله علىٰ محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدين والحمد لله الذي

بنعمته تتم الصالحات.

٤٩- تَفْسِيرُ سُورَةِ الحُجُرَاتِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣﴾ [الحُجُرات]

هذا متضمن للأدب، مع الله تعالىٰ، ومع رسول الله ﷺ، والتعظيم له، والاحترام له، وإكرامه، فأمر الله عباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان بالله ورسوله من امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ في جميع أمورهم، وألا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، فلا يقولوا حتىٰ يقول، ولا يأمروا حتىٰ يأمر، فإن هذا حقيقة الأدب الواجب، مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه وبفواته تفوته السعادة الأبدية والنعيم السرمدي.

وفي هذا النهي الشديد عن تقديم قول غير الرسول ﷺ علىٰ قوله، فإنه متىٰ استبانت سنة رسول الله ﷺ وجب اتباعها وتقديمها علىٰ غيرها، كائنا ما كان.

[١] ثم أمر الله بتقواه عمومًا، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله علىٰ نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله علىٰ نور من الله تخشىٰ عقاب الله.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾؛ أي: لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات، ﴿عَلِيمٌ﴾ بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والجائزات.

وفي ذكر الاسمين الكريمين -بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، والأمر بتقواه- حث علىٰ امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن ضده.

[٢] ثم قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ وهذا أدب مع الرسول ﷺ، في خطابه، أي: لا يرفع المخاطب له، صوته معه، فوق صوته، ولا يجهر له بالقول؛ بل يغض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين، وتعظيم وتكريم، وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحدهم؛ بل يميزوه في خطابهم، كما تميز عن غيره، في وجوب حقه علىٰ الأمة، ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به، فإن في عدم القيام بذلك، محذورًا، وخشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر، كما أن الأدب معه، من أسباب حصول الثواب وقبول الأعمال.

[٣] ثم مدح من غض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوىٰ، أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوىٰ، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم، المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالىٰ، وفيه حصول كل محبوب، وفي هذا دليل علىٰ أن الله يمتحن القلوب، بالأمر والنهي والمحن، فمن لازم أمر الله، واتبع رضاه، وسارع إلىٰ ذلك، وقدمه علىٰ هواه، تمحض وتمحص للتقوىٰ، وصار قلبه صالحًا لها ومن لم يكن كذلك، علم أنه لا يصلح للتقوىٰ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [الحُجُرات]

[٤] نزلت هذه الآيات الكريمة في ناس من الأعراب الذين وصفهم الله تعالىٰ بالجفاء، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله، قدموا وافدين علىٰ رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتىٰ يخرج؛ بل نادوه: يا محمد يا محمد، أي: اخرج إلينا، فذمهم الله بعدم العقل، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل استعمال الأدب فأدب العبد عنوان عقله، وأن الله مريد به الخير.

[٥] ولهذا قال: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: غفور لما صدر عن عباده من الذنوب، والإخلال بالآداب، رحيم بهم، حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثلات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحُجُرات]

[٦] وهذا أيضًا، من الآداب التي علىٰ أولي الألباب، التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بنبإ -أي: خبر- أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجردًا، فإن في ذلك خطرًا كبيرًا، ووقوعًا في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال، بغير حق، بسبب ذلك الخبر ما يكون سببًا للندامة؛ بل الواجب عند خبر الفاسق، التثبت والتبين، فإن دلت الدلائل والقرائن علىٰ صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت علىٰ كذبه، كذّب، ولم يعمل به، ففيه دليل، علىٰ أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير من الخوارج، المعروفين بالصدق، ولو كانوا فساقًا.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ [الحُجُرات]

[٧] أي: ليكن لديكم معلومًا أن ﴿رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ ﷺ، بين أظهركم، وهو الرسول الكريم، البار، الراشد، الذي يريد بكم الخير وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة، ما لا يوافقكم الرسول عليه، ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ لشق عليكم وأعنتكم، ولكن الرسول يرشدكم، والله تعالىٰ يحبب ﴿إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾، ويزينه ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾، بما أودع في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره، وبما نصب علىٰ الحق من الشواهد والأدلة الدالة علىٰ صحته، وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالىٰ بكم، من توفيقه للإنابة إليه، ويكره ﴿إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ﴾، أي: الذنوب الكبار، ﴿وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾؛ أي: الذنوب الصغار بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر، وعدم إرادة فعله، وبما نصبه من الأدلة والشواهد علىٰ فساده، ومضرته، وعدم قبول الفطر له، وبما يجعل الله في القلوب من الكراهة له. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الذين زين الله الإيمان في قلوبهم، وحببه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾؛ أي: الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا علىٰ الدين القويم، والصراط المستقيم. وضدهم الغاوون، الذين حبب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وكره إليهم الإيمان، والذنب ذنبهم، فإنهم لما فسقوا طبع الله علىٰ قلوبهم، ولما ﴿زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف:٥]، ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة، قلب الله أفئدتهم.

[٨] وقوله: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ﴾؛ أي: ذلك الخير الذي حصل لهم، هو بفضل الله عليهم

وإحسانه، لا بحولهم وقوتهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عليم بمن يشكر النعمة، فيوفقه لها، ممن لا يشكرها، ولا تليق به، فيضع فضله، حيث تقتضيه حكمته.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحُجُرات]

[٩] هذا متضمن لنهي المؤمنين عن أن يبغي بعضهم علىٰ بعض، ويقتل بعضهم بعضًا، وأنه إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين فإن علىٰ غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك علىٰ أكمل وجه يقع به الصلح ويسلكوا الطريق الموصلة إلىٰ ذلك، فإذا صلحتا، فبها ونعمت، ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾؛ أي: ترجع إلىٰ ما حد الله ورسوله من فعل الخير وترك الشر الذي من أعظمه الاقتتال، وقوله: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ هذا أمر بالصلح، وبالعدل في الصلح، فإن الصلح قد يوجد؛ ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيف علىٰ أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب ألا يراعىٰ أحدهما، لقرابة، أو وطن، أو غير ذلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾؛ أي: العادلين في حكمهم بين الناس وفي جميع الولايات، التي تولوها، حتىٰ إنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله، وعياله في أدائه حقوقهم، وفي الحديث الصحيح: «المقسطون عند الله، علىٰ منابر من نور الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم، وما ولوا».

[١٠] ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ هذا عقد عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي شخص كان، في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون، ما يحبون لأنفسهم، ويكره له ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبي ﷺ آمرًا بحقوق الأخوة الإيمانية: «**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا يبع أحدكم علىٰ بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا المؤمن أخو المؤمن، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره**» متفق عليه.

وفيهما عن النبي ﷺ: «**المؤمن للمؤمن، كالبنيان يشد بعضه بعضًا**» وشبك ﷺ بين أصابعه.

ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوادد، والتواصل بينهم، كل هذا، تأييد لحقوق بعضهم علىٰ بعض، فمن ذلك إذا وقع الاقتتال بينهم الموجب لتفرق القلوب وتباغضها وتدابرها= فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنآنهم.

ثم أمر بالتقوىٰ عمومًا، ورتب علىٰ القيام بحقوق المؤمنين الرحمة فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وإذا حصلت الرحمة حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك، علىٰ أن عدم القيام بحقوق المؤمنين، من أعظم حواجب الرحمة.

وفي هاتين الآيتين من الفوائد، غير ما تقدم: أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا كان من أكبر الكبائر، وأن الإيمان، والأخوة الإيمانية، لا تزول مع وجود القتال كغيره من الذنوب [الكبائر] التي دون الشرك، وعلىٰ ذلك مذهب أهل السنة والجماعة، وعلىٰ وجوب الإصلاح، بين المؤمنين بالعدل، وعلىٰ وجوب قتال البغاة، حتىٰ يرجعوا إلىٰ أمر الله، وعلىٰ أنهم لو رجعوا، لغير أمر الله بأن رجعوا علىٰ وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه، أنه لا يجوز ذلك، وأن أموالهم معصومة؛ لأن الله أباح دماءهم وقت استمرارهم علىٰ بغيهم خاصة دون أموالهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحُجُرات]

[١١] وهذا أيضًا، من حقوق المؤمنين، بعضهم علىٰ بعض، أن ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ بكل كلام وقول وفعل دال علىٰ تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام، لا يجوز، وهو دال علىٰ إعجاب الساخر بنفسه، وعسىٰ أن يكون المسخور به خيرًا من الساخر، وهو الغالب والواقع، فإن السخرية، لا تقع إلا من قلب ممتلئ من مساوئ الأخلاق، متحلٍّ بكل خلق ذميم، متخل من كل خلق كريم؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «بحسب امرئ من الشر، أن يحقر أخاه المسلم».

ثم قال: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ أي: لا يعب بعضكم علىٰ بعض، واللمز: بالقول، والهمز: بالفعل، وكلاهما منهي عنه حرام، متوعد عليه بالنار.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١﴾ [الهُمَزة] الآية، وسمىٰ الأخ المسلم نفسًا لأخيه، لأن

المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره، أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك.

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾؛ أي: لا يعير أحدكم أخاه، ويلقبه بلقب ذم يكره أن يقال فيه، وهذا هو التنابز، وأما الألقاب غير المذمومة، فلا تدخل في هذا.

﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾؛ أي: بئسما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه، وما يقتضيه الإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنابز بالألقاب.

﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وهذا هو الواجب علىٰ العبد، أن يتوب إلىٰ الله تعالىٰ، ويخرج من حق أخيه المسلم باستحلاله، والاستغفار، والمدح له مقابلة علىٰ ذمه.

﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا ثم غيرهما.

> ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الحُجُرات]

[١٢] نهىٰ الله تعالىٰ عن كثير من الظن السيئ بالمؤمنين، ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السَّوء، الذي يقترن به كثير من الأقوال، والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن السوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه علىٰ مجرد ذلك؛ بل لا يزال به، حتىٰ يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضًا، إساءة الظَّن بالمسلم، وبغضه، وعداوته المأمور بخلافها ذلك منه.

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾؛ أي: لا تفتشوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوها، ودعوا المسلم علىٰ حاله، واستعملوا التغافل عن زلاته التي إذا فتِّشت، ظهر منها ما لا ينبغي.

﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ والغيبة، كما قال النبي ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره ولو كان فيه».

ثم ذكر مثلا منفرًا عن الغيبة، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾ شبّه أكل لحمه ميتًا، المكروه للنفوس غاية الكراهة، باغتيابه، فكما أنكم تكرهون أكل لحمه، وخصوصًا إذا كان ميتًا، فاقد الروح، فكذلك، فلتكرهوا غيبته، وأكل لحمه حيًّا.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ والتوّاب، الذي يأذن بتوبة عبده، فيوفقه لها، ثم يتوب عليه، بقبول

توبته، رحيم بعباده، حيث دعاهم إلىٰ ما ينفعهم، وقبل منهم التوبة، وفي هذه الآية، دليل علىٰ التحذير الشديد من الغِيبة، وأن الغيبة من الكبائر؛ لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحُجُرات]

[١٣] يخبر تعالىٰ أنه خلق بني آدم، من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثىٰ، ويرجعون جميعهم إلىٰ آدم وحواء؛ ولكن الله تعالىٰ بث منهما رجالا كثيرا ونساء، وفرقهم وجعلهم ﴿شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾ أي: قبائل صغارًا وكبارًا، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنه لو استقل كل واحد منهم بنفسه لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون، والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوبًا وقبائل؛ لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها، مما يتوقف علىٰ التعارف، ولحوق الأنساب؛ ولكن الكرم بالتقوىٰ، فأكرمهم عند الله أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافًا عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقومًا، ولا أشرفهم نسبًا؛ ولكن الله تعالىٰ ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾، يعلم منهم يقوم منهم بتقوىٰ الله ظاهرًا وباطنًا، ممن يقوم بذلك ظاهرًا لا باطنًا، فيجازي كلا بما يستحق.

وفي هذه الآية دليل علىٰ أن معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة؛ لأن الله جعلهم شعوبًا وقبائل لأجل ذلك.

﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحُجُرات]

[١٤] يخبر تعالىٰ عن مقالة الأعراب الذين دخلوا في الإسلام في عهد رسول الله ﷺ دخولا من غير بصيرة، ولا قيام بما يجب ويقتضيه الإيمان أنهم ادعوا مع هذا وقالوا: ﴿ءَامَنَّاۖ﴾؛ أي: إيمانًا كاملا مستوفيًا لجميع أموره هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله، أن يرد عليهم، فقال: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾؛

أي: لا تدّعوا لأنفسكم مقام الإيمان ظاهرًا وباطنًا كاملا. ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾؛ أي: دخلنا في الإسلام، واقتصروا علىٰ ذلك.

﴿وَ﴾ السبب في ذلك أنه ﴿لَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ وإنما أسلمتم خوفًا أو رجاء أو نحو ذلك، مما هو السبب في إيمانكم، فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان في قلوبكم، وفي قوله: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾؛ أي: وقت هذا الكلام الذي صدر منكم فكان فيه إشارة إلىٰ أحوالهم بعد ذلك، فإن كثيرًا منهم، منّ الله عليهم بالإيمان الحقيقي والجهاد في سبيل الله، ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بفعل خير أو ترك شر ﴿لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾؛ أي: لا ينقصكم منها، مثقال ذرة؛ بل يوفيكم إياها، أكمل ما تكون لا تفقدون منها صغيرًا ولا كبيرًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: غفور لمن تاب إليه وأناب، رحيم به حيث قبل توبته.

[١٥] ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي: علىٰ الحقيقة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: من جمعوا بين الإيمان والجهاد في سبيله، فإن من جاهد الكفار، دل ذلك، علىٰ الإيمان التام في قلبه؛ لأن من جاهد غيره علىٰ الإسلام، والقيام بشرائعه، فجهاده لنفسه علىٰ ذلك، من باب أولىٰ وأحرىٰ؛ ولأن من لم يقو علىٰ الجهاد، فإن ذلك، دليل علىٰ ضعف إيمانه، وشرط تعالىٰ في الإيمان عدم الريب؛ أي: الشك، لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني، بما أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك، بوجه من الوجوه.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾؛ أي: الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة، فإن الصدق، دعوىٰ عظيمة في كل شيء يدّعىٰ يحتاج صاحبه إلىٰ حجة وبرهان، وأعظم ذلك دعوىٰ الإيمان، الذي هو مدار السعادة، والفوز الأبدي، والفلاح السرمدي، فمن ادعاه، وقام بواجباته، ولوازمه، فهو الصادق المؤمن حقًّا، ومن لم يكن كذلك، علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة، فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالىٰ؛ فإثباته ونفيه، من باب تعليم الله بما في القلب، وهذا سوء أدب، وظن بالله.

[١٦] ولهذا قال: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ وهذا شامل للأشياء كلها، التي من جملتها، ما في القلوب من الإيمان والكفران، والبر والفجور، فإنه تعالىٰ، يعلم ذلك كله، ويجازي عليه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

[١٧] هذه حالة من أحوال من ادعىٰ لنفسه الإيمان، وليس به، فإنه إما أن يكون ذلك تعليمًا لله، وقد

علم أنه عالم بكل شيء، وإما أن يكون قصدهم بهذا الكلام المنة علىٰ رسوله، وأنهم قد بذلوا له وتبرعوا بما ليس من مصالحهم، بل هو من حظوظه الدنيوية، وهذا تجمل بما لا يجمل، وفخر بما لا ينبغي لهم الفخر به علىٰ رسوله فإن المنة لله تعالىٰ عليهم، فكما أنه تعالىٰ يمن عليهم، بالخلق والرزق، والنعم الظاهرة والباطنة، فمنته عليهم بهدايتهم إلىٰ الإسلام، ومنته عليهم بالإيمان، أفضل من كل شيء، ولهذا قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

[١٨] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾؛ أي: الأمور الخفية فيهما التي تخفىٰ علىٰ الخلق؛ كالذي في لجج البحار، ومهامه القفار، وما جنّه الليل أو واراه النهار، يعلم قطرات الأمطار، وحبات الرمال، ومكنونات الصُّدور، وخبايا الأمور. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يُحصي عليكم أعمالكم، ويوفيكم إياها، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة، وحكمته البالغة.

تم تفسير سورة الحجرات

بعون الله ومنه وجوده وكرمه، والحمد لله.

المحتويات

للمراسلة حول تصحيح الأخطاء المطبعية

Sunnah.College1@gmail.com